وعظ القلوب

الطبعـة الأولى

١٤٤٧هـ - ٢٠٢٥م

دولة الكويت

فرع حولي - شارع المثنى - بجوار مجمع البدري

هاتف: ٩٦٩٩٩١٨٢ - ٩٨٨٥٦٥٠٥ / ٠٠٩٦٥

(دار وقفية دعوية)

Falaslmi@gmail.com

وَعْظُ القُلُوبِ

الدكتور سالم العجمي

دار إيلاف الدولية
للنشر والتوزيع

﴿رَبَّنَا تَقَبَّلۡ مِنَّآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمدُ لله، والشُّكر له على تَوفيقه العَام، وأشهَدُ أن لا إله إلا الله وحده لا شريكَ له، تفرَّد بالكمَال والتمَام، وأشهَدُ أنَّ محمدًا عبدُه ورسوله، صلى الله عليه وعلى آله وصَحبه، هُداة الأنام ومَصَابيح الظلام.

أمَّا بعدُ:

فإنَّ القُلوبَ تقسُو وتتقَلَّب، حتى إنَّ صاحبها ليَجِد بينَه وبينها وَحشة، ويفتقدها في الوقت الذي يكون أحوَجَ ما يكون إليها.

ولا سبيل إلى الوصول إلى القُلوب في هذه الحال إلا بِوَعظها وتذكيرها حتى تعودَ رقيقة ليِّنة، فيذهب عن صاحبها ألمُ الفَقد، ويزول عنه ما أغَمَّه.

وفي هذا الكتاب جملةٌ من المواعظ المتفرقة، جمعتُها هنا رجاء أن ينفع الله بها، وأسأل الله أن يدَّخرها لي يوم لقائه، يوم الفقر والفاقَة.

وصلَّى الله وسَلم على نبينا محمَّد وعلى آله وصَحبه أجمَعِين.

كتبه

الدكتور سالم العجمي

المواعظ

القلوب كُلما طالَ عليها الأمَدُ تتغيَّر، وتصيبها وَحشَة ونكارة، وتصدأ كما يصدأ الحديد، فتحتاج إلى ما يليِّنها ويَرُدها إلى جادَّة الرقة واللطف والمشاعر، ولا أنجح لها في هذا الباب من الوعظ والتذكير، فإنه حياة القلوب، ويأخذ بها إلى ما فيه النجاة من العَطَب.

وقد كان النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يعظ أصحابَه ويُذَكِّرهم بالله؛ لتبقى قلوبهم صحيحة نقية، متعلقة بخالقها، قاطعةً الرجاءَ مما سواه؛ فبلغوا بسبب ذلك الدرجات العالية، وحازُوا المنازل الرفيعة، وصاروا قدوات لمن جاء بعدهم واهتدى بِهَدْيهم، وعظُم قدرهم حتى وكأنهم عانَقُوا السماء وطَاوَلُوا الجبال، وما ذلك إلا لأن المَوَاعظ وقَعَت في قلوبهم خيرَ موقع، فلما تحقَّق ذلك أَتبَعوا القَولَ بالعمل؛ فحَازُوا كُل فضيلة.

ولعظيم مَنزِلة الوعظ فقد كان النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُحب أن يسمَعَه ويستَلِذَّ به، ويرى فيه حياة قلبه وانشراح صَدرِه، وكان صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذا مالت نفسُه إلى شيء من ذلك، لم يجِد لها واعظًا أفضل من كلام الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فإذا سَمِعَه أصابته رِقَّةٌ فوق رِقَّته، وخشيةً أشد ما تكون لخَالِقِه مع كونه أخشَى الخلق وأتقاهم لله تعالى، فقد جاء عن عبد الله بن مَسعُود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «قالَ لي النَّبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **اقرَأ عليَّ القُرآنَ**، قلتُ: أقرأ عليك وعليك أُنزِل؟! قال: **إني أُحبُّ أن أسمَعَه من غَيرِي**، فَقَرَأتُ سُورَةَ النِّسَاءِ، حَتَّى أَتيتُ إِلَى هَذِهِ الآيَةِ: ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾ ﴾ [النساء:٤١]، قَالَ:

حَسبُكَ الآنَ. فَالتَفَتُّ إِلَيهِ فَإِذَا عَينَاهُ تَذرِفَانِ»[1].

فإذا كانَ النَّبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهو صاحبُ المَقام الأعلى، والمَنزلة الأسمى، والذي غُفِر له ما تقَدَّم من ذنبه وما تأخَّر، يُحِب أن يسمَعَ المَوعِظة ويتأثَّر بها، فكيف بنا نحن الضُّعفاء المُفَرِّطون، الذين طالَت بنا الآمَال، وضَعُفت منا الأعمال، وتبَدَّلت بنا الأحوال؟

وما كان فِعلُه ذلك صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلا لنقتدي به في جميل سِيرَته، وعظيم سُنَّته؛ لتَحيا بسبب ذلك قلوبُنا، وتُنوَّرُ دروبُنا، فتَسهُل توبَتُنا، وتعذُب أوبَتُنا، وتُغسَل حَوبَتُنا.

وأسعَدُ الناس بالمَوعظة مَن كان له قلب مُفعَمٌ بالحياة، فقد قيل: يا لها من موعظة لو وافقت في القلوب حياة، قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٧﴾﴾ [ق:٣٧]؛ أي: إنَّ فيما ذُكر من العِبَر تذكرة وعِظَة لمن كان له قلب حاضر مع الله ليس بغافل ولا سَاهٍ، واستمع القرآن، واستمع ما يُقَال له، لا يُحَدِّث نفسَه بغيره.

وفي المواعظ إقامة للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، الذي هو من أعظم أسباب الفوز والفلاح، وقد حثَّ ربُّنا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عليه، قال الله تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾﴾ [آل عمران:١٠٤].

وفي الموعظة إقامة للحُجَّة على الخَلْق، ولعل الله أن يَردَّ الموعوظين إليه؛ فيكون لهم في ذلك أعظم الفوز والتوفيق، وفيها نجاة للواعظ من العقوبة التي

(١) رواه البخاري (٤٧٦٣).

تقع بمَن عصَى الله وخالَفَ أمره، قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ۙ اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ۖ قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٦٤﴾ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿١٦٥﴾﴾ [الأعراف:١٦٤-١٦٥]، وقد نزلت هذه الآيةُ في بَني إسرائيل؛ حيث إنهم لمَّا خَالَفُوا أمر الله ابتلاهم، فأمرهم سبحانه أن يُعظِّموا يوم السبت ويحترموه، ولا يَصِيدوا فيه صيدًا، ثم امتحنهم سبحانه، فكانت الحِيتان تأتيهم يوم السبت كثيرة طافيَة على وجه البحر، فإذا ذهب يوم السبت ذهبت في البحر فلا يرون منها شيئًا، فتحَيَّلوا على الصيد، فكانوا يحفرون لها حفرًا، وينصبون لها الشباك، فإذا جاء يوم السبت ووقعت في تلك الحفر والشباك، لم يأخذوها في ذلك اليوم، فإذا جاء يوم الأحد أخذوها، فلما كان ذلك انقسَمُوا ثلاث فرق: ففرقة اعتدوا وتجَرَّؤوا على مخالفة أمر الله، وفرقة أنكرت عليهم ما حصل منهم من الاعتداء على أمر الله، وفرقة اكتَفَت بإنكار من أنكر ونهاهم عن ذلك، وقالوا لهم: ﴿لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ۙ اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ۖ﴾، وكأنهم يقولون: لا فائدة في وعظ مَن اقتحم محَارم الله، واستمر على اعتدائه وطغيانه، فإنه لا بُدَّ أن يعاقبهم الله، إما بهلاك أو عذاب شديد، فقال الواعظون: نعظهم وننهاهم لنعذر فيهم، ولعَلَّهم يتركون ما هم فيه من المعصية، فلا نيأس من هدايتهم، فربما نَجَحَ فيهم الوعظ وأحْدَثَ أثرًا، وهذا المقصود الأعظم من إنكار المنكر ليكون مَعذِرة، وإقامة حُجة على المأمور المنهي، ولعل الله أن يهديه، فيعمل بمقتضى ذلك الأمر والنَّهي.

فلمَّا ترَكُوا ما ذُكِّروا به، واستمَرُّوا على غَيِّهم واعتدائهم، أنجى الله من العذاب الذين كانوا يَنهَون عن السوء، وهذه سُنَّة الله في عباده، أن العقوبة إذا

نزلت نجَا منها الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر، وأخذ الذين اعتدوا بعذاب بَئِيس بما كانوا يفسقون.

ولا أَحَدَ أحب إليه العُذر من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ومن أجل ذلك أرسل المرسلين مبشرين ومنذرين، قال تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴿١٥﴾﴾ [الإسراء:١٥]، وقال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًۢا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ﴾ [التوبة:١١٥].

وفي رجوع الناس إلى الله تعالى وإقامة التقوى في أنفسهم وأعمالهم عمارة الأرض بطاعة الله، وانتشار الخير وانحِسَار الشر، وسبيل ذلك الموعظة الحَسَنة التي تَدُل الخَلْقَ على الله، والهدايةُ بيد الله سبحانه يمتَنُّ بها على من شاء من عباده.

ومن تأمَّل في ذلك عَلِم منزلة الموعظة، وأيقن بالحظ العظيم للواعظ إذ اختاره الله لهذا السبيل وفتح على يديه بهذه الوسيلة، فجاهد أن يكون من أهلها ليفوز بوعد الله تعالى، ولم يقصِّر جهدًا لأجل تحقيق ذلك؛ ليَنال الفضل والسؤدد والمنزلة العظيمة عند الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ويظفر بالأجر الكبير الذي لا يخطُرُ له على بال، كما في قوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لأن يَهدي الله بك رجلًا واحِدًا خير لك من حُمْر النَّعَم**»(١).

وقوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إنَّ الله وملائكته وأهل السَّماوات وأهل الأرض حتى النَّملة في جُحرِها وحتى الحيتان في البحر ليُصَلُّون على مُعلِّم الناس الخَير**»(٢).

(١) رواه البخاري (٢٧٣٨)، ومسلم (٢٤٠٦).
(٢) رواه الترمذي (٢٢٨٠)، وهو حسن، انظر: صحيح الترغيب للألباني (٨١).

وصلاة الله تعالى: أن يُثني على العبد في الملأ الأعلى، وصلاةُ الخَلْق على العبد أن يستَغفِرُوا له.

فأي فضلٍ بعد هذا؟، وأي فَوزٍ وظَفر لِمَن وفَّقه الله لذلك؟

وينبغي لمن تصَدَّى لوعظ الناس وتذكيرهم، أن يبدأ بنفسه فيأمرها وينهاها؛ فإنَّ ذلك أدعى لقبول عمله وبركته، وأن يكون له أعظم الأثر فيمن سمعه أو رآه.

قال ذَرٌّ لأبيه عُمر بن ذر: «ما بالُ المُتكلمين يتكلمون فلا يبكي أحَدٌ، فإذا تكلمت يا أبت سَمِعتُ البكاء من هاهنا وهاهنا؟! فقال: يا بني، ليست النائحة المستأجرة كالنائحة الثكلى».

ولا يحسُن في حَق مَن تصدى لوعظ الناس أو اقتدى الناس به أن يخالف قوله فعله، وأن يقدم على ما ينهى الناس عنه، أو أن يفعل ما يَقبُح في حقه.

قال أبو جعفر النيسَابوريُّ: «ليس الحَكيم الذي يلقِّنك الحِكمة تلقينًا، إنَّما الحكيم الذي يعمَلُ العملَ فتقتدي به».

والواجب في حقه أن يجاهد بأن يكون صادق القول والعمل، وأن يكون عملُهُ مطابقًا لِمَا يأمر الناسَ به أو ينهاهم عنه.

قال رجلٌ لعَلي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: عِظني وأوجز، قال: «توقَّ ما تعيب»، وقال أيضًا: «لا تأتِ ما تعيب، ولا تَعِب ما تأتي».

وقول الله تعالى أعظم واعظ وأبلغ زاجِر، وخير هادٍ إلى سبيل الرَّشَاد، فقد قال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ۝٢ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ۝٣﴾ [الصف:٢-٣]، وفي هذا أعظَمُ بيَان على أن الله تعالى يُبغض هذه الصفة، ومن أجل ذلك فقد حذَّر منها سبحانه.

وقد جاء رجل إلى ابن عبَّاس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فقال: «إنِّي أريدُ أن أعِظَ، فقال: أوَبلَغت ذلك؟ إن لم تخش أن تفتضح بثلاث آيات من كتاب الله تعالى فافعل، قال: وما هي؟ قال: قول الله تعالى: ﴿ أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ ﴾ [البقرة:٤٤]، وقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٢﴾ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُوا۟ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٣﴾ ﴾، وقول العبد الصالح شعيب: ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ ﴾ [هود:٨٨]، فهل أحكمت هذه الآيات؟ قال: لا، قال: فابدأ إذَن بنفسك».

وقد يحصُلُ للإنسان شيء من الخَلَل في عمله، أو يضعف إيمانه، فعليه أن يُحدِثَ لذلك توبة وإنابة، وأن يستأنف العمل، ولا يجعل ذلك الأمر صادًّا له عن الأمر بالمعروف والنهي عن المُنكَر، فالمرء ما دام أنه يعيش في هذه الدنيا فلا بُد أن يحدث له نوع من التقصير وربما الوقوع في الذنب، قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**والله لو لم تُذنِبُوا، لذهب الله بكم ولَجَاء بقوم يذنبون فيستغفرون الله فيغفر لهم**»(١).

وعلى الواعظ أن يتلطف مع الناس، وأن يأخُذَهم بالرِّفق واللين، خُصوصًا في هذه الأزمان التي كَثُرت فيها الشبهات، وتفشَّت بها الشهوات، وفتح على الناس أبواب المنكرات حتى أصبح الوصول إليها من أيسر ما يكون، ولا يحتاج إلى كبير جهد، ولا كثير عمَل.

والرِّفقُ من أهم الوسائل التي يكسب بها الواعظ قلوبَ الخَلق، فيسهل بعد ذلك تغذيتها بما يريد من الخير، ومن سَعَادة المرء أن يكون رفيقًا بالخلق قولًا

(١) رواه مسلم (٢٧٤٩).

وعملًا، فيعاملهم بالأخلاق والرحمة، ويسارع في مساعدتهم فيما يحتاجون من أمور الحياة، ويبذل جَاهَه لتسهيل ما عسر عليهم، فإنَّ هذا من أعظم الدلائل على أنه يحبُّ الخير، خصوصًا وأنه يفعله لله دون أن يطلُبَ عليه مقابلًا.

ولعظيم أمر الرِّفق وشِدَّة أثره على الناس فقد جاءت النصوص الشرعية بالحثِّ عليه وتأكيده، قال تعالى: ﴿وَٱخۡفِضۡ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٢١٥﴾﴾ [الشعراء:٢١٥].

وقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**من يُحرَم الرِّفق يُحرم الخير كله**»[(١)]؛ أي: يُحرَم الخير الذي يقود إليه الرِّفق.

وقد كان النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مُتصفًا بالرفق، متعَاملًا به مع الخَلق، حتى اجتمعت عليه القلوب وأحَبَّته، وكان لذلك أبلغ الأثر عليهم، وهي مِنَّة قد امتَنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عليه بها، وذَكَّره بنعمته عليه حين هدى الخلق على يديه، وحَذَّره من نقيض ذلك فقال تعالى: ﴿فَبِمَا رَحۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمۡۖ وَلَوۡ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلۡقَلۡبِ لَٱنفَضُّواْ مِنۡ حَوۡلِكَۖ﴾ [آل عمران:١٥٩]، وهي وصية لمن تصَدَّى لوعظ الناس من باب أولى، لحاجتهم إليها أشد ما يكون.

والمتأمل في سيرته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يتَّضِحُ له جليًّا أنَّ الرفق كان من أكثر ما يتعاطاه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مع الآخرين، الصغير والكبير، والرجال والنساء، فعن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «كانَ رسولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَمُر بالغلمان فيُسَلم عليهم، ويدعو لَهُم بالبَركة»[(٢)].

---

(١) رواه مسلم (٢٥٩٢).

(٢) رواه الطبراني في «الأوسط» (٥١٦٤)، وهو صحيح، انظر «السلسلة الصحيحة» للألباني (١٢٧٨).

وجاء عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه كان عند بعض نسائه، فأرسَلَت إحدى أمهات المؤمنين بصحفة فيها طعام، فضربت التي كان النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في بيتها يدَ الخادم فسَقطت الصحفة فانفلقت، فجمع النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فلق الصحفة، ثم جعل يجمع فيها الطعام الذي كان في الصحفة ويقول: «**غَارَت أمُّكم**»(١).

وجاء رجل إلى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يتقاضاه، فأغلظ له، فهَمَّ به أصحابه، فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**دَعُوه؛ فإن لصاحب الحق مقالًا**، ثم قال: **أعطوه سِنًّا مثل سِنِّه**، قالوا: يا رسول الله، لا نجد إلا أمثل من سِنه، قال: **أعطوه، فإن خيركم أحسنكم قضاء**»(٢).

بل وتعامل النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالرفق حتى مع المُخَالفين طمعًا في هدايتهم، فقد جاء عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أنَّ نفرًا من اليهود دخَلُوا على رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقالوا: السامُ عليكم -أي: الموت- قالت عائشة: «ففهمتُها فقلتُ: عليكم السام واللعنة، فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **مَهلًا يا عائشة! إن الله يحب الرفق في الأمر كله**. فقلتُ: يا رسول الله، أوَلَم تسمع ما قالوا؟ قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **قد قلتُ: وعليكم**»(٣).

وعلى الواعظ أن يكون لينًا في قوله، لطيفًا في وعظه، رحيمًا في نصحه لمن رجا أن يقبل منه، فإن الغلظة تحجب النصيحة وتضعفها.

---

(١) رواه البخاري (٢٩٢٧).

(٢) رواه البخاري (٢١٨٢)، ومسلم (٢٦٠١).

(٣) رواه البخاري (٢٧٧٧)، ومسلم (٢١٦٥).

جاء رجلٌ إلى هارون الرشيد فقال: «إنِّي أريدُ أن أغلظ عليك في المقال، فهل أنت محتمل؟ قال: لا؛ لأن الله تعَالى أرسل مَن هو خير منك -أي: موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ- إلى مَن كان شرًّا منِّي -أي: فرعون- فقال: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾﴾ [طه:٤٤]».

وقد قيل: الواجبُ لمن يعظ ألَّا يُعنِّف، ولمن يُوعَظ ألَّا يَأنَف.

○○○○○

حياة القلوب

صلاحُ القلب سببٌ لحياته، وإذا كان القلب حيًّا صلحت حياةُ صَاحِبه؛ فقاده إلى كل خير، واستقامت له الأمور، وذلك أنَّ القلب قائدٌ لبقية البدن، فَبِه يستقيم على الهُدَى، وبسببه ينجَرفُ إلى مهَاوي الرَّدَى، وقد أشار النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى ذلك بقوله: «**إن في الجَسد مُضغَة، إذا صلحت، صلح الجسد كله، وإذا فسَدَت، فسد الجسد كله، ألا وهي القَلب**»(١)، والمُضغَة: هي القطعة من اللحم، سُمِّيت بذلك لأنها تُمضَغ في الفم لِصِغَرها، **والمراد بذلك**: تصغير القلب بالنسبة إلى باقي الجَسد، ومع ذلك فإنَّ صلاح الجسد وفساده تابعان للقلب، وفي هذا التأكيدُ على السعي في صلاح القلب وحمايته من الفساد؛ لأنه إذا فسد انطمس نوره، وخاب سَعيُه، كما قال الله تعالى: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴿٤٦﴾﴾ [الحج:٤٦].

ومن أجل ذلك فقد اهتَمَّ السلف بالعمل على صلاح القلب والحَذَر من فساده؛ لعِلمِهم بأثَرِه البالغ على الأقوال والأفعال، **قال سعيد بن المسيب**: «أصلِح قلبك، والبَس مَا شِئتَ».

وقال صالح بن عبد الكريم: «مثل القلب مثل الإناء، إذا ملأته ثم زدت فيه شيئًا فاض، فكذلك القلب إذا امتلأ من حب الدنيا لم تدخله المَوَاعظ».

ومِن أعظم أسباب حيَاةِ القلوب: سُرعة الاستجَابَة لله ورسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ،

(١) رواه البخاري (٥٢)، مسلم (١٥٩٩).

قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمۡ لِمَا يُحۡيِيكُمۡۖ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيۡنَ ٱلۡمَرۡءِ وَقَلۡبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾ [الأنفال:٢٤]، وهذا مما يَدُل على أن الحياة الطيبة الهانئة إنما تحصُل بالاستجابة لله ورسوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ ظاهرًا وباطنًا، وكلما كان المرءُ أسرَعَ استجابة لدعوة الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ، كان أكمل الناس حياة، وأنَّ مَن لم يحقق هذه الاستجابة فلا حياة له.

وقد جاء النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ بالأسباب التي تُحَقق حياة القلب وسعادته، وبها تَسعد حياة المرء ويلذ عيشُه، فقد جاء بالإسلام الذي أحيا الله به الناس بعد موتهم بالكفر، وجاء بالقرآن الذي فيه الحياة والثقة والنجاة والعصمة في الدنيا والآخرة، وشُرِع له الجهاد الذي أعزَّ الله به المسلمين بعد الذل، وقَوَّاهم به بعد الضعف، وحماهُم به من قهر العدو وتسلطِه عليهم، وفي الآخرة كان مستقرهم الجنة التي فيها الحياة الطيبة الدائمة ﴿ لَا يَمَسُّهُمۡ فِيهَا نَصَبٞ وَمَا هُم مِّنۡهَا بِمُخۡرَجِينَ ﴿٤٨﴾ ﴾ [الحجر:٤٨]، فمن علم هذه الحقيقة سارع بالاستجابة للنبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ؛ لِمَا يترتَّب على ذلك من العيش الرَّغد في الدنيا، والنعيم المقيم في الجنة دار الخلود.

ولا تنفع الاستجابة بالبَدَن دون القلب؛ لأن مدار العمل على القلب، فإن علم الله منه خيرًا سَدَّده وحَالَ بينه وبين معصيته، وإن علم منه زَيْغًا حال بينه وبين طاعته، كما قال تعالى: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيۡنَ ٱلۡمَرۡءِ وَقَلۡبِهِۦ﴾ [الأنفال:٢٤]، **قال ابنُ عباس** رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمَا: «يَحُول بين المؤمن وبين الكفر، وبين الكافر وبين الإيمَان».

وقال تعالى: ﴿ وَنُقَلِّبُ أَفۡـِٔدَتَهُمۡ وَأَبۡصَٰرَهُمۡ كَمَا لَمۡ يُؤۡمِنُواْ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٖ ﴾ [الأنعام:١١٠]، وقال: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡۚ﴾ [الصف:٥].

وعن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «كان النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُكثِر أن يقول: **يا مُقَلِّب القلوب، ثَبِّت قلبي على دِينِك**. فقلنا: يا رسول الله، آمنَّا بك وبما جئتَ به، فهل تخاف علينا؟ قال: **نَعَم، إن القلوبَ بين إصبعَيْنِ من أصابع الله تعالى يُقَلِّبُها**»(١).

ولا شيء أفسَدُ للقلوب من الذنوب، ولا يزال المَرء يُسَارع إلى الذنوب ويجمعها بكل وسيلة حتى يموتَ قلبُه، **قال محمد بن واسِع**: «الذَّنب على الذنب يُميت القلب، ومن مات قلبُه فقد تحققت شِقْوتُه، وعظمت خسارَتُه».

ومن أعظم الدلائل على حياة القلب: كثرة ذِكر الله عَزَّوَجَلَّ، فمُدَاومة ذكر الحي الذي لا يموت تُورث الحياة الحقيقية، وقد قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مَثَل الذي يذكُر ربه والذي لا يذكُر ربَّه مثل الحَي والمَيت**»(٢).

فالذي يذكر الله تعالى قد أحيَا الله قلبَه بذِكره، وشرح له صدره، فكان كالحي، وأما الذي لا يذكر الله، فإنه لا يطمئن قلبه، ولا ينشرح صدره للإسلام فهو كمثل الميت، ومَن تأمَّل هذا المثل ينبغي له أن يعتَبِر به، وأن يعلم أنَّ حياة قلبه بذِكر الله تعالى، فإذا غفل عن ذكر الله عَزَّوَجَلَّ مات قلبُه، وفي ذلك أشد الخَطر، وأكبر الضَّرَر.

والقرآن أعظَمُ الذِّكر، فهو كلامُ الله المُنزَّل، وتدبره يُحيي القلوب، ويُبَصِّرها بمواقع النجاة والسلامة من العَطَب، ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٩﴾﴾ [ص:٢٩]، فإذا أراد الله بعَبدِه خيرًا فتح بينه وبين

(١) رواه ابن ماجه (٣٨٣٤)، وهو صحيح، انظر: «صحيح الأدب المفرد» (٥٢٨).
(٢) رواه البخاري (٦٠٤٤)، ومسلم (٧٧٩).

كتابه، فغاص في بحُور مَعانيه، واستخلص منها ما يُصَحِّح له المَسار، ويقوده إلى كل فضيلة وبر، فحاز مراتبَ السَّبق العالية، وبلغ المَنَازل المُنيفة التي لا تُدَانيها منزلة، قال تعالى: ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ ﴾ [الإسراء:٩]، وإذا لم يُرد بعَبدِه خيرًا حال بينه وبين فهم معاني كتابه العزيز، فلم يوفق لما فيه نجاته وهناء عيشه وطيب حياته، قال تعالى: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾ ﴾ [محمد:٢٤]؛ أي: أنَّ قلوبهم مُقفَلَة مُطبقة لا ينفذ إليها شيء من مَعَانيه ولا تهتدي لهداه، قد أغلقت على ما فيها من الشر وأقفلت، فلا يدخُلها خير أبدًا.

قال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فهَلَّا يتدبر هؤلاء المُعرِضون لكتاب الله، ويتأمَّلونه حق التأمل، فإنَّهم لو تدَبَّروه لدَلَّهُم على كل خير، ولحذرهم من كل شر، ولملأ قلوبهم من الإيمان، وأفئدتهم من الإيقان، ولأوصلهم إلى المَطَالب العالية، والمَوَاهب الغالية، ولبَيَّن لهم الطريق المُوصِلة إلى الله، وإلى جنته ومكملاتها ومفسداتها، والطريق المُوصِلة إلى العذاب، وبأي شيء تحذر، ولعرفهم بربهم، وأسمائه وصفاته وإحسانه، ولشوَّقهم إلى الثواب الجزيل، ورهبهم من العقاب الوَبِيل»[(١)].

وينبغي للعبد مُلازمَة الأذكار التي دلَّت عليها السنة النبوية، والإكثار منها، فمن فعل ذلك فقد ظفر بحياة قلبه، وسبق إلى ما لم يُسبق إليه، قال صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**سَبق المُفَرِّدون**. قالوا: وما المُفَرِّدون يا رسول الله؟ قال: **الذَّاكِرُون الله كثيرًا والذَّاكِرَات**»[(٢)].

---

(١) «تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان» (ص٧٨٨).

(٢) رواه مسلم (٢٦٧٦).

وجاءه رجلٌ فقال: «يا رسُولَ الله، إن شرائع الإسلام قد كَثُرت عليَّ، فأخبرني بشيء أتشَبَّثُ به. قال: **لا يزالُ لسانك رَطبًا من ذِكرِ الله تعالى**»(١).

ومَن أكثَرَ من ذِكر الله فقد وُفِّق إلى السَّبيل الذي يقود إلى محبَّة الله ورضوانه؛ لأنَّ هذه الأذكار تجعله دائم الأنس بالله، ويستشعر قربه منه سبحانه؛ لأنها تتضمن معنى اللجوء إلى الله والتعلق به، وبذلك تكون حياة القلب، وقد جاء في الحديث أنَّ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**إنَّ الله عَزَّوَجَلَّ يقول: أنا مع عبدِي إذا هو ذَكَرني وتحَرَّكت بي شَفَتاه**»(٢).

ولِينُ القلب دليلُ حياته، ويقوده إلى الطمأنينة والانشراح، قال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾﴾ [النحل:٩٧]، ولا أعظم من راحة القلب التي تقوده إلى طِيبِ الحياة.

والإحسان إلى الخلق بوَّابة إلى لين القلوب، ومَن أحسَنَ إلى الخلق بمعاملته، أحسن الله إليه في تيسير أموره، وانبسَاط عَيشِه، وامتلاء قلبه بالسعادة الغامرة؛ فتَطيبُ حيَاتُه.

ومَن لانَ قلبُه للخَلْق ظهر أثَرُ ذلك على الأخلاق والبدن، فيتعامل مع الناس بالرفق، ويُعَاملهم بالرحمة، فتزول عنه القسوة، وتذهب عنه الوَحشَة التي تعزله عن المتعة، وتحجبه عن السرور.

وقد نبَّه النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى أنَّ لين القلب مَطلبٌ لكل ذي عقل، وبيَّن

(١) رواه الترمذي (٣٦٧١)، وهو صحيح، انظر: «صحيح الترغيب والترهيب» (١٤٩١).
(٢) رواه أحمد (١٠٩٦٨)، وهو صحيح، انظر: «صحيح الترغيب والترهيب» (١٤٩٠).

الأسباب الموجبة لذلك، وما تَؤُول إليه من تيسير أمره، ونجاح سَعيه، فقد جاءَ رجلٌ إلى النَّبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يشكو قسوة قلبه، فقال له: «**أتُحِب أن يَلين قَلبُك، وتدرك حاجتك؟، ارحَم اليتيم، وامسَح رأسه، وأطعمه من طعَامِك، يَلِن قلبُك وتدرك حاجَتَك**»(١).

وذكر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أمثلة كثيرة تُبَيِّن الأسباب الجالبة للين القلوب ومرغبة بها، ومن ذلك قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أنا وكافِلُ اليتيم في الجنَّة هكَذَا** -وأشار بالسبابة والوسطى وفرَّج بينهما-»(٢).

وقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**بينما رجلٌ يمشي بطريق اشتد به العطش، فوجد بئرًا فنزل فيها، فشَرب ثم خرج، فإذا كلبٌ يلهَثُ؛ يأكل الثَّرى من العطش، فقال الرجل: لقد بلَغَ هذا الكلب من العطش مثل الذي كان بلغ منِّي، فنزل البئر فمَلأ خُفَّه، ثم أمسكه بفِيهِ، فسقى الكلب، فشكر الله له، فغَفَر له**. قالوا: يا رسول الله، وإن لنا في البهائم أجرًا؟ قال: **في كل ذات كبدٍ رَطبة أجر**»(٣).

وفي هذا أعظم دليل على أنَّ الرحمة من أسباب لين القلوب، وإنما كان الحثُّ عليها لما ينتج عن ذلك من حياة القلب، فإذا قسَا القلبُ شَقِي صاحبه وضاق عيشُه، وآل حاله إلى خُسران، كما أشار النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى ذلك بقوله: «**عُذِّبت امرأةٌ في هِرَّة، حبَسَتها حتى ماتت جوعًا، فدخلت فيها النار**»(٤).

---

(١) رواه الطبراني في «مكارم الأخلاق» (١٠٧)، وهو صحيح، انظر: «صحيح الترغيب والترهيب» (٢٥٤٤).

(٢) رواه البخاري (٥٦٥٩).

(٣) رواه البخاري (٢٢٣٤)، ومسلم (٢٢٤٤).

(٤) رواه البخاري (٢٢٣٦)، ومسلم (٢٢٤٢).

قال الفُضيل بن عياض: «مِن علامة الشقاء: جمُود العين، وقساوَةُ القلب، وطول الأمل».

فصاحب القلب القاسي بعيدٌ عن الله، لا يعرف رحمةً لضعيف، ولا مُوَاساة لمحتاج، ولا نصرة لمظلوم، يعيش متخبطًا بين الأوهام الكاذبة، لا يشغله إلا متابعةُ هواه وحصولُ مُبتَغاه، ولو كان ذلك على حساب قسوة قلبه وسقوط جاهه عند ربه ومولاه.

وسلامة القلوب علامةٌ على حياتها، ومن أعظم أسباب نجاتها يوم القيامة، قال تعالى: ﴿وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴿٨٧﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾ [الشعراء:٨٧-٨٩]، **والقلب السَّليم**: هو الذي سَلِم من الشِّرك والشك، ومحبةِ الشر، والإصرارِ على البدعة والذنوب، ويلزم من سلامته اتصافه بالإخلاص والعلم واليقين، ومحبةِ الخير وتزيينِه في قلبه، وأن تكون إرادته ومحبته تابعة لمحبة الله، وهواه تابعًا لما جاء عن الله، وهذا القلب هو الذي ينفع عند الله، وهو الذي ينجو به من العقاب ويستحق جزيل الثواب.

وقد وصف الله سبحانه عبَاده الصَّالحين بسلامة القلب ومدحهم على ذلك، كما وصف الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ إبراهيم عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بسلامة القلب، فقال: ﴿إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٤﴾﴾ [الصافات:٨٤].

ومن أجل ذلك فقد اتَّصَف السَّلف بهذه الصفة العظيمة، وتعاملوا بها في مجريات حياتهم، ليقينهم بما تعود به من الخير الكثير والفضل الكبير.

جاء عن محمد بن واسع أنه فقد رجلًا من أصحابه، ثم لقيَه، فأخذ الرجل يعتذر إليه، فقال له محمد: «لا عليك متى كان الالتقاء إذا كانت القُلوب سليمَة».

وقال الفُضَيل بن عياض لرجل: «لأعلمنك كلمة هي خير من الدنيا وما فيها: والله لئن علم الله منك إخراج الآدميين من قلبك حتى لا يكونَ في قَلبِك مكانٌ لغيره، لم تسأله شيئًا إلا أعطَاك».

ومِن أعظم الأسبَاب المُوصِلة إلى حياة القَلب: قلَّة الكلام إلا في خير، ومن فعل ذلك فقد حاز درجات التوفيق؛ لأنَّ قليل الكلام هو في الغالب مُنشَغل عن غيره بإصلاح نفسه، ومتبصر بعيوب نفسه عن عيوب الخَلق، ومن اتصف بذلك كان سهلًا عليه أن يصلح فساد قلبه، ويتأمل هفوات الألسنة فيتجنبها.

وقد كان من صِفَة رسول الهدى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه قليل الكلام، قالت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «إن رسُولَ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لم يكن يَسرُد الحديث كسَرْدِكم، كان يحدث حديثًا لو عدَّه العادُّ لأحصاه»(١).

قال ابن حَجَر رَحِمَهُ اللَّهُ: «قَولُها: لو عدَّه العاد لأحصَاه؛ أي: لو عَدَّ كلماته، أو مُفرَداته، أو حُروفه لأطاق ذلك، وبلغ آخرها، والمراد بذلك المبالغة في الترتيل، والتفهيم، وقولها: لم يكن يَسرُد الحديث كسردكم؛ أي: يتابع الحديث استعجالًا بعضه إثر بعض؛ لئلَّا يلتبس على المُستمع»(٢).

قال ابن جماعة: «ولا يسرد الكلام سردًا، بل يُرَتله ويُرَتبه، ويتمَهَّل فيه، ليُفَكر فيه هو وسامعه»(٣).

وقد ذمَّ السلفُ كثرةَ الكلام لما يؤدي إليه من ذهاب السَّمت والهيبة في

---

(١) رواه البخاري (٣٣٧٤)، ومسلم (٢٤٩٣).

(٢) «فتح الباري» (٦/ ٥٧٨).

(٣) «أدب المُتكلم» (ص٣٩).

الصدور، ويوقع بالإثم والمحظور، حيث يبدأ كثير من الناس في الغالب بكلام مباح ثم يستدرجهم الشيطان بعد ذلك حتى يوقعهم بكبائر الذنوب من الكذب والغيبة والنميمة، وكفى بها مفسدات للقلب، وسببًا في قسوته، وذهاب رَوْنَق حياته.

قال عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «مَن كَثُر كلامه كثر سَقطه، ومن كثر سقَطُه قلَّ حياؤه، ومَن قلَّ حياؤه قل ورعه، ومن قل ورَعُه مات قلبُه».

وقال الفضيل بن عياض: «خصلتان يُقَسِّيان القلب: كثرة الكلام، وكثرة الأكل».

وقال أبو هلال العَسكَري: «علامة سكون نفس الخطيب ورباطة جأشه: هُدوؤه في كلامه، وتمهله في منطقه».

○○○○○

الاعتبار من الكوارث والمحن

مِن حِكمَة الله عَزَّوَجَلَّ أنه يبتلي عبادَهُ بالسَّرَّاء والضَّرَّاء، والشدة والرخاء، والنِّعَم والنِّقَم، ليمتحن صَبرهم وشُكرهم، قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٣﴾﴾ [العنكبوت:٢-٣]، **والفتنة**: هي الاختبار والامتحان حتى يتبين الصادقَ من الكاذب، والصابرَ والشاكر، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ ۗ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا ﴿٢٠﴾﴾ [الفرقان:٢٠]، وقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً ۖ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [الأنبياء:٣٥]، وقال سبحانه: ﴿وَبَلَوْنَٰهُم بِٱلْحَسَنَٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٦٨﴾﴾ [الأعراف:١٦٨]، **والحسناتُ هنا**: هي النِّعَم من خِصبِ العيش والرخاء والصحَّة والعزة، والنصر على الأعداء ونحو ذلك، **والسَّيئات**: هي المَصَائب، كالأمراض وتسليطِ الأعداء والزلازلِ والرياحِ والعواصفِ والسيولِ الجارفة المدمرة ونحو ذلك.

وقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُواْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾﴾ [الروم:٤١]، **والمعنى**: أنه سبحانه قدَّر ما قدَّر من الحسنات والسيئات وما ظهر من فساد المعايش؛ ليَرجِع الناس إلى الحق ويبادروا بالتوبة النصوح من جميع الذنوب والأوزار، ويتعظوا بما تجري به الأقدار، ويسارعوا إلى طاعة الله ورسوله؛ لأنَّ في الثبات عليها والتواصي بها والتعاون عليها عِزَّ الدنيا والآخرة، والنجاة من كل مَكرُوه، والعافية من كل فتنة، كما قال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴿٧﴾﴾ [محمد:٧]،

وقال سبحانه: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٤١﴾﴾ [الحج:٤٠-٤١]، وقال تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٥٥﴾﴾ [النور:٥٥].

فمَن صبر عند البلاء، وشَكَر عند الرخَاء، وضَرَعَ إلى الله سبحانه عند حصول المصَائب، يشكو إليه ذنوبَه وتقصيرَه، ويسأله رحمتَه وعفوَه، أفلح كل الفلاح، وفاز بالعاقبة الحميدة.

وقد يُجرِي اللهُ سبحانه من الحوادث ما يخَوِّف به عباده ليَتُوبوا إليه، ويتفكروا في آياته، ويكثروا من عبادته واستغفاره والإنابة إليه، وهذا كان حال النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، حيث كان إذا رأى آية من آيات الله فزع إلى العبادة واللجوء إلى الله، وحثَّ أمته على ذلك، ليُعلِّمها أنَّ هذا هو سبيل النجاة والسلامة، فعن أبي موسى الأشعري رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: «خَسَفت الشمسُ، فقام النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فزعًا، يخشى أن تكون الساعَة، فأتى المَسجدَ، فصَلَّى بأطول قيام وركوع وسجود رأيته قط يَفعَلُه، وقال: **هذه الآيات التي يُرسِل الله، لا تكون لمَوتِ أحدٍ ولا لحياته، ولكن يُخَوِّف الله به عبَادَه، فإذا رأيتُم شيئًا من ذلك، فافزَعُوا إلى ذِكره ودُعَائه واستغفاره**»(١).

وقالت أم سلمَةَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا -زوجُ النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: «استَيقَظ رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ليلة فزعًا، يقول: **سُبحانَ الله!، ماذا أنزل اللهُ من الخزائن، وماذا أنزل**

(١) رواه البخاري (١٠١٠).

من الفِتَن، من يوقِظُ صواحِبَ الحجرات -يُريد: أزواجه لكَي يُصَلِّين-، **رُبَّ كاسيَةٍ في الدنيا عارية في الآخِرَة»**[(١)].

وفي هذا الإشارة إلى استحباب الدعاء والتضرع عند نزُول الفتنة، خصوصًا في أوقات الإجابة، لتُكشَف أو يَسلَم الدَّاعي ومَن دَعا له.

وفي الإيمان والتقوى بفعل الطاعات وترك المُحَرمات، أعظم الأسباب لحلول البركات، وحصول خيرات السماء والأرض، فإذا عصَى الناسُ وخرجوا عن الطاعة عُوقِبُوا بالهلاك بسبب ما كسَبُوا من المآثم والمحرمات، قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا۟ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾﴾ [الأعراف:٩٦].

وهذا من أعظم الأدِلَّة على أن الخروج عن طاعة الله سبحانه والركون إلى المعاصي والملَذَّات سببٌ لحُصول الكوارث والنِّقم، وتغير الأحوال من النعيم والرخاء إلى البؤس والشقاء، فيصيبهم من المَصَائب ما يكون داعيًا لهم إلى الرجوع إلى الله حتى يكشف ما بهم من الضُّر والبَلوى.

وقد أمر الله سبحانه عبادَهُ بالتوبة والضراعة إليه عند وقوع المصائب، فقال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ تُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ [التحريم:٨]، وقال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ﴿٤٢﴾ فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا۟ وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [الأنعام:٤٢-٤٣].

---

(١) رواه البخاري (١٠٧٤).

وفي هذا حَثٌّ من الله سبحانه لعبَادِه وترغيب لهم إذا حَلَّت بهم المصائب من الأمراض والجراح والقتال والزلازل والرياح العاصفة، وغير ذلك من المصائب، أن يتضَرَّعوا إليه ويفتقروا إليه، وأن يُبَادروا بالتَّوبة والإنابة إليه، ومتى تاب العبَاد إلى ربِّهم وتضرعوا إليه، وسارعوا إلى ما يُرضيه؛ أصلح أحوالهم، وأسبغ عليهم نِعَمه، وصرَفَ عنهم نِقَمَهُ، كما قال سبحانه وهو أصدق القائلين: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ۚ إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف:٥٦]، وقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ ۖ وَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ ﴿٣﴾﴾ [هود:٣].

وقد جاء عن الخليفة الراشد عمر بن عبد العزيز رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنه لما وقع الزلزالُ في زمانه كتب إلى عمَّاله في البلدان وأمرهم أن يأمُرُوا المسلمين بالتوبة إلى الله، والضَّراعة إليه، والاستغفار من ذنوبهم.

وهكذا هي سُنَّة المؤمنين المخبتين، فمَتى رأوا تغيُّر الأحوال وحصُول الخَلَل في المَعَايش بادروا إلى التوبة والاستغفار والرجوع إلى الله سُبحَانه.

ومِن غياب البَصيرة عند المَرء: أن يصيبه السوء والضرَّاء ولا يزال قائمًا على شَرِّه، فلا يرجِعُ إلى ربِّه، ولا ينتهي عن غَيِّه، ولذلك فقد عاب الله سبحانه على قوم من أهل المَعَاصي مَسَّتهم البأساء والضراء والعقوبات ليتوبُوا إلى ربهم ويُنِيبوا إليه، ومع ذلك بَقَوا على ما هم عليه من الجَبَروت والطغيان، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ فَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ ﴿٧٦﴾﴾ [المؤمنون:٧٦]؛ أي: أن الله ابتلاهم بالمصائب والشدائد، فما ردَّهم ذلك عما كانوا عليه من

التجاوز والمخالفة لأمر الله، بل استمروا على خلافهم وغيِّهم، فلم يَخشَوا خالقَهُم، ولم يتوجَّهوا إليه بالدعاء ليكشف عنهم ما أصابهم.

وقد صحَّ عن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه لمَّا رأى عِنادَ قريش وشِدَّة خصومتهم وإيذائهم له دعَا عليهم فقال: «**اللهُمَّ أعِنِّي عليهم بسَبعٍ كسَبعِ يُوسُفَ**»[(١)]، فكان له صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ما أراد، وذلك أنه لما أسلمَ ثُمامة بن أُثَال الحنفي زعيم اليمامة، منع الطعام عن أهل مكة إلا أن يأذَنَ النبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بذلك، فجاء أبو سفيان إلى النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقال: أنشُدكَ الله والرَّحم -أي: أستَحلِفُك بالله وبما لنا عندَك من القَرَابة- أن ترفع هذه البلاء وتسمَحَ لنا بالطعام، فقَد أكَلْنا العِلهِز؛ أي: الوبر والدَّم، فأنزل الله سبحانه: ﴿**وَلَقَدْ أَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ فَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ ﴿٧٦﴾**﴾[(٢)]؛ أي: أنه قد أُخِذَت قريشٌ وغيرها بالعذاب، وأنزل الله بهم البأس وضيق الحال في المَعَايش، فما استكانوا بالخضوع له والانقياد لأمره وطاعته والإنابة إليه، وما تضَرَّعوا إليه فيَدعُونه مُتَذلِّلين له طالبين كشف الضُّر، مع علمهم أنه سبحانه القادر على ذلك، لا مُعَقِّب لحُكمه ولا رادَّ لقضائه.

ومن أجل ذلك فقد كان السَّلف أهل القلوب الحَيَّة، إذا رأوا شيئًا من تغير الحال تذكروا فإذا هم مُبصِرون، ولجأوا إلى الله طالبين النجَاة، فقد جاء عن وَهب بن مُنَبِّه أنه لمَّا حُبس قال له بعضُ من كان معه: يا أبا عبد الله، ألا أنشُدك بيتًا من الشِّعر؟ فقال وهب: نحن في طرَفٍ من عذاب الله، والله تعالى يقول: ﴿**وَلَقَدْ أَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ فَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ ﴿٧٦﴾**﴾، ثم صامَ وهبٌ ثلاثًا

---

(١) رواه البخاري (٤٤١٦)، ومسلم (٢٧٩٨).

(٢) رواه النسائي في «الكبرى» (١١٢٨٩)، وهو صحيح، انظر: «صحيح موارد الظمآن» للألباني (١٤٦٩).

متواصلة، فقيل له: ما هذا الصوم يا أبا عبد الله؟ فقال: أُحدِث لنا فأحدثنا؛ أي: أُحدِث لنا الحَبسُ، فأحدثنا زيادة عبَادة.

وما زال قوم يستدرجهم الله بالنِّعم وهم مُقيمون على معصيته، فلم يُفيقوا إلا وقد وقع بهم عذاب الله، فأقَرُّوا على أنفُسِهم أنهم كانوا ظالمين، ونَدِموا ولكن حين لا ينفع النَّدم، قال تعالى: ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴿١١﴾ فَلَمَّآ أَحَسُّوا۟ بَأْسَنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ ﴿١٢﴾ لَا تَرْكُضُوا۟ وَٱرْجِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَآ أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَٰكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْـَٔلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿١٤﴾ فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَىٰهُمْ حَتَّىٰ جَعَلْنَٰهُمْ حَصِيدًا خَٰمِدِينَ ﴿١٥﴾﴾ [الأنبياء:١١-١٥].

وقد صحَّ عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه قال: «**ما هَلَك قوم حتى يُعْذِرُوا من أنفُسِهم**»(١)، قيل لعبدِ المَلِك بن ميسرة: «كيف يكون ذاك؟ قال: فقرأ هذه الآية: ﴿فَمَا كَانَ دَعْوَىٰهُمْ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَآ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٥﴾﴾ [الأعراف:٥]».

وتوهَّم قومٌ حين رأوا ما فتح الله عليهم من الدنيا بالرغم من إقامتهم على الذنوب أنَّ الله غافل عما يفعلون، وما علموا أنهم في خطرٍ عظيم واستدراجٍ للعقوبة، وهذا من أخطر ما يكون، حيث تقع العقوبة بصاحبها وهو مستغرق في النعيم لا يدري ما خُبِّئ له.

وقد قصَّ الله سبحانه من قَصَص الأمم مَن استُدرِجوا بالنعم حتى أخذهم سبحانه أخذَ عَزيزٍ مُقتدر، فلم يكن لهم من الله من عاصم، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ﴿٤٢﴾﴾ [الأنعام:٤٢]، فهذه أمَمٌ قد ضيَّق الله عليهم العيش، وأصيبوا بالأمراض والأسقام لعلهم يفيقون

(١) رواه أبو داود (٤٣٤٧)، وهو صحيح، انظر: «صحيح الجامع الصغير» للألباني (٥٢٣١).

من غفلتهم فيدعون الله ويتضرعون له خاشعين، ومع ذلك ما رقَّت قلوبُهُم ولا خشعت، وزادهم الشيطان جهلًا وعنادًا وغواية، فلما أعرضوا عمَّا أصابَهُم وتناسَوه وكأنه لم يكن، فتح الله عليهم أبواب الرزق في كلِّ ما يختَارُون، استدراجًا منه سبحانه، وإمهالاً لهم، ومكرًا بهم، حتى إذا فرِحُوا بما أوتوا من الأموال والأولاد والأرزاق والخيرات، أخذهم بغتةً على غفلة، فإذا هم مُهلكون آيسون من كل خير، وهذا مِصدَاق قولِ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إذا رأيتَ الله يُعطي العَبد من الدنيا على معاصيه ما يحب، فإنما هو استدراج**. ثم تلا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [الأنعام:٤٤]»[1]؛ أي: مُهلَكون.

قال الحسن: «مُكِر بالقوم وربِّ الكعبة؛ أعطوا حاجتهم ثم أُخِذوا».

وقال قتادة: «ما أخذ اللهُ قومًا قَط إلا عند سَكرَتهم وغِرَّتهم ونعيمهم، فلا تغتروا بالله، إنه لا يغتر بالله إلا القوم الفاسقون».

ولذلك فقد عَظُم خوفُ السلف وتحذيرهم من الأمن من مكر الله؛ لعلمهم بما يكون عليه حالُ مَن فعل ذلك حتى يقع به ما يقع من سُوء المصير.

قال أبو حازم: «إذا رأيتَ الله يتابع نِعَمَه عليك وأنت تعصيه فاحذَره».

وقال الحسنُ البَصري: «المؤمن يعمل بالطاعات وهو مُشفِق وجِل خائف، والفاجر يعمل بالمَعَاصي وهو آمِن».

وقال إسماعيل بن رافع: «من الأمن لمَكر الله إقامة العبد على الذنب ويتمَنَّى على الله المغفرة».

---

(١) رواه أحمد (١٧٣١١)، وهو صحيح، انظر: «سلسلة الأحاديث الصحيحة» للألباني (٤١٣).

والواجب على المُسلم الذي صرف الله عنه مثل هذه الابتلاءات: أن يُكثِر حمدَ الله، وأن يلهج بذِكره وشكره، وأن يكون دائم الدعاء لله سبحانه أن يعافيه من حال من وقع عليهم غضب الله وعقابه، وأن يعتبر بما جرى لهم، فإنَّ ذا القَلبِ الحيِّ دائمُ التفكر والاعتبار، فإذا رأى حلول المصائب في غيره تحرك قلبُه، وارتعدت جوارحه، ورقَّ جنانه، وراجع نفسه وأحواله مع الله، وحمد الله على العافية، فإنَّ من أراد الله به خيرًا أسبغ عليه ستره، وعافاه من البلاء، وجعله شاكرًا حال النعم، صابرًا منيبًا عند حلول الكوارث والنِّقَم، ووَفَّقه للعمل بمرضاته، وثبته على الحق والهدى حتى يلقاه.

○○○○○

التاريخ ... دروس وعبر

التفرق والشَّتات والتنازُع والخصومات، من أعظم أسباب الضعف والفشل والانهيار وذهاب القوة، ووسيلة لتمزيق الأواصِرِ وقطع العلاقات، وسيطرة الخصوم على الأفراد والأمم، على المُستوى الخاص والعام.

ولذا فقد أمر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ المؤمنين بطاعة الله ورسوله، والائتلاف، واجتناب الأسباب المُفضية إلى التنازع والافتراق؛ لِمَا يُوجِب ذلك من تشتت القلوب وتفرقها، فينتج عن ذلك الجُبن والفشل وضعف العزيمة، وتفرق القُوَى، فقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ [الأنفال:٤٦]، وفي هذا أوضح بيان على أن ائتلاف قلوب المؤمنين وثباتهم وعدم تنازعهم سبب للنصر على الأعداء.

ومَن نَظَر في تاريخ الدول الإسلامية وجَدَ السبب الأعظم في زوال ملكها: ترك الدِّين، والتفرق الذي أطمع فيهم الأعداء وجعل بأسهم بينهم.

ولذا فقد كان للصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ في باب الشجاعة والائتمار بأمر الله، وامتثال ما أرشدهم إليه، ما لم يكن لأحَدٍ من الأمم والقرون قبلهم، ولا يكون لأحَدٍ ممَّن بعدهم؛ فبسبب امتثالهم بما أُمروا به واجتنابهم لما نهوا عنه، فتحوا القلوب والأقاليم شرقًا وغربًا في مدَّة يسيرة، مع قِلَّة عددهم بالنسبة إلى جيوش سائر الأقاليم، من الروم والفُرس وغيرهم من الأمم، حتى عَلَت كلمة الله، وظهر دينه على سائر الأديان، وامتدت المَمَالك الإسلامية في مشارق الأرض

ومغاربها، في أقل من ثلاثين سنة[١].

ولا يزال الأعداء يتربصون بالأمة المَكَائد، فإذا تحققوا من ضعفها وتفرقها، تجدهم يخططون في الخفاء، ويتعاملون بالمكر والخديعة، حتى إذا سنحت لهم الفرصة، وآلت لهم القوة، انقضوا على أهل الإسلام انقضاض الذئاب الجائعة دون رحمة أو رأفة، فلا يتركون سبيلًا من سبل الأذى إلا سلكوه، ولا نوعًا من أنواع البأس والعذاب إلا ارتكبوه.

ومِن الأحداث المُؤلمة التي مرَّت في تاريخ الأمة الإسلامية: ما وقع من الابتلاء الشديد، بظهور القرامطة، وهي طائفة من أشد الطوائف فسادًا؛ سلوكًا واعتقادًا، فساروا في الأرض بالبَغي والفساد، وجرى منهم على أهل الإسلام من الوقائع الشنيعة، ما يقتل النفوس كمَدًا وهمًّا، ويملأ القلوب حسرة وألمًا، حتى عظم البلاء على الأمة، واشتد بها الكرب، وجرى عليها من المصائب ما يصعب وَصفُه، ويعسُر تصَوُّره.

ففي عام مائتين وستة وثمانين من الهجرة، كان ظهور أبي سعيد الجنابي -رأس القرامطة- قريبًا من البصرة، فالتفَّ عليه من الأعراب وغيرهم بشَرٌ كثير، فقَوِيت شوكَتُه جدًّا، وقتل مَن حوله من أهل القرى، ثم سار إلى البَصرة يُريد دخولها، فكتب الخليفة المعتضد إلى نائبها يأمره بتحصين سورها، فعمَّروه وجددوا معالمه، فامتنعت البصرةُ من القرامطة بسبب ذلك، لكن تغلب أبو سعيد الجنابي ومن معه من القرامطة على هَجَر وما حولها من البلاد، وأكثروا في الأرض الفساد، حتى جاء عام مائتين وتسعة وثمانين، وفي هذه السنة انتشرت

(١) انظر: «تفسير ابن كثير» (٤/ ٧٢).

القرامطة في الآفاق بعد موت المعتضد، وقطَعُوا الطريق على الحجيج، وتسَمَّى بعضهم بأمير المؤمنين، فبعث المُكتَفِي إليهم جيوشًا كثيرة، وأنفق أموالًا غزيرة حتى أطفأ الله بعضَ شَرِّهم.

ولم يَزَل فسادُهم وإفسادهم ينتشر في النواحي حتى جاء عام ثلاثمائة واثني عشر، وفي هذا العام اعترض سليمانُ بن أبي سعيد الجنابي القرمطي الحجيجَ وهم راجعون من بيت الله الحرام، قد أدَّوا فرضَ الله عليهم، فقطع عليهم الطريق، فقاتلوه دفعًا عن أموالهم وأنفسهم وحريمهم، فقَتَلَ منهم خلقًا كثيرًا لا يعلمهم إلا الله عَزَّوَجَلَّ، وأسَرَ من نسائهم وأبنائهم ما اختاره، وأخذ من أموالهم ما أراد، حتى بلغ مقدار ما أخذ من الأموال ألف ألف دينار-أي: مليون-، ومن الأمتعة مثل ذلك، وترك بقية الناس -بعدما أخذ جِمَالهم وزادهم وأموالهم ونساءهم- في ديار بعيدة في البَرِّيَّة بلا زاد ولا ماء ولا مَحمَل.

وقد دافع عن الناس نائبُ الكوفة أبو الهَيجَاء عبد الله بن حمدان، فقهره وأسَرَهُ، وكان عدَّة مَن مع القرمطي ثمانمائة مقاتل، وعمره إذ ذاك سبع عشرة سنة!

وأمر الخليفةُ المقتدر مؤنسًا الخَادم بالمسير إلى ناحية الكوفة من أجل قتال القرامطة، وأنفق على خروجه إلى هنالك ألف ألف دينار، وأطلق القرمطي مَن كان أسره من الحجيج، وكانوا ألفي رجل وخمسمائة امرأة، وأطلق أبا الهيجاء نائب الكوفة معهم أيضًا، وكتب إلى الخليفة يسأل منه البصرة والأهواز، فلم يُجِب إلى ذلك، وركب المظفر مؤنس الخادم في جَحَافل إلى بلاد الكوفة فسكن أمرها، ثم انحدر منها إلى واسط خوفًا عليها من القرامطة، فتمَهَّدت الأمور وانصلحت.

ولما مضت الأيامُ عاد القرامطة إلى سابق عهدهم من الإفساد في الأرض، وسارعوا إلى ما عَزَمُوا عليه من قتال أهل الإسلام، فَجَرت بين يوسف بن أبي الساج وأبي طاهر القرمطي وقعة عظيمة عند الكوفة، وقد سبقه أبو طاهر إليها، وحال بينه وبينها، فكتب إليه يوسف بن أبي الساج: اسمع وأطع، وإلا فاستعد للقتال، فقال: هَلُمَّ.

فلما تراءى الجَمعان، استقل يوسف بن أبي الساج -وكان معه عشرون ألفًا- جَيشَ القرمطي، وكان معه ألف فارس وخمسمائة راجل، فقال: وما قيمة هؤلاء الكلاب؟ وأمر الكاتبَ أن يكتب بالفتح قبل اللقاء إلى الخليفة، فلما اقتتلوا ثبتت القرامطة ثباتًا عظيمًا، ونزل أبو طاهر الجنابي، فحرَّض أصحابه، وحمل بهم حملة صادقة، فهزموا جند الخليفة، وأسروا يوسف بن أبي الساج، وقتلوا خلقًا كثيرًا من جُند الخليفة، واستحوذ على الكوفة، وجاءت الأخبار بذلك إلى بغداد، وشاع بين الناس أن القرمطي يريد أن يقصد بغداد ليأخذها، فانزعج المسلمون لذلك، وظنوا صِدقَه، فاجتمع الوزير بالخليفة، فقال: يا أمير المؤمنين، إن الأموال إنما تُدَّخر لتكون عونًا على قتال أعداء الله، وإنَّ هذا الأمر لم يقع بعد زمن الصحابة أفظعُ منه، قد قطع هذا الكافر طريق الحج على الناس، وفَتَك في المسلمين مرة بعد مرة، وإنَّ بيت المال ليس فيه شيء، فاتق الله يا أمير المؤمنين، وخاطب السيدة -يعني: أمَّه- فإن كان عندها مال قد ادخرته لشدة، فهذا وقته، فدخل على أمِّه فكانت هي التي ابتدأته بذلك، وبذلت له خمسمائة ألف دينار، وكان في بيت المال مثلها فسَلَّمها الخليفة إلى الوزير ليصرفها في تنفيذ الجيوش نحو القرامطة، فجَهَّز الوزير جيشًا من أربعين ألفًا، فأخذوا عليه الطرقات، وكان يريد دخول بغداد ثم التقوا معه، فلم يلبَث جيشُ الخليفة أن

انْهَزم، وإنَّا لله وإنَّا إليه راجعون.

وكان يوسف بن أبي الساج معهم مُقَيدًا في خيمة، فجعل ينظر إلى مَحَل الوقعة، فلما رجع القرمطي قال: أَرَدتَ أن تهرب؟! ثم أمر به فضُرِبَت عنقه، ورَجَع القرمطي من ناحية بغداد إلى الأنبار، ثم انصرف إلى هيت، فأكثَر أهلُ بغداد الصدقة، وكذلك الخليفة وأمه والوزير، شكرًا لله عَزَّوَجَلَّ أن صرَفَ عنهم هذا الخبيث.

وكان مما عَمَدَ عليه هؤلاء القرامطة الجُناة أن أخذوا الحجر الأسود إلى بلادهم، وذلك أنه قد خرج رَكْبٌ من العراق، وأميرُهم آنذاك منصور الدَّيلمي، فوصلوا إلى مكة سالمين، وتوافَدَت الناس إلى هناك من كل جانب، فما شعروا إلا بالقرمطي قد خرج عليهم في جمَاعَته يوم التروية، فانتهب أموالهم، واستباح قتالهم، فقَتَل الناسَ في رحاب مكة وشعابِها؛ حتى في المسجد الحرام وفي جوف الكعبة، وجلس أميرُهُم أبو طاهر الجنابي -قاتله الله- على باب الكعبة، والرجال تُصْرَعُ حوله في المسجد الحَرَام في الشهر الحرام، في يوم التروية، وهو يَقُول:

أنـــا باللَّـــه وباللَّـــه أنَـــا يخلُـــقُ الخَلـــق وأُفنِـــيهِم أنَـــا

وكان الناس يَفِرُّون فيتعلقون بأستار الكعبة، فلا يُجدِي ذلك عنهم شيئًا، بل يقتُلُهم وهم على هذه الحال، وكانوا يَطُوفون فيقتلون في الطواف.

ثم لما انتَهَوا من قتلهم، أمَرَ القرمطي -قاتله الله- أن تُدفن القتلى ببئر زمزم، ودَفَن كثيرًا منهم في أماكنهم حتى في المسجد الحرام، ولم يُغَسلوا، ولم يُكَفنوا، ولم يُصَلَّ عليهم، وهذه فضيلة لهم لا يعلَمُها هو حيث إنهم شهداء في نفس الأمر، بل من خيار الشهداء.

وبعد ذلك قام القرمطي بِهَدم قُبة زمزم، وأمر بقلع باب الكعبة، ونزع كسوتها عنها، وشققها بين أصحابه، وأمَرَ رجلًا أن يصعد إلى ميزاب الكعبة، فأراد أن يقتلعه، فسقط على أمِّ رأسه فمات -قاتله الله-، فانكَفَّ المجرم عند ذلك عن الميزاب.

ثم أمر بأن يُقلَع الحَجر الأسود، فجاءه رجلٌ فضرب الحَجر بمثقَّل في يده، وقال: أين الطير الأبابيل؟ أين الحجارة من سِجِّيل؟ ثم قلع الحجر الأسود الذي شرَّفه الله وكرَّمه وعظَّمه، وأخذوه معهم حين راحوا إلى بلادهم، فكان عندهم ثنتين وعشرين سنة، حتى ردوه في سنة ثلاثمائة وتسع وثلاثين، حيث إنه في هذه السنة المباركة بذل لهم الأمير بَجكَم التركي خمسين ألف دينار، ليردوه إلى موضعه، فلم يقبلوا، وقالوا: نحن أخذناه بأمر، ولا نَرُده إلا بأمر مَن أخذناه بأمره، ويَعنُون بذلك رئيسهم أبو طاهر الجنابي، وقد كان القرامطة في هذا العام حملوا الحجر الأسود إلى الكوفة، وعلَّقوه على إحدى اسطوانات الجامع ليراه الناس، وقد ألانَ اللهُ قلوبَهُم لردِّه، فكتب إخوة أبي طاهر كتابًا فيه: إنا أخَذنا هذا الحجر بأمر، وقد ردَدنَاه بأمر من أمَرَنا بأخذه، ليتم حَج الناس ومَنَاسكهم.

ثم أرسلوه إلى مكة بغير شيء على ظهر جَمَل، فوصل في ذي القعدة من هذه السنة، ففرح المسلمون بذلك فرحًا شديدًا، ولله الحمد والمِنَّة.

ولله الحِكمَة البالغة فيما يَقضي ويُقَدِّر، ومع ذلك فإنَّ الواجب على المسلم الفطن أن يتأمَّل في أحداث التاريخ؛ ليَرَى مواضعَ الخَلَل فيجتنبها، وسُبلَ النجاة فيسلكها؛ لأنَّ أحداث الزمان متشابهة إلى حدٍّ بعيد، ومن خاض في ذات الأسباب والمعطيات التي مرَّت بغيره، حَرِيٌّ به أن يصلَ إلى مثل النتيجة التي

بلغها، والسعيد مَن جَنَّبه اللهُ أسباب الفتن، فلم يرَ ما يُخزيه، ومات وهو مستور الحال، وقد قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إن السَّعيد لمَن جُنِّب الفِتن، إن السَّعيد لمَن جُنِّب الفتن، إن السَّعيد لَمَن جُنِّب الفتن**»(١).

○○○○○

(١) رواه أبو داود (٤٢٦٣)، وهو صحيح، انظر: «سلسلة الأحاديث الصحيحة» (٩٧٥).

التفاؤل

من المُسلَّمات لكل ذِي عقلٍ وبصيرة، أنَّ المرء في هذه الحياة لا يستقر على حال، فيتقلب بين الشدَّة والرخاء، فإذا رأى ما يسرُّه سُرَّ وابتَهَج، وإذا مسَّه الضرُّ ضاق صَدرُه، وتكدَّر عيشُه، وضعفت نفسه، وهو بين ذلك محتاج إلى مَن يدفعه إلى الأمام، ويُعينه على تخطِّي العقبات ماضيًا نحو الأمل.

ومن طبيعة النفس البشرية مَيلُها إلى الاستبشار بالخير، فإذا رأت ما يدفَعُ إليه ويقوِّي أسبابَه ابتهجت واطمأنت، وانبعثت فيها رُوحُ التفاؤل وأسبابه، حتى يقودها ذلك إلى البحث عن أسباب السعادة وطرقها، رغم ما يُحيط بها من أحداث وظروف شديدة أو مؤلمَة.

لذلك كانت الحاجة في هذا المقام داعية إلى التفاؤل؛ لأنه من أعظم ركائز السعادة ومقومات الراحة، حيث يولِّد الأملَ عند مواجهة الضغوط والمتغيرات، ويدفع إلى تحقيق النجاح، حين يكون النظر إلى الأهداف من باب الثقة بأن ما يقدِّره الله للعبد ويختاره له، خير وأفضل من اختياره لنفسه، ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُۗ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٨﴾﴾ [القصص:٦٨].

ومَن أنعَم الله عَزَّوَجَلَّ عليه بأن فتح له باب التفاؤل، ساعده ذلك على التغلُّب على الصعوبات، وتجاوُز العَقَبات، فمضى إلى تحقيق هدفه مُتَناسيًا ما قد يَحُول دون ذلك من الموانع.

فالمتفائلون أبعَدُ الناس عن القَلَق، حيث كسَبُوا من الثقة ما يزول معها التوتر والاضطراب، وتمتعوا بالوقاية من الوساوس والمخَاوف.

ولأنَّ التفاؤل يُشعر بالاستئناس القلبي، وملء القلب بالشعور بالقوة والثبات، فقد باشَرَه النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بقوله وفعله حتى في أصغر الأشياء وأدَقِّها، فقد جاء في الحديث: أنَّ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان يُعجبُه الفأْلُ الحَسَن[1].

والفأل الحسَن: الكلمة الطيبة يسمعها الإنسان فتسرُّه، ويشمل ذلك كلَّ قول أو فعل يُستبشَر به.

وجاء عنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه قال: «**لا طِيَرَة، وخَيرُها الفأل**، قالوا: وما الفَأْلُ يا رسولَ الله؟ قال: **الكلمَةُ الصالحَةُ يسمَعُها أحَدُكُم**»[2].

وهذا لا يعني أنَّ الكلمة لها تأثير مُستَقل في تغيير الأحداث، ولكن المَقصُود ما يحصل للإنسان من البِشر والابتهاج كما هي طبيعة النفس البشرية التي خلقها الله تعالى على ذلك.

قال ابنُ حَجَر رَحِمَهُ اللَّهُ: «وإنما كان النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يعجبه الفأل الحسن؛ لأنَّ التشاؤم سوء ظن بالله تعالى بغير سبب مُحَقَّق، والتفاؤل حُسْن ظن به، والمؤمنُ مأمورٌ بحُسْن الظنِّ بالله على كُل حَال»[3].

وجاء عن بُريدة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «كان النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لا يتطيَّر من شيء، وكان إذا بعث عاملًا سأل عن اسمه، فإذا أعجبه اسمه فَرِح به، ورؤي بِشْرُ ذلك

(١) رواه الحاكم في «المستدرك» (٨٩)، وهو صحيح، انظر: «سلسلة الأحاديث الصحيحة» (٨٦٠).
(٢) رواه البخاري (٥٤٢٢)، ومسلم (٢٢٢٣).
(٣) «فتح الباري» (١٠/ ٢١٥).

في وجهه، وإن كان كَرِه اسمه، رؤي كراهية ذلك في وجهه»[١].

ففي هذا الحديث نفي التشاؤم المتعلق بالاسم، حتى لا يَظُنَّ ظانٌّ أن الاسم له أثر في الأحداث وجريانِها نحو الأسوأ، فالأمور بيد الله سبحانه يصرفها كيف يشاء، ولكن المقصود عدم الارتياح للاسم السيِّئ؛ لِمَا يُدخله على النفوس من الانزعاج، والشريعة تدعو إلى التفاؤل المقرون بحُسن الظن بالله سبحانه، **وفي ذلك يقول ابن القَيِّم** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «والله سُبحانه قد جعل في غرائز الناس الإعجاب بالاسم الحَسَن ومُحَبته وميل نفوسهم إليه، وكذلك جعل فيها الارتياح والبِشْرَ والاستبشار والسُّرور باسم: السلام، والفلاح والنجاح، والتهنئة، والبُشْرى، والفوز: يا فائز؛ يتفاءل به، والظفر: يا ظافر، والغُنم: يا غَانِم، والربح: يا رابِح، ونَيل الأمنية، والفرح والغَوث والعِز والغنى وأمثالها، فإذا قَرَعت الأسماعَ استبشرت بها النفسُ، وانشرح لها الصَّدر، وقوي بها القلب»[٢].

وفي أحْلَك الظروف وأشد الوقائع التي مرت بالنبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تجده متفائلًا بتغير الحال إلى أفضله، مع أنه لم يَكُن بمُحيط الواقعة ما يَدُل على بَصِيص أمل، لكن لحُسن ظنه بربه، وتفاؤله بعطائه وجوده، أعطاه الله عَزَّوَجَلَّ ما رجا وأمَّل.

فحين زاد تسلط الكفار على المسلمين حتى آذوهم أذى شديدًا، وساموهم سوء العذاب، جاء خباب بن الأرَتِّ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ وجَمْعٌ من الصحابة يشتكون إلى رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهو متوسِّد بُردة له في ظل الكعبة، فقالوا: «ألا تستنصر

(١) رواه أبو داود (٣٩٢٠)، وهو صحيح، انظر: «سلسلة الأحاديث الصحيحة» (٧٦٢).
(٢) «مفتاح دار السعادة» (٢/ ٢٤٤).

لنا؟! ألا تدعو لنا؟! فقال: **قد كان مَن قبلكم يُؤخذ الرجل فيحفر له في الأرض فيُجعل فيها، فيؤتى بالمنشار فيُوضَع على رأسه، فيجعل نصفين، ويُمشط بأمشاط الحديد فيما دون عظمه ولحمه، فما يصرفه ذلك عن دينه، والله ليتمن هذا الأمر حتى يسير الراكبُ من صنعاء إلى حَضرَموت لا يخاف إلا الله والذئب على غنَمِه، ولكنكم تستعجِلُون**»[1].

وقال عَدِيٌّ بن حاتم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «بينما أنا عند النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذ أتاه رجل فشكا إليه الفاقَة، ثم أتاه آخرُ فشكا إليه قطع السبيل، فقال: **يا عديُّ، هل رأيت الحِيرَة؟**، قلتُ: لم أرها وقد أنبئت عنها، قال: **فإن طالت بك حياة لترين الظعينة** -أي: المرأة- **ترتَحِل من الحيرة حتى تطوفَ بالكعبة لا تخاف أحدًا إلا الله** عَزَّوَجَلَّ، قلتُ -فيما بيني وبين نفسي-: فأينَ دُعَّار طيئ -أي: قُطَّاع الطريق- الذين سَعَّروا البلاد، **ولئن طالت بك حياة لتُفتَحَنَّ كنوز كِسرَى**، قلتُ: كِسرَى بن هُرمُز؟، قال: **كِسْرى بن هُرمُز، ولئن طالت بك حياة لتَرَينَّ الرجل يُخرِجُ مِلءَ كفِّه من ذهب أو فضة يطلب مَن يَقبَلُه منه فلا يجد أحدًا يقبَلُه منه**»[2].

وهكذا هم المتفائلون، لا ينظرون إلى الأمر على حسب ما هو عليه في الواقع، ولكنهم يُؤدُّون واجبهم المطلوب منهم ببذل الأسباب والمعطيات، ويحسنون الظن بالله سبحانه أنه لن يخيِّب لهم أملًا، ولن يضيِّع لهم عملًا، على عكس المتشائم الذي يقتلُ نفسَه كمَدًا، ويحبس نفسه في دائرة الحاضر البئيس، ظنًّا منه -لسُوءِ ظنه بالله- أنَّ الله لن يغيِّر حاله نحو الأفضل، ولن يبدِّل حاله إلى الأجمل.

---

(١) رواه البخاري (٣٦٣٩).

(٢) رواه البخاري (٣٤٠٠).

وقد مرَّ بالنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأصحابه من الوقائع والأحداث، ما اضطَرَبت منه القلوبُ خوفًا، وضاقت بهم السبل، وقد اجتمعت عليهم الأممُ لقتلهم وإبادتهم، ومع كل هذا كان النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُثبِّت أصحابه، ويُبشِّرهم بالفتح والتمكين، فانقسم الناس عليه بين متفائل مُصدِّق بوعد الله؛ وهم أصحابه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، الذين نظروا إلى الأفق البعيد، مُصَدِّقين رسُولَ الهدى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، متفائلين مستبشرين بما سيكون في قادم الأيام، إيمانًا بالله سبحانه وبرسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وقسمٌ نَظَروا إلى ما يدور حولهم من الأحداث، واجتماع الناس عليهم، فاستحكم الخوفُ والرعب من قلوبهم، ولم يُؤمنوا بما وعدهم به الرسول الكريم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فغَشاهم التشاؤم، وتحَكَّم في حياتهم حتى أرْدَاهُم فكانوا من المُهلَكِين.

ففي غزوة الخندق اجتمعت أُمَم الكفر وجاءوا من كلِّ حَدَب وصَوْب، عازمين على إبادة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأصحابه، فثبَّت اللهُ نبيَّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأصحابَه الكرام؛ لتَصدِيقهم بوَعدِ الله الذي وعدهم به، فنظَرُوا من زاوية تصديق الوعد ولم ينظروا إلى ما حولهم من الناس، فمنحهم ذلك السَّكينة والهدوء حتى استجمعوا أمرهم للقاء العدو بكل ثبات وحُنْكَة، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا۟ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا ﴿٢٢﴾﴾ [الأحزاب:٢٢]، فآمنوا بما وعدهم الله به من الابتلاء، والامتحان الذي يعقُبه النصر القريب، وآمنوا بما جاءهم من الوعد، وصدَّقوا الله ورسُوله، وما زادهم ذلك الحال من الضيق والشدَّة إلا إيمانًا بالله سبحانه، وتسليمًا وانقيادًا لأوامره وطاعةِ رسُولِهِ.

وفي هذه المَعركة حفَرَ النبيُّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ وأصحابُه الخندق، ليَمنَعُوا الكفار من الوصول إليهم، وفي أثناء حفر الخندق شَكَا الصحابَةُ للنَّبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ صخرةً لم يستطيعوا كَسرَها، فجاءَ النبيُّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ وأخذ الفأسَ، وقال: «**بِاسْم الله**، فضرب ضَربَة، فكسر ثُلث الحَجر، وقال: **الله أكبر، أُعطِيتُ مفَاتيحَ الشام، واللهِ إني لأُبصِر قصُورَها الحُمر من مكاني هذا**، ثم قال: **بِاسْم الله**، وضرب أخرى، فكسَر ثُلث الحَجر، فقال: **الله أكبر، أُعطِيت مفَاتيحَ فارس، والله إني لأبصر المَدائن، وأبصر قَصرَها الأبيض من مكاني هذا**، ثم قال: **بِاسْم الله**، وضرب ضربة أخرى، فقلع بقيَّة الحَجر، فقال: **الله أكبر، أُعطِيتُ مفاتيحَ اليَمَن، والله إني لأبصِرُ أبواب صنعَاءَ من مكاني هذا**»(١).

فالمتفائل مُصَدِّق بوعد الله سبحانه، وبفرجه بعد الشدة، والسعة بعد الضيق.

أما المتشائم فلا ينظر إلى الأفق الذي يَحمِل في طَيَّاته تَغيُّر الحال، بل ينظر إلى مُصَابه الحاضر، ولا تُعينه بصيرتُه على النظر إلى قادم الأحوال، وما فيها من الفرج والخلاص، فيظن بالله الظن السيئ، حتى تَدُور عليه دائرَةُ السَّوء.

وقد تجَلَّى ذلك في هذه المَعركة، فحين سمعَ المنافقون النبيَّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ وهو يعد أصحابه بكنُوز كسرى وقيصر، قالوا: أيَعدُنا محمدٌ بكنوز كسرى وأحدُنا لا يستطيع أن يقضي حاجَتَه؟ فقال الله تعالى عنهم: ﴿ **وَإِذۡ يَقُولُ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورٗا** ﴿١٢﴾ ﴾ [الأحزاب:١٢]، فكان حالهم إلى بوار، وعاقبة سعيهم إلى اضمحلالٍ.

---

(١) رواه أحمد (١٨٦٩٤)، وهو صحيح، انظر: «صحيح سنن النسائي» للألباني (٢٩٧٦).

والتفاؤلُ عالم آخر، يجعل صاحبَهُ ينظر إلى الحياة بطعم مختلف، يقوده إلى استشعار الفرح فيما يأمُلُ أن يَصِل إليه، والصبر على ما فاته الحصول عليه ويطمع أن يناله يومًا ما، أو أن يُسلِّي نفسه أنَّ سعادته في غيره.

وأساس التفاؤل حُسْن الظن بالله، والإيمان بأنَّ ما يختاره الله له هو الأفضل له، فيتوكل على الله في أموره كلها، ولا يكلف نفسَه سِوى أن يبذل السببَ للحصول على ما يريد، ولا يشغل نفسه ويُتعِبُ قَلبَه بما ليس داخلًا تحت قدرته، فيبقى مَحبوسًا في دائرة التردد والظنون والحَسَرات، لذلك كان من أعظم الأسباب التي تَقُود إلى التفاؤل: النَّظر إلى المستقبل بعين الأمل، والإعراض عن الماضي وما فيه من الحُزن والقَلَق، ويكمل ذلك بمُفَارقة مَن اتَّصَف بذلك، فالمحيط له أثر في حياة الإنسان، ومصاحبة المتشائمين الذين يُفنون أوقاتهم بالشكوى يصيب المرء بالعجز عن التقدم ومتابعة السير، ويجعله محبوسًا في دائرة القلق المظلمة التي اختارها لنفسه، ولم يكن يتصور أن تبلغ به ما بلغت.

ومعرفة تجَارب الآخرين لها دور كبير في المساعدة على تحديد المصير، ولذلك يُرَكز على التجارب الإيجابية التي غيَّرت مجرى حياة أصحابها، والتركيز على الحُلول لا المشكلات، فالنظر في المشكلة كمُشكلة لن يُجدِي نفعًا، والعاقل هو الذي ينظر من باب البحث عن حلول؛ لينقل نفسه إلى واقع أجمل.

ومُنتَهى السعادة أن يكتشف المرءُ نفسَه، فيعرف إمكانياتها وقُدراتها وما تتمَيَّز به، ولا يُحَمِّلها ما لا تُطيق، ولا يطلب منها فوق استطاعتها؛ فيكون غاية أُنسِه وسعادته حين اكتشفَ نَفسَه، فأخذ بها إلى حيث التفاؤل والأمل.

○○○○○

التنافُسُ المُهلِك

ما زال أقوامٌ يتنافَسُون على الدنيَا حتى تمَكَّنت من قلوبهم، واستحوذت على عقولهم، فباتوا يبذلون في سبيل الحُصول عليها والوصول إليها الغالي والنفيس، دون بصيرة في الحال، ولا تمييز بين حرام وحلال، أشِحَّة على الخير، كلما لاحَ لهم متاع من مال أو جاه سارعوا إليه، وتقَاتَلوا عليه، طمعًا أن يكون من نصيبهم، فإذ به الهلاك والعَطَب، وذَهَاب الدنيا والآخرة، وقد تمَكَّن الشُّح من قلوبهم حتى فتح عليهم أبواب الفتن والشرور، فإذ بهم يتهافتون تهافُتَ الفَرَاش في النار.

والشحُّ داء فتَّاك؛ حيث تطمعُ نفس الإنسان فيما ليس له، فيجتهد فِكرًا وعملًا من أجل الحصول عليه.

قال عبد الله بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «الشح أشَد من البُخل؛ لأنَّ الشحيح يشح على ما في يديه فيحبسه، ويشح على ما في أيدي الناس حتى يأخذه، وإنَّ البخيل إنما يبخل على ما في يديه».

وقد حذَّرَت الشريعة من الشح وعظيم خَطَره؛ لأنه منافٍ لكمال الإيمان، ويقود إلى الهلاك، ويَحجُبُ عن الخير، فتَحيا بسبب ذلك الضغائن، وتَضعُف الأوَاصِر، وتُقطَع الأرحام، ويَكثُر الطمع والاستئثار، وتُستَحَل المحارم، كما أخبر بذلك النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، حيث قال: «**إيَّاكُم والشحَّ، فإنما هَلَك مَن كان قبلكم بالشُّح؛ أمرَهُم بالقطيعة فقطَعُوا، وأمرهم بالبُخل فبخلوا، وأمَرَهم**

بالفجُور ففَجَرُوا»[١].

وقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**اتقُوا الشحَّ؛ فإن الشح أهلكَ مَن كان قبلكم، وحَمَلَهُم على أن سفَكُوا دماءهم، واستحَلُّوا مَحَارِمَهُم**»[٢].

وقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لا يجتمِعُ الشح والإيمَان في قلبِ عبدٍ أبدًا**»[٣].

وإنما عظُم التحذير من الشح نظرًا لما ينشأ عنه من الأخلاق المذمومة، كالحرص والشَّرَه وسوء الظن بالله ومنع الحقوق، فترى الشحيح حريصًا شديد الكَدح والجهد في الطلب، ويستقل الكثير، ويستكثر بغير حاجة، ويُسيء الظن بربِّه ولا يثق برزقه، كما أنه يمنع الحقوق فلا يُؤَديها لأهلها[٤].

ومِن الخطر العظيم أن يكون الشحُّ قائدًا للمَرء، مُتَحكمًا في تصرفاته، حتى يسير به في أودية المَهَالك المظلمة، فلا خَلاص ولا نجاة، وقد حذَّر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من ذلك فقال: «**ثلاثٌ مُهلِكات: شُح مُطاع، وهوى متبع، وإعجاب المَرء بنَفسه**»[٥].

وقد وَفَّق الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ قومًا، فوقاهم من الشُّح وامتدحهم بذلك فقال سبحانه: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾﴾ [الحشر:٩].

قال المُفسِّرون: هو ألَّا يأخذ شيئًا مما نَهاه الله عنه، ولا يمنع شيئًا أمره الله

---

(١) رواه أبو داود (١٦٩٨)، وهو صحيح، انظر: «صحيح الترغيب والترهيب» (٢٦٠٤).

(٢) رواه مسلم (٢٥٧٨).

(٣) رواه النسائي (٣١١٠)، وهو صحيح، انظر: «صحيح الأدب المفرد» للألباني (٢١٥).

(٤) انظر: «فيض القدير» (٣/ ١٥٣).

(٥) رواه الطبراني في «الأوسط» (٥٤٥٢)، وهو صحيح، انظر: «سلسلة الأحاديث الصحيحة» (١٨٠٢).

بأدائه، فالشح يأمر بخِلاف أمر الله ورسوله، فإن الله ينهى عن الظلم ويأمر بالإحسان، والشح يأمر بالظلم وينهى عن الإحسان[١].

ومَن وُقِي شُحَّ نفسه لم يكن حَسُودًا باغيًا على المحسود، فالشح يكون في الرجل مع الحِرص وقوة الرغبة في المال والجاه، مع بُغض الغير والظلم لهم، وقد جاء عن عبد الرَّحمن بن عوف رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه كان يُكثِر في طوافه بالبيت وبالوقوف بعرفة أن يقول: «اللهم قِنِي شُح نفسي، فسُئل عن ذلك فقال: إذا وُقِيتُ شُح نفسي وُقِيتُ الظلم والبُخل والقطيعة».

ومَن نظر في واقع الناس، سواء في حاضِرِهم أو مما تناقلته الرُّكبَان من قصص الأولين، رأى يقينًا ما فعله الشح بأهله، حيث حملهم على البَغي والعُدوان، ومحاولة الاستئثار بالدنيا بكل حيلة وسبيل، فآل أمرُهُم إلى الندم والخُسران، فلم يستطيعوا إدراك ما فات، ولم تكتمل لهم فرحة بما صار بين أيديهم؛ لعِلمِهم بأنَّ ما فاتهم من الغنيمة أضعاف ما حصلوا عليه من متاع زائل.

ومِن عِبَر الزمان التي دَوَّنتها الكتب وتناقلها الناسُ جيلًا بعد جيل، وتدل على ما فعله الشح بأهله: قصَّة قتل المأمون بن هارون الرشيد لأخيه محمد الأمين، من أجل أن يَسلُبَه الملك وينفرد بالخلافة، فلم يخلَّد له مُلك، ولم تتم له فَرحَة.

فإنه لما تولَّى محمد الأمين الخِلافةَ بعد أبيه هارون الرشيد طمع أخوه المأمون بالخلافة، وجمع الجموع لحرب الأمين واستلاب الخلافة منه، وكلَّف طاهر بن الحُسَين في الأمر، ولم يزل الأمر في سِجال حتى ضعف أمر الأمين

(١) «فتاوى ابن تيمية» (١٠/ ٥٨٩).

وانهارت قواه، فلما اشتد به الأمر اجتمع عنده من بقي معه من الأمراء والخدم والجند، فشاورهم في أمره، فقالت طائفة: تذهب بمن بقي معك إلى الجزيرة أو الشام فتتقوى بالأموال، وتستخدم الرجال، وقال بعضهم: بل تخرج إلى طاهر وتأخذ منه أمانًا، وتبايع لأخيك، فإذا فعلت ذلك فإن أخاك سيأمُر لك بما يكفيك من أمر الدنيا، وغاية مُرَادك الدَّعة والرَّاحة.

وقال بعضهم: بل هَرثَمَة أولى بأن يأخذ لك الأمان؛ فإنه مولاكم وأحْنَى عليكم، فمال إلى ذلك، وواعَدَ هرثمة أن يخرُجَ إليه، ولبس ثياب الخلافة، واستدعى بولديه فشَمَّهما وضَمَّهما إليه، وقال: أستودعكما الله، ومسح دموعَهُ بطَرف كُمِّه، ثم ركب على فرس سوداء، فلما وصل إلى هرثمَةَ أكرمه وعظمه، ورَكبَا في سفينة في دجلة، وبلغ ذلك طاهر بن الحسين فغضب من ذلك، وقال: أنا الذي فعلتُ هذا كله ويذهب إلى غيري، وينسب هذا كله إلى هَرثمَة؟!

فلَحِقهما وهما في السفينة، فأمالها أصحابُه فغرقت في الماء، فغرق من فيها، إلا أنَّ محمدًا الأمين سبح إلى الجانب الآخر فأسَرَه بعضُ الجُند، وجاء فأعلم طاهرًا بذلك، فبعث إليه جندًا من العَجَم، فجاءوا إلى البيت الذي قد أَوَى إليه، وعنده بعض أصحابه، وهو يقول له: ادنُ مني فإني أجد وَحشَة شديدة، وجعل يلتَفُّ في ثيابه شديدًا، وقلبُه يخفِقُ خَفَقانًا عظيمًا، حتى كاد أن يخرج من صدره، فلما دخل عليه أولئك قال: إنَّا لله وإنَّا إليه راجعون، ثم دنا منه أحدُهُم فضربه بالسيف على مَفرقِ رأسه، فجعل يقول: وَيْحَكُم!، أنا ابن عم رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أنا ابن هارون، أنا أخو المأمون، اللهَ اللهَ في دمي، فلم يلتفتوا إلى شيء من ذلك، بل تكَاثَروا عليه وذبحوه من قَفَاه، وذهبوا برأسه إلى طاهر وتركوا جُثته.

وانتزع طاهر بن الحسين بغداد وأرض العراق بكمالها من يد الأمين بن الرشيد، فتفرق على الأمين شَملُه وحَارَ في أمره، واشتد الحال على أهل البلد، وحَكَمت السُّرَّاق والبُغاة في أهلِ الصلاح، وخربت الديار، وثارت الفتنة بين الناس حتى قاتل الأخُ أخاه، والابنُ أباه، حتى استوثق الأمرُ للمأمون.

ومِن عجائب الدهر ونوَادره: ما حصل بعد ذلك مع طاهر بن الحسين، حيث إنه دخل يومًا على المأمون فسأله حاجة فقضاها له، ثم نظر إليه المأمون واغرَورَقَت عيناه، فقال له طاهر: ما يُبكيك يا أمير المؤمنين؟ فلم يُخبِره، فخاف طاهرٌ على نفسه واستشعر الخطر، فأعطى خادمًا من خُدَّام المأمون مائتي ألف درهم، من أجل أن يستَعلِمَ له عن خبر بكاء المأمون، فقال له المأمون: أخبرك، وإن تخبر به أحدًا أقتلك، ذَكرتُ مقتل أخي وما ناله من الإهانة على يدي طاهر، فواللهِ لا تفوته منِّي.

فلما تحقَّق طاهر ذلك سعى أن ينتقل من بين يدي المأمون، فطلب منه أن يولِّيه على خُرَاسان، ففعل، ولم يزل يتحيَّن الفرصة ويلتمس عذرًا حتى يقتله، فلما خطب طاهرٌ يوم الجمعة ولم يدعُ للمأمون، سَمَّه أحَدُ خُدَّام المأمون فمات من ليلته.

وكان مصعب بن الزبير صديقًا لعبد الملك بن مروان، ومِن أحبِّ الناس إلى قلبه، حتى حصل النزاع على الخلافة بين عبد الله بن الزبير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وعبد الملك بن مروان، فجرى بينهما القتال وأصبح كلٌّ منهما حريصًا على قتل صاحبه.

ففي سنة إحدى وسبعين سار عبد المَلك بن مروان في جنود هائلة من الشام قاصدًا مصعب بن الزبير بالعراق، وبعث بين يديه السَّرايا، وأرسلَ بعضَ أعوانه

إلى البصرة فدعا أهلها إلى عبد الملك في السر، فاستجاب له بعضهم، ولما بلغ مصعبًا قصد عبد الملك له بجنود الشام خرج إليه، ووصل عبد الملك إلى المكان الذي اختاره ليَحل به، وكتب إلى الذين استجَابُوا له فخرَجُوا إليه، واشترطوا عليه أن يُولِّيهم بعض الأقاليم، فاستجاب لهم، وخرج مصعب بن الزبير، وقد اختلف عليه أهل العراق وخَذَلوه، وجعل يتأمل مَن معه فلا يجدهم يقاومون أعداءه، فاستقتل وحَمَل نفسه على ذلك، وقال: لي بالحسين بن علي أسوة حين امتنع من الذلة لعُبَيد الله بن زياد، وكيف قُتِل كريمًا، ولم يجد من أهل العراق وفاء، وكذلك أبوه وأخوه، ونحن ما وجدنا لهم وفاء.

وكان عبد الملك قد أشار عليه بعضُ أمرائه أن يقيم بالشام، وأن يبعث إلى مصعب جيشًا، فأبى وقال: لعلي أبعث رجلًا شجاعًا لا رأي له، أو مَن له رأي ولا شجاعة له، وإني أجِدُ من نفسي بصَرًا بالحرب وشجاعة، وإنَّ مصعبًا في بيت شجاعة، أبوه أشجعُ قريش، وأخوه لا تُجهل شجاعته، وهو شجاعٌ، ومعه من يخالفه، ومعي مَن ينصَحُ لي.

فسار بنفسه، فلما تقارب الجيشان بعث عبد الملك إلى أمراء مصعب بكتبٍ يدعوهم إلى نفسه ويَعِدهم الولايات، فجاء إبراهيم بن الأشْتَر إلى مصعب فألقى إليه كتابًا مختومًا، وقال: هذا جاءني من عبد الملك، ففتحه فإذا هو يدعوه إلى الإتيان إليه وله نيابة العراق، وقال لمُصعَب: أيها الأمير، إنه لم يبقَ أحدٌ من أمرائك إلا وقد جاءه كتاب مثل هذا، فإن أطعتني ضَرَبت أعناقهم، فقال له مصعب: إني لو فعلت ذلك لم تنصح لنا عشائرهم بعدهم، فقال: فأوقرهم في الحديد واسجنهم، ووكِّل بهم من إن غُلِبتَ ضرَب أعنَاقهم، وإن غَلَبت مَنَنتَ بهم على عشائرهم، فقال له: يا أبا النعمان، إنِّي لَفِي شغل عن هذا، ثم قال

مصعب: رحم الله أبا بحر -أي: الأحنف بن قيس- إن كان ليُحَذِّرني غدر أهل العراق، وكأنه كان ينظر إلى ما نحن فيه الآن.

ثم تواجه الجيشان، فحمل إبراهيم بن الأشتر على محمد بن مروان فأزاله عن موضعه، فأردفه عبد الملك بن مروان بعبد الله بن يزيد بن معاوية، فحَمَلوا على إبراهيم بن الأشتر ومن معه فطحنوهم، وقُتِل إبراهيم بن الأشتر، وقُتِل معه جماعة من الأمراء، وجعل مصعبُ بن الزبير يَحُث الشجعان والأبطال أن يتقدموا إلى أمام القوم فلا يتحَرَّك أحد، وتفاقم الأمر، واشتد القتال، وتَخَاذَلت الرجال، وضاق الحال، وكَثُر النِّزال.

فأرسل عبد الملك أخاه محمد بن مروان إلى مصعب يعطيه الأمان، وقد كان عبد الملك يحب مصعبًا حبًّا شديدًا، وكان خليلًا له قبل الخلافة، فقال لأخيه محمد: اذهب إليه فآمنه، فجاءه، فقال له: يا مصعب، قد آمنك ابن عمك على نفسك وولدك ومالك وأهلك، فاذهب حيث شئت من البلاد، ولو أراد بك غير ذلك لكان، فقال مُصعَب: قُضِي الأمر، إنَّ مثلي لا ينصرف عن مثل هذا الموقف إلا غالبًا أو مَغلُوبًا.

فنادى محمدُ بن مروان عيسَى بنَ مصعب: يا ابنَ أخي، لا تقتل نفسك، لك الأمان، فقال له مصعب: قد آمنك عمك فامضِ إليه، فقال: لا تتحدث نساء قريش أني أسلمتك للقتل، فقال له: يا بني، فاركب خيل السبق فالحق بعمك، فأخبره بما صنع أهل العراق فإني مقتول هاهنا، فقال: والله إني لا أخبر عنك أحدًا أبدًا، ولا أخبر نساء قريش بمَصرَعِك أبدًا، ولا أقتل إلا معك، ولكن إن شئتَ رَكبتَ خَيلَك، وسرنا إلى البصرة، فإنهم على الجماعة، فإنك قد ضَعُفتَ جدًّا.

فقال مصعب: لا والله، ما الفرار لي بعادة ولكن أقاتل، فإن قُتِلتُ فما السيفُ

لي بعَارٍ، والله لا تتحدَّث قريش عني أني فَرَرتُ من القتال، ثم قال لابنه: تقَدَّم بين يدي حتى أحتَسِبَك، فتقدم ابنه، فقاتل حتى قُتل، وأُثخِن مصعب بالرَّمي، فنظر إليه رجلٌ وهو كذلك فحَمَل عليه فطعنه وهو يقول: يا ثارات المُختار، فصرعه، ونزل إليه رجل آخر فقتله وحزَّ رأسَه، وأتى به عبد الملك بن مروان، فسجد عبدُ الملك شكرًا، وأعطاه ألف دينار.

فقال الرجلُ الذي جاء برأسه: والله يا أمير المؤمنين لو رأيتَهُ والرمحُ في يده تارة والسيف تارة، يَفرِي بهذا ويطعن بهذا، لرأيتَ رجلًا يملأ القلبَ والعينَ شجاعة وإقدامًا، ولكنه لما تفَرَّقت رجاله، وكثُر مَن قصدَه، وبقي وحدَه، ما زال ينشد:

وإنِّي على المَكرُوه عند حضُورِه ... أكذب نَفسي والجُفون له تُغضِي

وما ذاكَ من ذلٍّ ولكن حَفيظة ... أذُب بها عند المَكَارم عن عِرضِي

وإني لأهلِ الشَّر بالشَّر مرصدٌ ... وإنِّي لذي سِلم أذَل من الأرضِ

فقال عبدُ الملك: كان واللهِ كما وصَفَ به نفسَه وصدق، ثمَّ بكى وقال: لقد كان بيني وبين مصعب صُحبة قديمة، والله لقد كان من أحب الناس إليَّ، وأشدهم لي إلفًا ومَودة، حتى ما كنت أقدر أن أصبر عليه ساعة واحدة من حبي له، ولكن هذا المُلك عقيم، متى تلدُ النساءُ مثلَ مصعب؟ ثم أمر بمُوَارَاته.

ومن حِكمَة الله عَزَّوَجَلَّ أنَّه كلما تقادم الزمان لم يزل الشحُّ يتفَاقَم ويكثر حتى يكون متفشيًا بين الناس بصورة واضحة، وقد عدَّ النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ من علامات الساعة ظهور الشُّح، فقال: «**يتقارب الزمَان، وينقصُ العَمل، ويلقى الشح**»[1].

(١) رواه البخاري (٥٦٩٠)، ومسلم (١٥٧).

وليس المراد بذلك وجود أصل الشح؛ لأنه لم يَزَل موجودًا ولا يخلو منه زمان، لكن المراد وقوعه في قلوب الناس على اختلاف أحوالهم، حتى يبخل العالِمُ بعِلمِه فيترك التعليم والفتوى، ويبخل الصانع بصناعته حتى يترك تعليم غيره، ويبخَل الغنيُّ بماله حتى يهلك الفقير، وهناك يهلك الخَلق[1].

○○○○○

(١) انظر: «فتح الباري» (١٣/ ١٧).

الثبات

الثبات على الدِّين من أهم المَطالب والغايات، وكلما تقَادَم الزمن، وكثرت الفتن والشبهات، وعَمَّت المعاصي والمنكرات؛ كانت الحاجة إليه آكَد، والتمسك به أهم.

وقد امتَنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ على رسوله الكريم أن ثَبَّته على أمر الله سبحانه لما اشتدت حاجته لذلك، وذلك حين جاءه المشركون بأنواع الكيد والمكر والشبهات، فقال تعالى: ﴿ وَإِن كَادُوا۟ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ لِتَفْتَرِىَ عَلَيْنَا غَيْرَهُۥ ۖ وَإِذًا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلًا ﴿٧٣﴾ وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾ ﴾ [الإسراء:٧٣-٧٤]، فقد جاءوا إلى النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، مُحتَالين بكل حيلة، وماكرين بكل سبيل، وكادوا له بكل وسيلة ليفتري على الله تعالى غير الذي أُنزل إليه من ربه، ويجيء بما يُوَافق أهواءهم ويَدَع ما أنزل الله، ولو فعل ذلك ومضى معهم بما يهوون، إذن لاتخذوه خليلًا، وصفيًّا حبيبًا، لما جَبَله الله تعالى عليه من مكارم الأخلاق ومحاسن الآداب، وهم أصلًا لم يُعَادوا النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلا لما جاء به من الحق الذي يحاولون أن يستميلوا النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عنه إلى غيره.

فلما فعَلُوا ذلك، امتَنَّ الله سبحانه على رسوله بأن ثبَّتَه على الحق، ولولا ذلك لَمَال إليهم شيئًا قليلًا حُبًّا في هدايتهم.

فإذا كان النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مُفتَقرًا إلى تثبيت الله تعالى، ولا يستغني عنه طَرفَة عين، فكيف بغيره مِمَّن كثرت حولهم الفتن، وتوفَّرت الدواعي إلى الميل

عن الحق، بل والانسِلاخ عنه؟

فإذا عَلِم العبدُ ذلك خاف على نفسه الانحراف، وخَشِي على قلبه التغيير والزَّلل، وأيقن بحاجته إلى خالقه، وأنه هو الذي يمتَنُّ عليه بالثبات القائد إلى كل خير، والمُخلِّص من كل فتنة، وتلمَّس الأسباب القائدة إلى ذلك فسارع إليها، عالمًا أنَّ مُنتهى الفوز والظفر أن يهديه الله إلى الحق والاستقامة، وأن يتفضل عليه بالثبات حتى يلقاه عَزَّوَجَلَّ.

ومِن أهم الأسباب التي تُعينُه على الثبات: النظر في قَصَص الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام-، وقد أرشَدَ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ رَسُولَه صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ إلى ذلك فقال تعالى: ﴿ وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ﴾ [هود:١٢٠].

فقد ذكَرَ الله تعالى لنَبِيِّه وأخبره بقصص الأنبياء قبله، وما حصل لهم من الشدة والعَنَت من أقوامهم؛ من المُجَادلة بالباطل وتكذيبهم فيما جاءوا به من ربِّهم عَزَّوَجَلَّ، وإلحاق الأذى بهم حتى بلغ الأمر أن قُتِل بعضهم؛ كما قال تعالى: ﴿أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولُۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴿٨٧﴾﴾ [البقرة:٨٧]، ومع ذلك احتمَلُوا ذلك كله في سبيل الله، وثبتوا على ما بعثهم الله به حتى بلَّغوا رسالةَ ربِّهم، وقاموا بما أُمِرُوا به.

وفي هذا تثبيتٌ لقَلبِ النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ؛ ليكون له فيما حصَل مع إخوانه المرسلين من قبله عِبْرة ومُوَاساة.

ومَن كان مؤمنًا بما كان عليه النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ مُقتَديًا به، كان حَرِيًّا به أن يتَّبع آثاره في ذلك، ويستَنَّ بسِيرة مَن سلَف من الصالحين ويأخذ بآثارهم، ويعلم أنه سيَرِدُ عليه ما ورد عليهم من الضِّيق والشدَّة والمُنَازعة، فلا يَصُدُّه ذلك عن

الحق، ويلجأ إلى الله تعالى حقَّ اللجوء، راجيًا أن يثبته الله على الخير، حتى يأمَن على نفسه، ويَدُل غيره على الله بأوضح سبيل وأيسره، ليَفُوز بالأجر، ويشعر بالأُنس حينما يرى تكاثُر أهل الخير، ورجوعهم إلى الله الذي ليس لهم ربٌّ سِوَاه، ولا غُنيَة لهم عن فضله وإحسانه.

فالطريق إلى الله ليس بمُذَلل بكُل هيِّن، بل إنه طريقٌ تعتَرِضُه الحوادث والآفات، فيحتاج إلى مَن هو قويُّ الجَنَان، رابط الجأش، لا تزيده الشدَّة إلا ثباتًا، ويعلم أنَّ الأجر على قَدر المشقة، فإذا ضاق صَدرُه تأمَّل في قَصَص الأنبياء وسيرة النبي الكريم صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ومَن جاء بَعدَه من الصحابة والتابعين وصَالِحِي الأمة، فرأى من ذلك ما يَدفعُه إلى الثبات، ويزيده إصرارًا على مُلازمة الطريق رجاء أن يكون من أتباعهم، وقد قيل للحَسَن البَصري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «سَبَقَنا القومُ على خَيل دُهم، ونحن على حُمُر مُعَقَّرة، قال: إن كنت على طريقهم، فما أسرع اللحَاق بهم!».

والحق أبلَج، وصاحبه مَنصُور وإن تعَرَّض للمشَقَّة والتعب أو طال به المدى.

وَمن تأمَّل قَصصَ الأنبياء وجد ذلك واضحًا بينًا، فمَهما يجري على النبي المرسل من قومه، تكون العاقبة له، ويظهر الحق، ويبقى دينُ الله منصُورًا، وتأفُل شمسُ الباطل، وفي تلك القصص التي قصَّها الله عَزَّوَجَلَّ على نبيه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أعظم المُبَشرات بالثبات، ومَن كان على طريقه لا بدَّ أن يكون له نصيبٌ من ذلك.

ومِن أهم أسبابِ الثبات ووسَائِله: كثرة اللجُوء إلى الله بالدعاء، دعاء المُضطر إليه، المُفتقر إلى رحمته وجُودِه وإحسانه، المُتَبرئ من حوله وقُوَّته، العالم علمًا يقينيًّا أنه سبحانه مالك كل شيء، وبيده مقاليد كلِّ شيء، وأنَّ له الأمر كله،

والعَبد لا يملِكُ لنفسه ضرًّا ولا نفعًا، ولا موتًا ولا حياة ولا نشُورًا.

وقد أوصَى النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالدعاء بالثبات حين انشغال الناس بالدنيا، وتنافُسهم فيها، وركونهم إليها، ومن ذلك ما أوصى به النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ شَدَّاد بن أوس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ -وهي وصية لأمته- فقال: «**إذا اكتنَزَ الناسُ الدينار والدرهم فاكتَنِز هذه الكلمات: اللهم إني أسألك الثباتَ في الأمر، والعَزيمة على الرُّشد، وأسألك مُوجبات رحمتك، وعزائمَ مَغفرتك، وأسألك شُكر نعمتِك، وحُسن عبادتك، وأسألك قلبًا سليمًا، ولسانًا صادقًا، وأسألك من خير ما تَعلَم، وأعوذُ بك من شرِّ ما تعلم، وأستَغفِرُك لما تعلمُ؛ إنك أنتَ علَّامُ الغيوب**»(١).

فأول ما حَضَّ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على الدعاء به: سؤال الله تعالى الثبات في الأمر، ويدخُل في ذلك جميع الأمور المُتعَلقة بأمر الدِّين، ويزيد المرء حاجة لهذا الدعاء حين يكون الناس قد انشغَلُوا بالدنيا، فكان الواجب على المسلم أن يدعو الله تعالى بالثبات مَخَافة زَلَّة القَدَم، وضَعف القلب، فينجرف نحو ما انجَرَفُوا إليه.

وقد كان من دُعاء النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**اللهُم يا وَلِيَّ الإسلام وأهله، ثَبِّتني على الإسلام حتى ألقاك**»(٢)، وهذا تنبيه منه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لأمته أن يَدعُوا بهذا الدعاء، فإذا كان المعصوم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يدعو مُبتهلًا إلى الله أن يُثَبِّته على الإسلام حتى يلقاه به ويتَوفَّاه عليه، فأمَّته من باب أولى، لعَدم عِصمتهم وكثرةِ الفتن التي تدور حولهم، فتُضعِف القلوب، وتَصُد عن الحَق.

---

(١) رواه الترمذي (٣٧٠٥)، وهو صحيح، انظر: «سلسلة الأحاديث الصحيحة» (٣٢٢٨).

(٢) رواه الطبراني في «الأوسط» (٦٦١)، وهو صحيح، انظر: «سلسلة الأحاديث الصحيحة» (١٨٢٣).

وقد كان الأنبياء عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ يدعون بذلك، مُبتَهِلين إلى الله أن يُثَبتهم على الإسلام ويتوَفَّاهم عليه، كما قصَّ ربُّنا سبحانه عن يوسف عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ أنه كان يَدعُو بقوله: ﴿ ۞ رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِي مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّۦ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠١﴾ ﴾ [يوسف:١٠١].

وما دعا النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بهذا الدعاء، ودلَّ أمته عليه، إلا لخَوفه على أمته من تقَلُّب القلوب الصَّارف عن الحَق، المُفضِي إلى الباطل، فقد جاء في حديث أنس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: «كان رسُولُ الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُكثِر أن يقول: **اللهُمَّ يا مُقَلب القلوب ثبِّت قلبي على دِينك**. فقلتُ: يا رسول الله، آمنَّا بك وبما جئت به، فهل تخافُ علينا؟ قال: **نعَم، إنَّ القلوب بين أصبعين من أصَابع الله، يُقَلِّبها كيف يشَاء**»(١).

ومَن عَلِم أنَّ الاستقامَة على الدِّين نِعمَة لا تُوازيها نعمة، وفضل لا يُدَانيه فضل، علم أنَّ الله تعالى لا يُعطيها إلا لمستحق تفضلًا منه وامتنانًا وتكَرُّمًا، فإذا خالف أمر الله تعالى سَلَبها منه، فيُرى وهو يترنح بين أودية المهالك والطرقات المظلمة، لا يهتدي إلى سبيل، ولا يستدل على طريق.

وقد يُحرَم العبد هذه النعمة بسبب الذنوب والمعاصي، التي أضعفت قلبه، وجَرَّأته على الباطل، فلم يزل يجترئ على ذلك حتى يُحرَم الخير، فلا يشعر إلا وقد صَحا من غفلته، وإذ به قد فَقَدَ أعظم نعمة وأجمل عيش وأسعده، وقد قال الله تعالى في حقِّ اليهود وحرمانهم النعم بسبب ذنوبهم: ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟

(١) رواه ابن ماجه (٣٨٣٤)، وهو صحيح، انظر: «صحيح الأدب المفرد» (٥٢٨).

حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا ﴿١٦٠﴾ وَأَخْذِهِمُ ٱلرِّبَوٰا۟ وَقَدْ نُهُوا۟ عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦١﴾ [النساء:١٦٠-١٦١]، فجعل سبحانه ما وقع منهم من الظلم والصَّد عن سبيل الله وأكل الربا وأكل أموال الناس بالباطل سببًا في حِرمَانهم من الطيبات، وهكذا تفعل الذنوب والمعاصي مع كل نِعمَة، فإنها تكون سببًا في زوالها.

قال جُبَير بن نُفَير: «لما فُتِحت قُبرص فُرِّق بين أهلها، فبكى بعضُهم إلى بعض، فرأيتُ أبَا الدرداء جالسًا وحده يبكي، فقلتُ: يا أبا الدرداء، ما يُبكيك في يوم أعَزَّ الله فيه الإسلام وأهله؟ فقال: وَيحَك يا جُبير!، ما أهونَ الخَلق على الله عَزَّوَجَلَّ إذا أضَاعُوا أمره، بينما هي أمةٌ قاهِرة ظاهرة لهم المُلك، ترَكُوا أمر الله فصَاروا إلى ما تَرَى».

والدعاء من أهم الوسائل التي تُعين على بقاء الثبات ونمائه، فيُديم المسلم الدعاء بالثبات خصوصًا، كما يدعو بحصول الأسباب التي تحقق له ذلك من التزود بالطاعات، ودوام الذِّكر، وأن يفتح الله له بابًا إليه سُبحَانه، ولذلك كان النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ يدعو الله في جميع أحواله، ويذكر الله في كل أوقاته، لعِلمِه أنَّ أقرب الناس إلى الله مَن كان ملازمًا لذِكره، فيشعر بقرب الله منه، ويعظُم في قلبه اليقين باستجابة الله له، وأنه هو الذي يُنَجيه ويدفع عنه السوء والفتن، ويتحَرَّى من ذلك الدعاء في أوقات الإجابة التي صحَّ ذِكرُها في السُّنة النبوية، وقد فضَّلها الله سبحانه بهذا الفضل العظيم من إجابة الدعاء فيها، فيدعو في سجوده، وثلث الليل الآخر، وعند الأذان، وبين الأذان والإقامة، وعند نزول المطر، وفي حال صيامه، وغيرها من الأوقات التي جاء ذِكرُها في السنة المُطَهرة أنها أوقات إجابة.

وكلما كانت الفتن أكثر، وادلهَمَّت الأمور عَلِم العبد أنه مُحتاج إلى الدعاء أكثر من أي وقت آخر، فدعاه ذلك إلى استشعار ما يدعو به، حيث أحسَّ بالخطر وطمع بالنجاة.

ومن وسَائل الثبات على الحق: أن يُجاهد المرءُ نفسَه إذا دعته إلى باطل، وأرادت صَرفَه عن الحق، فالنفس تميل إلى التَّرخُّص، والخلاص من القيود حتى وإن كانت ليست بشاقة، وتُفَضِّل الراحة المتَوَهَّمة، مع عِلمِها أنَّ الراحة الحقيقية حين الفوز بجنات الخُلد.

وكلما كان المرءُ أشدَّ مجاهدة لمعرفة الحق وبلوغه والتمسُّك به، هداه الله إليه، وثبَّته عليه، كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٦٩﴾ [العنكبوت:٦٩]، والمجاهدة في الله تكون ببلوغ الجهد لنيل مَرضَاة الله ولزوم طاعته، ومَن فعل ذلك كان حريًّا بأن يهديه الله عَزَّوَجَلَّ إلى الطريق المُوصِلة إليه، فتتحقق له السعادة العظمى والمنزلة الأسمى، فضلًا من الله ومِنَّةً وتكَرُّمًا.

وصُحبة الأخيار الصالحين مما يُعين على الثبات على الدِّين، فإن الصاحب الصالح يذكِّر صاحبه إذا نسي، ويُنَبهه إذا غفَل، ويَرُده إلى الجادة إذا أضاع الطريق، ولذلك قال النَّبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ: «**عليكُم بالجَمَاعة، فإنما يأكُلُ الذئبُ القاصيةَ**»[1]، فمِن تمام العقل والتوفيق أن يتخذَ المرءُ إخوانًا وأصحابًا يقطع معهم الطريق، ويستعين بهم على الصَّلاح حتى يبلغ مُنتَهى أجَلِه.

---

(١) رواه الطبراني في «المعجم الكبير» (٨١٠)، وهو صحيح، انظر: «صحيح الجامع الصغير» (٥٧٠١).

والواجبُ الحَذَر من صُحبَة الأشرار، الذين يفتحون له باب المُنكَرات، ويُزَهِّدونه بالعمل الصالح، ويُغلِقُون عنه أبواب الخير، فالصاحب السوء من شَر ما يتخذه المرءُ في حياته، وكم من أناسٍ كانوا على هُدى وخير، فصاحَبُوا مَن صَرَفهم عن الحق، وخاضَ بهم في أودِيَة الرَّدى حتى هلَكُوا، ولذلك كان مما استعَاذَ منه النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صاحبَ السوء، وذلك لعظيم شره وكبير خَطَره، فقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**اللهم إني أعُوذ بك من يوم السُّوء، ومن ساعة السُّوء، ومِن صَاحب السوء...**»[1].

ومَن أقام على الإيمان والطاعات، والتمس رضا الله تعالى حسب طاقته وإمكانه، وعمل بذلك؛ ثبَّته الله تعالى حينما يكون أحوج ما يكون إلى الثبات، ونجَّاه الله في حالٍ يكون فيها أفقر ما يكون إلى الأمن والنجاة، وقد تكفَّل الله تعالى بذلك مِنَّةً منه وتفضُّلًا، فقال سبحانه: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴿٢٧﴾﴾ [إبراهيم:٢٧].

نسأل الله أن يُثَبِّتنا على الإسلام حتى نلقاه سُبحانه.

○○○○○

(١) رواه أبو داود (٥٤٧)، وهو صحيح، انظر: «صحيح الجامع الصغير» (١٢٩٩).

الراحمون يرحمهم الرحمن

إذا أرادَ الله بعبده خيرًا رزقه قلبًا رحيمًا، حتى تظهر آثار ذلك على أعضائه وتصرفاته، فتعظُم سعادته، ويهنأ عيشه، ويطمئن قلبه.

ومما يُمَيز الرحمة: أنَّ الله تعالى اتصف بها على الوجه اللائق به سبحانه، وكتبها على نفسه تفضلًا منه وامتنانًا على خلقه، قال تعالى: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾ [الأنعام:٥٤]، وقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إنَّ الله كتب كتابًا فهو عنده فوق عرشه إنَّ رَحمَتي سبقت غضَبي**»(١).

وقد أحَبَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ من عبَاده أن يتَّصِفوا بالرحمة، وأن يتعَامَلُوا بها، وأعدَّ لذلك أفضل الجَزاء وأجزله، قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**الرَّاحمون يَرحَمُهم الرحمن، ارحَموا مَن في الأرض يَرحَمكم مَن في السماء**»(٢).

ومن آثار الرَّحمة وفشوِّها بين الخلائق: أنها تجلبُ المودَّة، فالقلوب مَيَّالة إلى مَن أحسن إليها وعاملها باللطف والإحسان.

ومَن فتح الله بينه وبين هذا الخُلُق الجميل فقد سَلَك به سبيل السعادة والهَناء، فإنَّ القلوب الجافَّة دائمة المَلل، لا تهنأ بعيش، ولا تلتَذُّ باستقرار، كلما أراد صاحبها أن يصل إليها فإذْ به وقد حال بينه وبينها حصُونٌ مَانِعَة ليس إلى عبورها من سبيل.

ومَن نَظَر في سِيرة خير الوَرَى والنبي المصطفى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تبيَّن له كيف

(١) رواه البخاري (٦٩٨٦)، ومسلم (٢٧٥١).
(٢) رواه أحمد (٦٤٩٤)، وهو صحيح، انظر: «صحيح الترغيب والترهيب» (٢٢٥٦).

تعَامَل بهذه الصفة الجميلة بقوله وفعله؛ لعلمه بما يَئُول إليه هذا الخلُق، من فتح أبواب الوصال، ومَلْءِ القلوب بالعاطفة التي تروِّض النفوس بما يُصلِحُها.

فقد جاء في الحديث: أنَّ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قبَّل الحسن بن علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وعنده رجلٌ من الأعراب، فقال: إنَّ لي عشرة من الولد ما قَبَّلت منهم أحدًا، فنظر إليه رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وقال: «**من لا يَرحم لا يُرحم**»(١).

وقدم عليه ناسٌ من الأعراب فقَالُوا: «تُقَبلون صبيانكم؟ فقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **نَعَم**. قالوا: لكنَّا واللهِ ما نُقَبل، فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **أَوَ أملِكُ إن كان اللهُ نزع من قُلوبكم الرحمة**»(٢)؛ أي: لا أقدر أن أجعل الرحمة في قلبك بعد أن نَزَعَها اللهُ منه.

وفي هذه الأحاديث: حثُّ المَرء على الاتصاف بالرحمة والتحذير ممَّا يُخَالفها، لا سيَّما مع الأشخاص الذين تتوفر الدواعي لرحمتهم كالأبناء ونحوهم؛ لأنَّه إن تجرد من الرَّحمة معهم ولبس ثوب القَسوة فهو مع غيرهم من باب أَوْلى، وفي هذا أعظم الخطر على المرء، وحرِيٌّ أن يُورده سُبُل المهالك، وأن يُحرَمَ من الرحمة أحوج ما يكون إليها، وفي ذلك يقول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مَن لا يرحَم الناسَ لا يرحَمُه الله**»(٣).

والمرء يُجَازَى بأعماله في دُنياه وأُخرَاه، كما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿جَزَآءً وِفَاقًا﴾ [النبأ:٢٦]، فعلى الإنسان أن يحذَرَ أشَدَّ الحَذر أن يقع في ذلك.

---

(١) رواه البخاري (٥٦٥١)، ومسلم (٢٣١٨).

(٢) رواه البخاري (٥٦٥٢)، ومسلم (٢٣١٧).

(٣) رواه البخاري (٥٩٤١)، ومسلم (٢٣١٩).

وقد تعامَلَ الرحمةُ المُهداةُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالرحمة في جميع مجريات حياته، بل حتى أثناء تأدية العبادات، لِيَصدُق عليه قول ربنا سبحانه: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ١٠٧﴾ [الأنبياء:١٠٧].

فقد جاء عنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه قال: «**إني لأقومُ إلى الصلاة وأريد أن أطوِّل فيها، فأسمع بكاء الصَّبي فأتجوَّز في صلاتي كراهية أن أشُقَّ على أمه**»[(١)].

وقالت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «إن كان رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ليدع العمل وهو يحب أن يعمل به، خشية أن يعمل به الناس فيُفرض عليهم»[(٢)].

وأمر رسُولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ برحمة الخلق والتخفيف عنهم حتى في أمور العبادة، فقد قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إذا صلى أحَدُكُم للناس فليُخَفف، فإنَّ فيهم الضعيفَ والسَّقيمَ والكَبيرَ وذَا الحاجَةِ، وإذا صلى أحدكُم لنَفسِه فليطوِّل ما شاء**»[(٣)].

ويتضح من وراء ذلك أنَّ رحمَة الخلق بابٌ من أبواب العبادات التي تُقَرِّب إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فإنه ومع مَحبة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لعبادة ربه وأن تُقام على الوجه الأكمل والوصف الأبلغ، فقد أمر بتخفيف الصلاة التي هي قرة عين المسلم؛ رَحمةً بالخلق حين يكون عندهم من الدَّواعي التي يُرحَمُون من خلالها، فكيف إذا كان ذلك في غير أمور العِبَادات؟

وكان صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لا يدَعُ فرصة مناسبة تبين آثار هذه الرحمة ومنزلتها

---

(١) رواه البخاري (٦٧٥).

(٢) رواه البخاري (١٠٧٦)، ومسلم (٧١٨).

(٣) رواه البخاري (٦٧١)، ومسلم (٤٦٧).

وعظيم أجرها، إلا أشار إلى ذلك وضَرَب الأمثال لأصحابه ليَحُثَّهم على التمسُّك بها والتماس أسبابها، **ومن ذلك**: أنه قَدِم على رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ سَبيٌ، فإذا امرأة من السبي تسعى، إذ وجدت صبيًا فأخذته، فألزقته ببطنها فأرضعته، فقال رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**أَتُرَونَ هذه المرأة طارحَةً ولدها في النار؟** قُلنا: لا والله، فقال: **لَلَّهُ أرحَمُ بعِبَاده من هذه بِوَلدِها**»(١).

ومَن تَأمَّل مثل هذا الحديث عَلِم أنَّ رحمة العبد بالخلق سبيل إلى رحمة الله له، وإنما يرحم الله من الخلق أرحمهم بعباده، كما أنه يجعل المرء يشعر بالهناء والطمأنينة والرضا بأقدار الله، فكل ما قضاه الله على العبد لا يخرج عن حِكمَته ورحمته، ولو كُشِفَ الغيبُ للعبد لأحسَنَ الظن بالله، وعلم يقينًا أنَّ ما قدَّره الله له فيه منتهى الرَّحمة له، فإذا كان الوالد يتصفُ بالرحمة العظيمة لولده بالرغم مما يعتري ذلك من التقصير والتجَاوز والعقوق، وهو مع ذلك يخاف عليه من شَوكَة تُؤذيه، فكيف ستكونُ رحمةُ الله سُبحانه؟ ومن أجل ذلك فقد ضرب النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ هذا المثل، ليزدَاد المؤمن إيمانًا ويقينًا بعظيم رحمة الله.

ومِن أجل بيانِ آثار تلك الرَّحمة يوم القيامة وعظيم جَزَائها عند الله، فقد قصَّ النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ وضرب من الأمثلة ما يُبَيِّن ذلك ويُوضِّحه ويَحُث عليه، فقد جاء عنه صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ أنه قال: «**بينما رجُل يمشي بطريق، اشتَدَّ عليه العطشُ، فوجد بئرًا فنزل فيها، فشَرب ثم خرج، فإذا كلبٌ يلهَث، يأكل الثَّرَى من العطش، فقال الرجل: لقد بلَغَ هذا الكلب من العطش مثل الذي كان بلغ منِّي، فنَزل البئر، فملأ خُفَّه ثم أمسكه بفِيهِ حتى رَقِيَ، فسَقى الكلب، فشكر اللهُ له**

(١) رواه البخاري (٥٦٥٣)، ومسلم (٢٧٥٤).

فغفر له»[١].

وفي رواية: «**بينما كلب يطيفُ بِرَكِيَّةٍ** -أي: بئر- **قد كاد يقتله العطشُ، إذ رأته بَغِيٌّ من بَغايا بني إسرائيل، فنزعت مُوقَها، فاستَقَت له به، فسَقَته إياه، فغُفِرَ لها به**»[٢].

ومَن تأمَّل هذا الحديث علمَ مقدار رحمة الله عَزَّوَجَلَّ، وأنه لا يزنُ الأمور بميزان الخَلق، وأنه كلما كانت الحاجة أقوى كان الجَزَاء أعظم، فإنَّ الرجُل تنازل عن كبريائه من أجل حيوان، ووضع خُفَّه في فَمِه رحمةً به وسقاه، وهذا يَدُل على عظيم ما قام في قلبه من الرحمة، فجزاه الله بهذا العمل ما لم يخطُر له على بال، حيث أنعم عليه بالجَنَّة، وهذا يَدُل على أنَّ من أراد الله سعادته، وفَّقَه للاتصاف بهذه الصفة وهَدَاه إلى أسبابها.

ومَن نظَر في أحوال السلف علم مِقدَار أخذِهِم بما دَلَّتهُم عليه النصوص الشرعية من كتاب الله وسُنَّة خير الوَرَى صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، ومن أجل ذلك فقد طابت حياتُهم، وأعظَمُوا ما أُمِرُوا به فسَارَعُوا إلى الاتصاف به، فَرَقَّت قلوبُهم وانشرَحَت صدورهم.

صَلَّى ابنُ المُنكَدر على رجلٍ، فقيل له: «تُصَلِّي على فُلان؟. فقال: إني لأستَحي من الله أن يعلم مني أنَّ رحمَتَه تعجز عن أحدٍ من خلقه».

وقال النَّضرُ بن شُمَيل: «ما رأيتُ أرحم لمسكين من شُعبة، إذا رأى المسكين لا يزال ينظر إليه حتى يغيب عن وَجهِه».

---

(١) رواه البخاري (٢٢٣٤)، ومسلم (٢٢٤٤).

(٢) رواه البخاري (٣٢٨٠)، ومسلم (٢٢٤٥).

وقيل لعُمر بن قيس المُلائي: «ما الذي نَرى بك من تغيُّر الحال؟ قال: رحمَة للناس من غَفلَتهم عن أنفُسِهم».

ومِن حِكمة الله أنَّ ثمَّة قَومًا لم يُرِد اللهُ هِدَايَتَهُم، قد اتَّصفت قلوبُهم بالقسوة، فظهرت علامات ذلك على أعمالهم وجوارحهم، فبَاءُوا بالخُسران المُبين، فلم يَصْفُ لهم عيش، ولم يَهنَأ لهم بال، حتى استوحشت قلوبهم أبدانهم، كلما ازدادوا صلابةً ازدادوا وَحشَة، وقد ظنوا أنَّ سعادتهم في التجَرد من الرحمة والسعي إلى الإضرار بالآخرين، فحقَّ عليهم قول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**من لا يَرحَم الناسَ لا يَرحَمه الله**»[1].

ومن أجل ذلك فَقَد أذَاقَهُم الله من عذاب الدنيا بنَزع السَّعادة من قلوبهم، مع ما أُعِدَّ لهم من العذاب يوم القيامة إن لم يَتُب الله عليهم ويَعفُو عنهم.

ومما يَجدُر الإشارة إليه أنه مع التَّنبيه على رحمة الخَلق، فلا بُدَّ للإنسان أن يرحم نفسه ويُعَاملها باللطف والرفق، فلا يُكلفها ما لا تُطِيق، ولا يشغلها بالتفكير القاتل، وتَحميل الأمور فوقَ طاقتها، وقد قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إنَّ لنَفسِك عليك حقًّا**»[2]، ومن أعظم حقوق النَّفس: مُعَاملتها بالرحمة حتى تَمضي مُتماسكة قوية، لا تَخُور عند أدنى صَدمة، ولا تنهار عند أصغر حدث.

وإنما الأمر توفيق، والسعيد مَن وفَّقه الله إلى ما يُحِبه ويرضاه.

○○○○○

(١) رواه البخاري (٥٩٤١)، ومسلم (٢٣١٩).

(٢) رواه أبو داود (١٣٦٩)، وهو صحيح، انظر: «صحيح الجامع الصغير» (٧٩٤٦).

الرجـاء

من علامات توفيق العبدِ أن يفتحَ الله له باب الرجاء، فينظر إلى سَعة رحمة الله، فيرجو أن تشمله، ويجتهد في تحصيل الأعمال التي تقوده إلى ذلك، فيتعلق قلبه بالله، ويقوى إيمانه، ويرتاح قلبه طمعًا في أن ينال ما يحب وينصرف عنه ما يَكرَه، وأن يتقَبَّل الله منه طاعته، ويَمحُو ذنبه، ويعفو عن تقصيره.

وما زال أهل الطاعة والاستقامة على هذا النَّهج القويم، يعيشون بين الخوف والرجاء، فيستقيمون على طاعة الله ويخافون مزَلَّةَ القَدَم، مع قوة رجائهم بالله أنه رحيمٌ بهم، غنيٌّ عن عذابهم، يتحَبَّب إليهم بأنواع النِّعَم مع غناه عنهم، فيزيدهم ذلك صِدقَ عَمَل، وحُسْنَ ظَن به سبحانه.

ومن نظر في أدلة الشريعة من الكتاب والسُّنة رأى كبير اهتمامها بترسيخ هذا الأصل العظيم؛ نظرًا لما يَئُول إليه من فتح باب العمل والمُسَارعة إليه بانقيادٍ تام وانشراح صدر، وذلك أنَّ المَرءَ إذا علم أنه سينال أجر عَمَله دون نقص ولا تقصير، دفَعَه ذلك إلى بذل جهده في تحقيق ما طُلب منه، فكيف إذا رجا أن ينال جزاء عمله أضعاف أضعاف ما عَمِل؟

ولذلك من الجميل إذا رأى المرء مَن يعمل الخير ويبذل المعروف والإحسان، أن يذكِّره بفضل الله وعظيم كَرَمه وجُودِه، وأن يفتح له أبواب الرجاء برحمة الله ومغفرته للمحسنين، وأن يذكر له من النصوص الشرعية ما يزيده يقينًا بما استقَرَّ في قلبه من قوة الرَّجاء بالله.

وقد كان من هَدي النَّبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه يَذكُر لأصحابه من النصوص ما يدعوهم إلى مَعرفَة سَعة رَحمَة الله، فيسلكوا السبل التي تَقُود إليها، ويَعظُم رجاؤهم بربهم أن يكونوا من أهلها.

ومن ذلك بيانُه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لعظيم سَعَة رحمة الله مما يفتح للعبد باب الرجاء أن يكون من أهلها، فقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لمَّا خَلق الله الخَلْق، كتب في كتاب، فهو عنده فوق العَرش: إنَّ رحمَتي سبَقَت غضَبي**»(١).

وقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**جَعَل الله الرحمَةَ مائة جُزءٍ، فأمسَك عنده تسعة وتسعين، وأنزل في الأرض جزءًا واحدًا، فمن ذلك الجُزء يتراحم الخلائق حتى ترفع الدابَّة حافِرَها عن ولدها خشية أن تُصيبَه**»(٢).

وكان صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يضرب لأصحابه الأمثلة الحيَّة ليبين لهم آثار رحمَةِ الله حتى يرسخ ذلك في الأذهان، وتستوعبه القلوب، فتزداد لربها وخالقها حبًّا وتعلقًا ، فقد جاء عنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه قدم إليه سَبيٌ، فإذا امرأة من السبي تسعى، إذ وجدت صبيًّا في السَّبي أخذته فألزقته ببطنها، فأرضعته، فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أتُرونَ هذه المرأة طارِحَة ولدها في النار؟** قيل: لا والله، فقال: **لَلَّهُ أرحَمُ بعِباده من هذه بوَلَدِها**»(٣).

ومن أعظَم أحاديث الرجاء ما جاء عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**إن الله يُدنِي المؤمن، فيضع عليه كنَفَه ويستره، فيقول: أتعرف ذنب كذا، أتعرِفُ ذنب**

(١) رواه البخاري (٦٩٨٦)، ومسلم (٢٧٥١).
(٢) رواه البخاري (٥٦٥٤)، ومسلم (٢٧٥٢).
(٣) رواه البخاري (٥٦٥٣)، ومسلم (٢٧٥٤).

كذا؟ فيقول: نَعَم أي رب، حتى إذا قرَّره بذنوبه، ورأى في نفسه أنه هَلَك، قال: ستَرتُها عليك في الدنيا، وأنا أغفرها لك اليوم، فيُعطَى كتاب حَسَناته»[1].

ومَن تأمَّل هذه الأحاديث وغيرها كثير، عَلِم عظيم رحمَة الله، وارتاحت نفسُه، واطمأن قلبه، ورجَا من ربه خيرًا، ولذلك عَظُم رجاء قومٍ بربهم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ حين أيقَنُوا بكبير عَفوِه وغُفرانه، فقد جاء عن حمَّاد بن سَلَمة رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنه قال: «واللهِ لو خُيِّرت بين محاسبَةِ اللهِ إيَّاي، وبين محاسبة أبويَّ، لاختَرتُ محاسبة الله، وذلك لأن الله أرحم بي من أبوي».

وأولى الناس طمعًا في نَيل رحمة الله هم المؤمنون العاملون بطاعة الله، المستقيمون على ذلك، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢١٨﴾﴾ [البقرة:٢١٨]، فالإيمان هو الحدُّ الفاصل بين أهل الجنة وأهل النار، وأهل السعادة وأهل الشقاء، وهو الذي إذا كان مع العبد قُبِلَت منه أعمال الخير، وحَقيقٌ بأصحابه أن يكونوا من الرَّاجِين لرحمَة الله، إذا قَرَنُوه بالأعمال والطاعات التي تكون سببًا في رجاء ربهم ووسيلة إلى الطمع في رحمته ورضوانه.

ولا يَعني ذلك أن العبد يعتمد على عمَله، ولكنه يرجو رحمة ربه وقبول أعماله ومغفرة ذنوبه، وستر عيوبه، مع إقراره بتوفيق الله له أن يَسَّر له أعمال البِر، ولولا ذلك لم يُوَفَّق إليها، ولم يَقدِر عليها، فإذا وفِّق للأعمال الصالحة رُزِق بمَغفرة الله ورحمته، وإذا حَصَلت له المغفرة، اندَفَعت عنه عقوبات الدنيا والآخرة، التي هي آثار الذنوب التي قد غُفِرَت واضمَحَلَّت آثارها، وإذا حصلت له الرحمة

(١) رواه البخاري (٤٦٨٥).

حصَلَ على كل خير في الدنيا والآخرة[١].

ومن فضل الله تعالى على عباده أن فتح بابَ الرجاء للمُذنبين؛ حتى يعودوا إلى ربهم، ويتوبوا من ذنُوبِهم، ويُصلِحُوا أحوالَهُم قبل الانتقال إلى دار الخلود، وإنما تَفَضَّل عليهم سبحانه بذلك لعِلمِه بضعفهم، وتسَلُّط الشيطان عليهم، وغلبة النفس والهوى، ففتح لهم أبواب رحمته ليدخلوا منها إلى الله، ورغَّبهم بالتوبة بعد الذنب ليُنيبوا إليه، وقد قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**والذي نَفسي بيده لو لم تُذنِبُوا، لذهب الله بِكُم، ولَجَاء بقوم يُذنبون، فيستغفرون الله تعالى، فيغفر لَهُم**»[٢].

وهذا من أعظم الأحاديث التي تُواسِي المُذنِب التائب، وتفتح له باب الرجاء برَبِّه، إن هو تابَ من ذَنبه.

وقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أذنب عبدٌ ذنبًا، فقال: اللهُم اغفر لي ذنبي، فقال الله** تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: **أذنبَ عبدِي ذنبًا، فعَلِم أن له ربًّا يغفر الذنب، ويأخذ بالذنب، ثم عاد فأذنب، فقال: أي رَب، اغفر لي ذنبي، فقال** تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: **أذنب عبدِي ذنبًا، فعلم أن له ربًّا يغفر الذنب، ويأخُذ بالذنب، ثم عاد فأذنب، فقال: أي رَب، اغفِر لي ذنبي، فقال** تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: **أذنَب عَبدِي ذنبًا، فعلم أن له ربًّا يغفر الذنب، ويأخذ بالذنب، قد غَفَرت لعَبدي فليفعل ما شاء**»[٣]؛ أي: أنه ما دام يفعل هكذا، يُذنب ويتوب، فإني أغفِرُ له، وذلك أنَّ التوبة تَهدم ما قبلها.

وليس في هذا الدَّعوة إلى اقتِرَاف الذنوب، ولكن فيه بيان عظيم فضل الله

---

(١) انظر: «تفسير السعدي» (ص٩٨).

(٢) رواه مسلم (٢٧٤٩).

(٣) رواه مسلم (٢٧٥٨).

وكبير حِلْمِه وعفوه وغُفرانه، وترغيبًا للعبد بالتوبة والإنابة، وهذه الأحاديث إنما تدل على أن الله تعالى يغفر جميع الذنوب مع التوبة، وأن العبد لا يقنَطُ من رحمة الله وإن عَظُمت ذنوبه وكَثُرت؛ فإن باب التوبة والرحمة واسع، كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ﴾ [التوبة:١٠٤]، وقال تعالى: ﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١١٠﴾﴾ [النساء:١١٠].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُواْ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُواْ﴾ [البروج:١٠]، **قال الحَسَن البَصري**: «انظُر إلى هذا الكَرَم والجُود، قتلوا أولياءه وهو يدعوهم إلى التوبة والمغفرة».

وجاء عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا **قال**: «إن ناسًا من أهل الشرك كانوا قد قتَلُوا فأكثروا، وزَنَوا فأكثروا، فأتوا محمدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقالوا: إن الذي تقول وتدعو إليه لَحَسَن، لو تخبرنا أنَّ لِمَا عَمِلنا كفارة، فنزل قولُه تعَالى: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ﴾ [الزمر:٥٣]»[1].

وهذه الآية هي أرجى آية في كتاب الله، وفيها دعوةٌ لجميع العُصَاة من الكفرة وغيرهم إلى التوبة والإنابة، وإخبار بأن الله يغفر الذنوب جميعًا لمن تاب منها ورجع عنها مهما كانت، حتى وإن كَثُرت وكانت مثل زَبَد البحر.

قال ابن مسعُود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «إن أكثر آية في القرآن فرَجًا، قوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ﴾».

وعلى المُسلم أن يفتح باب الرجاء للمُذنبين، ويَدعُوهم إلى التوبة والإنابة،

(١) رواه البخاري (٤٥٣٢)، ومسلم (١٢٢).

ويُبَشرهم برحمة الله وعَفوه وغُفرانه إن هم تابوا، فقد جاء في الحديث أنَّ النبي النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خرج على رهط من أصحابه يضحكون فقال: «**والذي نفسي بيده، لو تعلَمُون ما أعلم لضَحِكتم قليلًا ولبكيتم كثيرًا**. ثم انصرف، وبكى القوم، فأوحى الله إليه: يا مُحمد، لم تُقَنِّط عبادي، فرجع النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وقال: **أبشِرُوا وقَربوا وسَدِّدوا**»(١).

وقال علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «إن الفقيه كل الفقيه من لم يقنِّط الناس من رحمَةِ الله تعالى، ولم يُرَخِّص لهم في مَعَاصيه، ولم يُؤَمِّنهم عَذَابَ الله».

وجاء عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا **أنها قالت لواعِظٍ**: «أَلَم أُحدَّث أنك تعظُ الناس؟ قال: بلى، قالت: فإياك وإهلاك الناس وتقنيطهم».

ومَرَّ عبدُ الله بن مسعودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ على قَاصٍّ، وهو يذكِّر الناس، فقال: «يا مُذَكِّر، لِمَ تُقَنِّط الناس؟ ثم قرأ: ﴿۞قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ﴾».

وحُسْنُ الظَّن بالله قرينُ الرجاءِ به، وبوابة إلى حصول الخير، وتحَقُّق المطلوب، واجتناب الشرور ومواقع العَطَب، لذلك تجد في أحوال السلف من الإنابة إلى الله والإخبات له والخضوع والتواضع، ما لا تجدُه عند غيرهم، خصوصًا إذا عايَنُوا النَّزع والاحتضار؛ لأنهم بالرغم من صدقهم مع الله في حال الحياة، فإنهم في حال الرحيل يزدادون صِدقًا ويقينًا، ويطمعون بكَرَم الله سبحانه؛ لعلمهم أنه لم يبق لهم في هذه الحال إلا عظيم الرجاء به سبحانه.

لمَّا احتُضِرَ معاوية بن أبي سفيان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قيل له: «ألا تُوصي؟ فقال: اللهم أقِلِ

(١) رواه البخاري (٩٩٧)، ومسلم (٤٢٦).

العَثْرة، واعْفُ عن الزلَّة، وتجاوز بحِلْمِك عن جهلِ مَن لم يرجُ غيرَك، ثم قال:

هو الموتُ لا مَنجى من المَوتِ والذي نُحَاذِر بعد المَوت أدهَى وأفظَعُ»

ولما حضَرت عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الوفاة، قال: «اللهم أمَرتَنا فتَركنا، ونَهيتنا فركبنا، ولا يسَعُنا إلا مغفرتك، فلم يزل يُرَددها حتى مات».

ولما احتُضِر أبو حازم الأعرج، قيل له: كيف تجِدُك؟ قال: أجدني بخير، راجيًا لله، حَسَنَ الظن به، إنه واللهِ ما يستوي من غدَا أو راح يعمر الآخرة لنفسه، فيقدمها أمامه قبل أن ينزل به الموت، ومن غدا أو راح يعمر الدنيا لغَيره، ويرجع إلى الآخرة لا حَظَّ له فيها ولا نَصِيب».

وقال المُزَني: «دخلتُ على الشافعي في مرضه الذي مات فيه، فقلت: يا أبا عَبدِ الله، كيف أصبحت؟ فرفع رأسه، وقال: أصبَحتُ من الدنيا راحلًا، ولإخواني مُفَارِقًا، ولسُوءِ عَمَلي مُلاقيًا، وعلى الله واردًا، ما أدري رُوحي تصير إلى جنة فأهنيها، أو إلى نار فأعزيها، ثم بكى وأنشأ يقول:

ولما قَسَا قلبي وضاقت مَذَاهبي جعلتُ رجائي دون عفوكَ سُلَّمَا

تعاظَمَني ذنبي فلما قَرنْتُهُ بعَفوِك ربي كان عَفوُك أعظمَا

فما زلتَ ذَا عَفوٍ عن الذنب لم تَزل تجُود وتَعفُو مِنَّةً وتكَرُّمَا»

ومِن حُسن الظن بالله القائد إلى عظيم الرجاء به سبحانه: أن يقدِّم العبدُ بين يديه من الأعمال الصالحة، ما يرجو أن تكون سببًا في رضا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عنه، وألَّا يحتقر عمَلًا أراد به وجه الله مهما كان صغيرًا، وقد أشار النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى أعمال صغيرة في أعين الخَلق كانت سببًا في تحقيق السعادة الأبدية لأصحابها، ومن ذلك قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مَرَّ رجلٌ بغُصن شجرة على ظهر طريق،**

فقال: لأُنَحِّيَنَّ هذا عن طريق المُسلمين لا يُؤذِيهم، فأُدخِلَ الجنة»[١].

وقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**بينما رجُل يمشي بطريق اشتَدَّ به العطش، فوجد بئرًا فنزل فيها، فشرب ثم خرج، فإذا كلب يلهث؛ يأكل الثرى من العطش، فقال الرجل: لقد بلغ هذا الكلب من العطش مثل الذي كان بلغني، فنزل البئر فملأ خفيه، ثم أمسكها بفيه، فسقى الكلب، فشَكَر الله له، فغفر له**، قالوا: يا رسول الله، وإنَّ لنا في البهائم أجرًا؟ قال: **في كلِّ ذاتِ كبدٍ رطبةٍ أجر**»[٢].

وهكذا كان دأب السَّلف حيث يقدِّمون بين يدي رجائهم بالله وحسن ظنهم به، ما عملوه من الأعمال الصالحة مُبتَغِين بذلك وجه الله تعالى.

لمَّا احتُضِر أبو بكر بن عيَّاش بكى عليه ابنُه، فقال: «يا بُنَي، علام تبكي؟ والله ما أتى أبوك فاحشَةً قَط».

وقال عطاءُ بن السَّائب: «دخلنا على أبي عبد الرحمن السُّلَمي نعوده، فذهب بعضهم يرجِّيه، فقال: أنا أرجو ربي، وقد صمت له ثمانين رمضانًا».

وقال أحمد بن أبي الحَوَاري: «كنت أسمع وكيعًا يبتدئ قبل أن يحدث، فيقول: ما هنالك إلا عَفوه، ولا نعيش إلا في ستره، ولو كشف الغطاء، لكُشِف عن أمر عظيم».

وسُمِعَ شُعيبُ بن حربٍ يَعظ رجلًا فيقول: «إن دخلت القبر ومعك الإسلام، فأبشِر».

وأعظَمُ الرجاء ما يكون عند الموت، وتيقنِ الرحيل، وانقطاعِ الأسباب،

---

(١) رواه مسلم (١٩١٤).

(٢) رواه البخاري (٢٢٣٤)، ومسلم (٢٢٤٤).

ولم يبقَ إلا حُسن الظن به سبحانه، والطمع في رحمته وغُفرَانه، وقد دلَّ على ذلك قول رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لا يَمُوتن أحدُكُم إلا وهو يُحسِن الظن بالله**»[(١)]، وهذا يتضمن النهي أن يموت إلا في هذه الحالة، وهي حُسن الظن بالله تعالى، فيظن به سبحانه أنه يرحمه ويعفو عنه؛ لأنه إذا حضَرَ أجَلُه وحانت رحلته لم يبقَ لخَوفه معنى، بل يؤدي إلى القُنوط، فحُسن الظن وعظم الرجاء أحسن ما تزوده المؤمن لقُدومه على ربِّه[(٢)].

فإذا اجتمع له في هذا المقام رجاء رحمة الله مع خوفه مما اقتَرَفه من الذنوب، فقد فاز بالبشرى بالرحمة والغفران على لسان رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقد دخل رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على شابٍّ وهو بالموت فقال: «**كيف تجِدُك؟** قال: واللهِ يا رسول الله إني أرجو الله وإني أخاف ذنوبي، فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **لا يجتَمِعَان في قلب عبدٍ في مثل هذا المَوطِن إلا أعطاه الله ما يرجو وأمَّنَه مما يخَاف**»[(٣)]؛ أي: أعطاه ما يرجو من الرحمة، وأمَّنه مما يخاف من العقُوبَة.

○○○○○

(١) رواه البخاري (٢٢٣٤)، ومسلم (٢٨٧٧).
(٢) انظر: «فيض القدير» (٦/ ٤٥٥).
(٣) رواه الترمذي (١٠٠٤)، وهو صحيح، انظر: «صحيح الترغيب والترهيب» (٣٣٨٣).

الرفقُ كلُّه خير

إذا أراد الله بعَبدِه خيرًا وفَّقه للأخذِ بالرفق في أموره كلها، حتى تُصبح هذه الصفة طبيعةً وسَجِيَّة له.

فالمُعَامَلة بالهُونِ واللطف واللِّين نعمةٌ لها كبير الأثر في حياة الناس، وهِبَةٌ لا يُعطَاها إلا مُوَفَّق، وقد صَحَّ عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه قال: «**إذا أرادَ الله بأهل بيتٍ خيرًا أدخل عليهم الرِّفق**»(١).

فالرفق من أفضل الأخلاق، ووسيلة لكَسْب القلوب، وسبب إلى مَلئِها بالعاطفة، وطريق إلى جمع شَتَات الأمور، فالرفيق يصِلُ إلى مُبتَغاه بأيسر سبيل وأقصَرِ طريق.

ولذلك فقد كَثُرت الأدلة بالوصيَّة بالرفق، وحثَّت على الاتصافِ به، والتحذير مما يضادُّه من القسوة والعنف، قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إنَّ الله رفيقٌ يُحِب الرفق، ويُعطي على الرِّفق ما لا يُعطي على العنف وما لا يُعطي على مَا سِواه**»(٢).

فينبغي للمسلم المُوَفَّق أن يُدرِّب نفسه على هذه الخصلة الكريمة حتى تكون صفة مُلازِمة له، وأولى من ينبغي أن يتصف بها مَن أراد أن يدل الناس على الخير، ويحذرهم من الشر، خصوصًا في زمن كثرت فيه الشهوات والشبهات، وغاب

(١) رواه أحمد (٢٤٤٢٧)، وهو صحيح، انظر: «صحيح الترغيب والترهيب» (٢٦٦٧).
(٢) رواه مسلم (٢٥٩٣).

الوعي عند كثير من الأفراد، فمالوا إلى الدنيا ميلًا عظيمًا، وأعرَضُوا عن الآخرة، فيَحتَاجون إلى يدٍ حانيةٍ، وقلبٍ لطيف رقيق، يستشعر الرحمة تجاههم، فلا بدَّ أن يكون أمره ونَهيه برِفق، حتى تلين له القلوب، وتستجيب له العُقُول.

وقد كان النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَحُث أصحابَه ومَن حوله على الرفق، ويعمل به مع البعيد والقريب والعدو والصديق؛ لعِلمِه بعظيم أثره، فقد دخل رَهطٌ من اليهود على رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقالوا: السَّام عليك - أي: الموت- فقالت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «عَليكُم السام واللعنة، فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **مَهلًا يا عائشة، فإنَّ الله يحب الرفق في الأمر كله**، قالت: يا رسول الله، أوَلَم تسمع ما قالوا؟. فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **فقد قُلتُ: وعَلَيكُم**»[1].

فكم يحتاج المَرءُ إلى أن يتعامل مع الناس بمثل هذه الطريقة، فيتجاوز كثيرًا من العقبات من خلال الرفق في أول الأمر حتى يتم له ما يريد ولا يواجه ما يَكرَه، فقد قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إنَّ الرِّفق لا يَكُون في شيء إلا زانه، ولا يُنزَع من شيءٍ إلا شَانَه**»[2].

وكم من موقفٍ تعامل معه صاحبه بالرفق فأعقبه بعد ذلك خيرًا كثيرًا، وكم من الأمور التي تعامل معها أصحابها بالعنف والعجلة، فجَنوا على إثرها من المشكلات ما طال أمده وزاد ضَرَرُه.

لقد كان رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يرسل الدعاة إلى الآفاق فيأمرهم باللطف

---

(١) رواه البخاري (٥٦٧٨)، ومسلم (٢١٦٥).

(٢) رواه مسلم (٢٥٩٤).

واللِّين؛ حتى يكونُوا هُدَاة مهتدين، ومن ذلك قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**يَسِّروا ولا تُعسِّروا، وبَشِّروا ولا تُنَفِّروا**»(١)، وفي هذا أعظم الدلائل على الرفق مهما واجه الداعي من الناس، فيأخذهم بأيسر الطرق التي دلت عليها الشريعة، ولا يسلك بهم طريق المشقَّة والعُسر، ويبشر بكل خير بأجمل لفظ وأعذب فعل، ويتجنب التنفير الذي بوابته العنف والقسوة والتشديد على الناس بما لم يَرِد به دليل، ولا يُصَحِّحه عقلٌ سَليم.

إنَّ الرفق بالمُعَاملة من أعظم البوابات إلى القلوب، ودليل على أنَّ الله أراد بصاحبه خيرًا، ومن حُرِمَه فقد حُرِم بابًا عظيمًا من الخير، وهذا مِصدَاق قول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**من يُحرَم الرِّفق يُحرَم الخَير كُله**»(٢)، ومعنى ذلك أنه يُحرَم الخير الناتج عن هذا الرِّفق لو رفقَ بمَن أمامَه، وعليه فلا بُدَّ للمَرء أن يستشعر هذه الصفات الجَميلة التي أمرَت بها الشريعَةُ التي لا تأمُر إلا بكل خَير، ولا تنهى إلا عن كُل شَر.

والرِّفق يُنَمِّي المَشَاعر في قلوب الناس فيُصبِحُون أكثر استجابة، وأَوْلى الناس بالتعامل به أهل بيت المَرء من والد ووالدة وزوجة وأبناء، فيتعامل معهم بالصَّبر والأناة، والتجَاوز عن الأخطاء، والتغافُل وعدم التدقيق في كل شَارِدة وواردَة، فإنَّ المرء لن يحصُلَ له ما أمَّل من جميل الأثر إلا بكسب القلوب، وبوَّابةُ ذلك الرِّفق، **وممَّا يُعينُ عَليه**: أن يتذكر المرء حين تعامُلِه مع الناس أنه يخطئ كما يخطئون، ويَزِل كما يَزِلُّون، ولا بُدَّ من التقصير في جانب من جوانب

(١) رواه البخاري (٥٧٧٤)، ومسلم (١٧٣٢).
(٢) رواه مسلم (٢٥٩٢).

الحياة، وكما أنه يريد أن يعذروه عند الخطأ، فليُقَدم لهم العُذر عند الزَّلل.

وعلى المرء أن يكون رفيقًا بالخلق، رحيمًا بهم، وأن يكون غالب حاله وقاعدته في تعامله معهم أنه إذا لم يستطع أن يكسب شخصًا فلا يخسره، فإنَّ العاقل يعلم أنه في حياته المديدة سيلتقي بأفواج من البشر، أكثرهم لن يراه مرة أخرى، فلا يحرص أن يسجِّل له موقفًا في حياة كلِّ مَن مرَّ به ورأى منه مَوقفًا سلبيًا، فضلًا عمَّن لم يحصُل بينهما موقف أو احتكاك.

والسعيدُ المُوَفَّق أعظم التوفيق مَن إذا جعله الله في موقفٍ عالٍ على الخلق، ومنزلة أرفع منهم، أو وَلِيَ من أمرهم شيئًا، أن يكون رفيقًا بهم، وأشقى الخلق مَن عامَلَ الناسَ بالقسوة والحِدَّة والعنف والغِلظة، فباء بالخُسران في الدنيا والآخرة، فنفَرَ منه الخَلق، وضاقت عليه نفسُه، وجفَّت مشاعره، وعجز عن الوصول إلى قلبه، وتعسَّرت عليه أموره بتعسيره على الناس، أو تلذُّذه باستلاب حقوقهم، وأنين قلوبهم، مع ما ينتظره من الوعيد بين يدي الحَكَم العَدَل يوم يقوم الناسُ لرَبِّ العالمين، وفي ذلك يقولُ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**اللهُم مَن ولي من أمرِ هذه الأمة شيئًا فرَفَق بهم فارفق به، ومن ولي من أمر هذه الأمة شيئًا فشقَّ عليهم فاشقُق عليه**»[1]، فما ظنك بمن دعا له رسولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أو دعا عليه؟

وقد أخذ السلفُ بما عَهِد إليهم النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من الأمر بالرفق، وتعامَلُوا به مع الخلق؛ ليَقِينهم بأنَّ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لا يَدُل إلى على كل خير، ولا ينطق إلا بحَق، ولم يَرَوا تلك التوجيهات النبوية مجرد نصوص تُتلى، بل أتْبَعوها بالعمل، تعبُّدًا لله عَزَّوَجَلَّ بما يُحِب، واتباعًا لنبيِّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فيما أمر به من الخير ورغَّب

(١) رواه مسلم (١٨٢٨).

به، وفي ذلك يَقُول أبو الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «لا تُكَلِّفُوا النَّاسَ مَا لم يُكَلَّفُوا»، وقال أبو قِلابة رَحِمَهُ اللَّهُ: «دخل رجلٌ على سلمانَ الفارسي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وهو يعجن، فقال: ما هذا؟ فقال: بعثنا الخَادم في عمل فكَرِهنا أن نجمع عليه عَمَلَين».

وكان لعُمَر بن عبد العزيز غلامٌ يعمل على بَغلٍ له، يأتيه بدِرهَم كلَّ يوم، فجاء يومًا بدرهم ونصف، فقال: «ما بدَا لك؟ هل نفَقَت السوق؟ قال: لا.

قال: ولكنك أتعَبتَ البَغل، أرِحْه ثلاثة أيام».

وكما أنه مطلوب من المرء أن يكونَ رفيقًا في أموره كلها، وفي مُعَاملته مع الخَلق، فكذلك ينبغي له أن يكون رفيقًا بنفسه، فلا يُكَلفها ما لا تُطيق من البلاء، ولا يضطرها إلى ما فيه مَشقَّة وعَناء، فمن الخَطأ عند كثير من الناس أنه يُلجئ نفسه إلى العَنَت والمشَقَّة في تفكيره وبَدنه وبذل جهده للآخرين، مما يُسقِطه سريعًا ويجعله خائر القوى لا يُنتفع به، وقد قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إنَّ لنَفسِك عليك حقًّا، ولربك عليك حقًّا، ولأهلك عليك حقًّا، ولزَوْرِك** -أي: الزائر- **عليك حقًّا، فأعطِ كلَّ ذي حقٍّ حقَّه**»(١).

فالنفوس لها إقبالٌ وإدبار، ونشاط وكسَل، فلا بُدَّ للمرء أن يُراعي ذلك، ويسير على وفق خُطًا ثابتة مُتَّزنة، فمَن أدام الركض دون راحة، لم يحقق مُبتغاه، وسقط صريعًا قبل تحقيق هدفه.

وأعظم ما يقودُ إلى الرِّفق بالنَّفس: اليقينُ بعَطَاء الله، والإيمان بما قدَّره وقضَاه، وأنَّ المرء لن يرحَلَ عن هذه الدنيا إلا وقد استتَمَّ رِزقُه وأجَلُه، فلا كثرة السعي دون راحةٍ تُكثر الرزق فوق ما كتب الله، ولا تَرك ما يشق بالنفوس

(١) رواه أبو داود (١٣٦٩)، وهو صحيح، انظر: «صحيح الجامع الصغير» (٧٩٤٦).

سينقص الرزق، ولذلك قال النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ: «**أيهَا الناس، اتَّقوا الله وأجمِلُوا في الطلب، فإنَّ نَفسًا لن تموتَ حتى تستَوفِيَ رزقها وإن أبطأ عنها، فاتقوا الله وأجمِلُوا في الطلب، خُذوا ما حلَّ واترُكُوا ما حَرُم**»[1].

فالواجب على المرء أن يرحَمَ نفسَه ويرفق بها ولا يُهلكها، وليتفَكَّر كيف أنَّ الله عَزَّوَجَلَّ مع عظيم حقه على عباده لم يكلفهم بما لا يطيقون، وجعل شريعته حنيفية سَمحَة، ونَفَى عنها المَشقَّة والعَنَت، وفي هذا أعظم العِبَر والدروس على أنه لا ينبغي للمرء أن يقتل نفسه كمَدًا على أمر ربما لن يحصل له حتى مع زيادة الجهد الذي يُضعف قواه ويُشَتت عقله.

ولا يعني هذا أن يترك المرء الأسباب المُوصِلة إلى مصلحة دُنيوية له فيها نفع، ولكن هَذا تنبيهٌ له على أن يكون رفيقًا بأَوْلى مَن يكون رفيقًا به وهي نَفسُه، فيُمَتعها بما أحلَّ الله له، ويَبسُط عليها بما وسَّع الله عليه، ويَحذَر أن يُجهِدَها بما لا طاقة له به، فيضعف القلب، وينقطع به الدَّرب.

○○○○○

(١) رواه ابن ماجه (٢١١٤)، وهو صحيح، انظر: «صحيح الترغيب والترهيب» (١٦٩٨).

الصبر مفتاح الظفر

الدنيَا دار ابتلاء وكَرب، لا يُرجى منها راحة مهما طال العُمر، ومهما اجتمع للإنسان فيها من أسباب الراحَةِ والغِنَى.

ولو أن الإنسان عَرَف قَدرَ الدنيا وما طُبِعَت عليه من الكَدَر والأنكاد والمصائب والأحزان، وعرف أن ما فيها خِداع وسراب بِقِيعَةٍ يحسَبُه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئًا، لهَانَت عليه المصَائب وخفَّ وقعها؛ لأن هذا هو حال الدنيا.

طُبِعَت على كدَرٍ وأنت تُرِيدها صَفوًا من الأقذَاءِ والأكدَارِ؟

وما أجمَلَ أن يَعتبر المُسلِم بما حَولَه من الأحداث، ويَعلَم أنَّ الله في ذلك الحِكمَةَ البالغَة.

والواجب على من أُصِيب بمُصيبة أن يُعالجها بأعظم علاج وأنجحه، وهو الصَّبر، قال تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾﴾ [البقرة:١٥٥-١٥٧].

وقد مدَحَ الله تعالى الصبر في كتابه العزيز في مواضع كثيرة، وأمَرَ به وجعل أكثر الخيرات مُضَافةً إليه، وأثنى على فاعله، وكتب لمن اتَّصَف به الرِّيَادة والسَّبق إلى مَعَالي الصفات، قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُواْ﴾ [السجدة:٢٤]، وقال سبحانه: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِيٓ

﴿إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُواْ﴾ [الأعراف:١٣٧].

وقد ذَكَر الله سبحانه الصبر في كتابه العزيز في أكثر من سَبعين موضِعًا، وأمَرَ نَبِيَّه به، فقال تعالى: ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ﴾ [الأحقاف:٣٥].

والصبر سبب لتكفير الخَطَايا والسيئات، وقد أعظَمَ الله تعالى أجرَ من اتصَف به وادَّخر ثواب ذلك عنده سبحانه.

قال سُليمان بن القاسم: «كل عمَلٍ يُعرَفُ ثوابُه، إلا الصَّبر، فإنه كالماء المُنهَمِر، قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿١٠﴾﴾ [الزمر:١٠]».

وقال الحَسَن: «الصَّبر كنز من كنوز الخَير، لا يُعطيه الله إلا لعَبدٍ كريم عنده».

وقال عمر بن عبد العزيز: «ما أنعَمَ الله على عبدٍ نِعمة فانتزعها منه فعَاضَه مكانها الصبر إلا كان ما عوَّضه خيرًا مما انتزَعَه».

وقد كان الصَّالحون يصبرون على الشدة، ويحتَسِبُون الأجر؛ لِمَا في ذلك من تكفير السيئات ورفع الدرجات، والعافية لا يَعدِلُها شَيء، قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مَا يصيب المسلِمَ من نَصَبٍ ولا وصَبٍ ولا همٍّ ولا حَزَن، ولا أذى ولا غَم، حتى الشَّوكة يُشَاكها إلا حَطَّ الله بها من خطاياه**»(١).

وقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إذا أرادَ اللهُ بعَبدِه الخَيرَ عَجَّل له العُقُوبة في الدُّنيا، وإذا أرادَ الله بعَبدِه الشَّر أمسَك عنه بذنبه حتى يُوَافيَه به يوم القيامَة**»(٢).

وقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إن عِظَم الجَزَاء مع عِظَم البلاء، وإن الله إذا أحبَّ قومًا**

(١) رواه مسلم (٢٥٧٣).

(٢) رواه الترمذي (٢٥٥٨)، وهو صحيح، انظر: «صحيح الجامع الصغير» (٣٠٨).

ابتلاهم، فمَن رضي فله الرِّضا، ومن سَخِط فله السخط»[1].

وجاء عن علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه قال: «لا يخَافَنَّ أحدُكُم إلا ذَنبَه، ولا يرجوَنَّ إلا رَبَّه، ولا يستحي أحد منكم إذا سئل عن شيء وهو لا يعلم أن يقول: لا أعلم، واعلموا أن الصبر من الأمور بمَنزلة الرأس من الجسد، إذا فارق الرأسُ الجسدَ فسَدَ الجسد، وإذا فارق الصبر الأمورَ فسَدَت الأمور».

وقال عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «وجَدنا خير عَيشِنا بالصبر».

وقد كان النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أكثر الناس اتصافًا بالصبر؛ لعِلمِه بما جعل الله له من عظيم المنزلة؛ فعن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «بينما رسولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يصلي عند الكعبة، وأبو جهل وأصحابه جلوس، وقد نُحِرَت جَزُور بالأمس، فقال أبو جهل: أيُّكُم يقومُ إلى سلا الجَزُور فيُلقيه على كتِفَي محمد إذا سَجَد؟ فانبعَثَ أشقى القوم فأخذه وأتَى به، فلما سجدَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وضع بين كتفيه السَّلا والفرث والدم، فضحكوا ساعةً وأنا قائمٌ أنظر، فقلتُ: لو كان لي منَعَة لطرَحتُه عن ظهر رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، والنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ساجد ما يَرفَع رأسَه، حتى انطلق إنسان فأخبر فاطمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، فجاءت فطرَحته عن ظَهرِه، ثم أقبَلَت عليهم فسَبَّتهم، فلما قضى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الصلاةَ رفع يديه فدَعَا عليهم فقال: **اللهم عليكَ بقُرَيش** -ثلاث مرات- فلما سمِعَ القوم صوته ودعاءه ذهبَ الضحكُ وخافُوا دَعوَتَه، فقال: **اللهُم عليك بأبي جهل، وعُتبة، وشَيبة، ورَبيعَة، والوليد، وأمَيَّة بن خَلَف**. قال علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: والذي بعث محمدًا بالحق رأيتُ

(١) رواه الترمذي (٢٥٥٩)، وهو صحيح، انظر: «صحيح الجامع الصغير» (٢١١٠).

الذين سَمَّاهم صَرعى يوم بدر»[١].

ولمَّا دخل رسولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على ابنه إبراهيم وهو يجُود بنفسه فقبَّله وشَمَّه، وجعَلَت عيناه تذرفان، فقال له عبد الرحمن بن عوف رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «وأنت يا رسُول الله! فقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **يا ابن عَوف، إنها رحمَة**، ثم أتبَعَها بأخرى وقال: **إن العينَ تدمَع، والقلب يَحزَن، ولا نقولُ إلا ما يُرضِي ربنا، وإنَّا بفِراقَك يا إبراهيم لمَحزُونون**»[٢].

وقيل: إن امرأةَ أيوب عَلَيْهِ السَّلَامُ قالت: «لو دَعوتَ الله تعالى أن يَشفِيَك، فقال لها: ويحَكِ! كنا في النَّعماء سبعين عامًا، أفلا نصبر على الضرَّاء مثلها، فلم يَلبَث إلا يسيرًا حتى عُوفِي».

وقيل: «الصبر مفتاح الظَّفر، والتوكل على الله تعالى رسولُ النجاح».

وقيل: «من لم يَلقَ نوائِبَ الدهر بالصَّبر طال عَتبُه عَلَيه».

وجاء عن مُعَاوية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه خرَجَ يومًا ومعه عبد العزيز بن زُرَارة الكلبي، وكان ذا منصبٍ وشَرَف وعقل وأدب، فقال له معاوية: «يا عبد العزيز، أتاني نعي سيدِ شباب العرب، فقال له: ابني أو ابنك؟ قال: لا، بل ابنك، قال: للموتِ تلِدُ الوالدَة».

و مما قيل: «اصبِر لحُكم من لا تجِد مُعوَّلًا إلا عليه، ولا مَفزَعًا إلا إليه».

فالواجب على العبد: أن يصبر على ما يُصيبه من الشدة، ويحمَد الله، ويعلم أن النصر قرينُ الصَّبر، كما قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**واعلم أنَّ النصر مع الصبر**»[٣]، وأن مع

(١) رواه البخاري (٤٩٨)، ومسلم (١٧٩٤).
(٢) رواه البخاري (١٢٤١)، ومسلم (٢٣١٥).
(٣) رواه أحمد (٢٨٠٣)، وهو صحيح، انظر: «سلسلة الأحاديث الصحيحة» (٢٣٨٢).

العُسر يُسرًا، وأن المصائب والرزايا إذا توالت أعقبها الفرج والفرح عاجلًا.

ومن أحسَن ما قيل في ذلك:

وإذا مسَّك الزمانُ بضرٍّ ... عَظُمت دونَه الخطوبُ وجَلَّتْ

وأتَت بعدَه نوائبُ أخرى ... سَئِمَت نفسُك الحياةَ ومَلَّتْ

فاصطَبِر وانتظر بلوغَ الأمَانِي ... فالرزَايَا إذا توَالَت تَوَلَّتْ

وقد اتصف قوم بالصبر على ما ابتُلُوا به حتى أصبَحَ الصبر خُلُقًا لهم، وما دفعهم لذلك إلا نظر صديق أو مَخَافة شَماتة عدو، قيل: إن رجلًا كان يُضرَب بالسياط، ويُجلَد جلدًا بليغًا، فيصبر ولا يتكلم ولا يتَأوَّه، فقيل له: أَمَا يُؤلمك هذا الضرب الشديد؟ قال: بلى. قيل: ولِمَ لا تَصيح؟ فقال: إنَّ في هؤلاء القوم الذين وقفوا عليَّ صديقًا لي يعتَقِد فِيَّ الشجاعة والجَلادة، وهو يرقُبني بعينه، فأخشى إن ضَجيت يذهب ماء وجهي عنده، ويَسُوء ظنه بي، فأنا أصبر على شدة الضرب وأحتمله لأجل ذلك.

وإنَّ امرأً قد جرَّب الدَّهر لم يَخَف ... تقَلُّب عصريه لَغَيرُ لَبيبِ

وما الدهرُ والأيام إلا كمَا تَرى ... رزيَّة مالٍ أو فِراقُ حبيبِ

وإنَّ مما يُسَلي عن المُصيبة ويُهوِّنها، ويجلب الصبر بإذن الله: العلم بأنَّ تشديد البلاء يَخُص الأخيار، ولذلك قال النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أشدُّ الناس بلاء الأنبيَاء ثم الأمثل فالأمثل، يُبتَلَى الرجل على حَسَب دينه، فإن كان صُلبًا في دِينه اشتد بلاؤه، وإن كان في دِينه رِقَّة هُوِّن عليه**»[1].

(١) رواه ابن ماجه (٤٠٢٣)، وهو صحيح، انظر: «صحيح الترغيب والترهيب» (٣٤٠١).

ومما يُعَالِجُ به المَرءُ المصَائبَ: الرضَا بقضاء الله عَزَّوَجَلَّ وقَدَره، والاستعانةُ بالله سبحانه فيما أصابه من المَصَائب بدعائه والتضرع إليه بأن يُثَبِّت قَلبَه وأن يقوِّي يقينه؛ لأنَّ قوة الإيمان بالله وقضائه وقدره تُثمِر الطمأنينة بما قضى الله تعالى.

ومما يُخَفف عن المُصَاب أن يعلم أن المُصيبَة ثابتة لا قُدرة له بتغييرها، وأن يقدر وجود ما هو أكبر منها.

ومما يُسَلي المرء ويُهَون عليه: أن ينظر في حال مَن ابتُلي بمثل بَلائه؛ فإن التأسي بالآخرين راحة عظيمة تُخَفف الحزن، ولذلك قيل:

ولَولا الأسى ما عِشتُ في الناسِ سَاعةً ولكِـن متَـى ناديـتُ جاوبَنـي مِثْلِـي

وذُكِر عن أبي جعفر المنصور أنه كان في زمن شَبيبته قد سكَن الموصل وهو فقير لا شيء له ولا معه، فأجَّر نفسَه من بعض المَلاحين حتى اكتسب شيئًا تزوج به امرأة، ثم جعل يَعِدُها ويُمَنِّيها أنه من بيتٍ سيصير إليهم المُلك سريعًا، فحَمَلت منه، ثم طلبه بنو أميَّة فهرب عنها وتركها حاملًا، ووضع عندها رقعة فيها نَسبُه: أنه عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس، وأمرَهَا إذا بلغها أمرُه أن تأتِيَه، وإذا ولَدَت غلامًا أن تُسَميه جعفرًا، فولدت غلامًا فسَمَّته جعفرًا، ثم آل الأمر إلى بني العباس، فسألَت عن السفَّاح، فإذا هو ليس صاحبها، ولَمَّا آل أمر الخِلافة إلى المنصُور، وافَق ذلك أن سافر الولدُ إلى بغداد، فاختلط بكُتَّاب الرسائل، فأُعجِبَ به أبو أيوب المورياني صاحب ديوان الإنشاء للمنصور، وحَظِي عنده وقدَّمه على غيره، فاتفق حضورُه معه بين يدي الخَليفَة، فجعل الخليفةُ يُلاحظه، ثم بعثَ يومًا الخادم ليأتيه بكاتب، فدخل ومعه ذلك

الغلام، فكتب بين يدي الخليفة كتابًا، وجعل الخليفةُ ينظر إليه ويتأمله، ثم سأله عن اسمِهِ فأخبره أنه جعفر، فقال: ابن مَن؟ فسكَتَ الغلام، فقال: ما لك لا تتكَلَّم؟ فقال: يا أمير المؤمنين، إنَّ من خَبَري كيت وكيت، فتغير وجه الخليفة، ثم سأله عن أمِّه فأخبره، وسأله عن أحوال بلد الموصل، فجعل يُخبِره والغلام يتعَجَّب، ثم قام إليه الخليفة فاحتضنه، وقال: أنت ابني، ثمَّ بعثه بعقد ثَمين ومال جزيل وكتاب إلى أمِّه يُعلِمُها بحقيقة حال الزوج.

ثم خرج الغلامُ ومعه ذلك من باب الخَليفة، وجاء إلى أبي أيوب، فقال: ما أبطأ بك عند الخليفة؟ فقال: إنه استكتَبني في رسائل كثيرة، ثم حصل بينهما كلام، ثم فارَقَه الغلام مُغضبًا ونَهَض من فوره، وسار إلى الموصل ليُعلِمَ أمَّه ويحملها إلى مكانٍ أمر به الخليفة، ثم سأل عنه أبو أيوب، فقيل: سافر، فظن أبو أيوب أنَّ هذا قد أفشَى شيئًا من أسراره إلى الخَليفَة وفَرَّ منه، فبَعث في طَلَبِه رسولًا وقال: حيثُ وجدته فرُدَّه عليَّ، فسار الرسولُ في طلبه فوجده في بعض المنازل فخنَقَه وألقاه في بئر، وأخذ ما كان معه، فرجع به إلى أبي أيوب، فلما وقف أبو أيوب على الكتاب أُسقِط في يَدِه ونَدِم على بعثه خلفه، وانتظر الخليفَةُ عودَ ولده إليه واستبطأه، فبعث مَن كشَف خبره، فإذا رسولُ أبي أيوب قد لحِقَه وقتله، فحينئذٍ استحضر الخليفة أبا أيوب وألزمه بأموال عظيمة، وما زال تحت العُقوبة حتى استصفَى جميع أمواله ثم قَتَله، وقال: هذا قتَلَ حبيبي، وكان المنصور كلما ذكر ولدَهُ حَزن عليه حُزنًا شديدًا.

وكان صِلةُ بنُ أشيم في غَزاة ومعه ابنه، فقال له: أي بني، تقَدَّم فقاتل حتى أحتسبك، فحمل فقاتل حتى قُتِل، ثم تقَدَّم صِلة فقَاتَل حتى قُتل.

وعلى المُسلم أن يعلم أن ممَّا يُخَفف مصيبته أن يتفَكَّر ويعتبر فيمن هو أعظمُ مصيبة منه؛ فقد قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**انظُروا إلى مَن هو أسفل منكم، ولا تنظروا إلى من هو فَوقَكم؛ فهو أجدَرُ ألَّا تَزدَرُوا نعمَةَ الله عليكم**»(١).

نسأل الله أن يجعَلَنا من الشاكرين الصابرين الذاكرين، الأوَّابين المُستَغفرين.

○○○○○

(١) رواه مسلم (٢٩٦٣).

الظلم ظلمات

الظلمُ من أكثر الصفات بَشاعة، وأشدها فظاعة، له وقع في النفوس، وحَرارة في القلوب، ولا يتصف به إلا مَن نَزَع الله الرحمةَ من قلبه، فإذ به يتنَعَّم في عيشه بالرغم من سُوء صَنيعه، ويتلَذَّذ في حياته، وكأنه لم يَجنِ على أحَدٍ، حتى ألِف الشَّر، وإذ به يحملُ قلبًا مظلمًا لا يدخله نور، ويظن أنه قد نال ما يُريد، وفاز بما يسعى إليه، وقد وقفَ المظلوم يتجَرَّع الحسرات، ويصرخ بالآهات، ولا يزال يُرَاقب الظالم من طَرف خفي، رجاء أن تحلَّ به مصيبة تُردِيه، أو فاجعة تَشفِي غليله، وتُطفئ نار القهر التي أشعَلَت قلبه، وضيَّقَت عيشه، وأغلَقَت عَقلَه فلم يَعُد قادرًا على إعمال فِكرِه سوى بالظالم وما جَنَاه عليه.

ولشنَاعة الظلم وعظيم جَريرَته فقد حَرَّمه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ على نفسه كما حرَّمه على عبَاده، فقد جاء في حديث النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه قال: «**قالَ الله تعَالى: يا عبَادي، إني حرَّمتُ الظلم على نفسي وجَعلتُه بينكم مُحَرَّمًا فلا تظالموا**»(١).

وحَذَّر منه سبحانه أشد تحذير، ورَتَّب عليه من الإثم العظيم ما يجعل المَرءَ خائفًا وجِلًا من ارتكابه والوقُوع في حبَائِله أو السَّير في ركَابِه، وأنَّ مَن عمل به ليس له من الله ناصِر ولا عَاصِم، كما قال تعالى: ﴿وَٱلظَّٰلِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٨﴾﴾ [الشورى:٨]، وقال تعالى: ﴿وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٢٧٠﴾﴾ [البقرة:٢٧٠]، وقال سبحانه: ﴿مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴿١٨﴾﴾ [غافر:١٨].

---

(١) رواه مسلم (٢٥٧٧).

وقد كان من دعَاء النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ استعاذته بالله أن يقَعَ منه الظلم أو أن يقع به، فيقول: «**اللهم إني أعوذُ بكَ أن أضِل أو أُضل، أو أَزِل أو أُزَل، أو أَظلِم أو أُظْلَم...**»(١).

وجاء على لسانه من التحذير من الظلم ما يتَّعظُ به كل ذي قلبٍ حَي، وعَقل سَوي، فقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**اتَّقِ دَعوَة المظلوم فإنَّه ليس بينها وبينَ الله حِجَاب**»(٢).

وقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**الظلم ظُلمَات يوم القيامة**»(٣)، فيقع الظالمُ في ظُلمات الشدائد والأنكال والعُقوبات، فإذا جاء يوم القيامة أصابته عاقبَةُ ظُلمه، فأظلم عليه الصِّراط ولم يهتد إلى السبيل، حين يكون نور المؤمنين بين أيديهم وبأيمَانِهم، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٢﴾﴾ [الحديد:١٢].

ومن عَوَاقب الظلم الوخيمة التي تُشعِرُ بكَبير خَطَره: تعجيل عقوبَة الظالم في الدنيا مع ما يُدَّخَر له من العقوبة حين القُدوم على الله، قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**كلُّ ذنُوبٍ يُؤخِّر الله منها ما شَاء إلى يوم القيَامَة إلا البَغي، وعقوق الوالدَيْن، أو قطيعة الرَّحم، يُعَجِّل لصَاحبها في الدنيا قبل المَوت**»(٤).

وحَرِيٌّ بكُلِّ مَن تطرُق سمعَه هذه النصوص أن يَشعُرَ بالخوف أن يكون من أهلِ هذه الخَصلَة الدَّنيئة.

---

(١) رواه ابن ماجه (٣٨٨٤)، وهو صحيح، انظر: «صحيح الجامع الصغير» (٤٧٠٩).

(٢) رواه البخاري (١٤٢٥)، ومسلم (١٩).

(٣) رواه البخاري (٢٣١٥)، ومسلم (٢٥٧٨).

(٤) رواه البخاري في «الأدب المفرد» (٤٦٠)، وهو صحيح، انظر: «صحيح الأدب المفرد» (٥٩١).

وقد حَذَّر الله عَزَّوَجَلَّ من الركونِ للظَّلَمة والمَيل إليهم فقال تعَالى: ﴿وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿١١٣﴾﴾ [هود:١١٣]، وفي هذا أعظم التَّحذير من مُوَافقة الظالم على ظُلمِه والرضَا بفِعله، فيكون مَصير مَن فعل هذا النار، ولا يجد له وليًّا يمنَعُه من عذاب الله أو ينصره، فإذا كان هذا حال مَن رَكَن إلى الظالم ومَالَ إليه، فكيفَ بحالِ الظالم الذي بَغَى على العبَاد وتجاوزَ الحَدَّ؟!

وقد اغتَرَّ قومٌ من الظَّلَمة بتأخُّر العقوبة حتى ظَنُّوا أن الله قد ترَكَهم بلا مُؤَاخذة، ولم يعلَمُوا أنهم قد مُكِر بهم، حتى إذا وقَعَ بهم العذاب كان على أشَدِّه صورةً، وأعظَمِه وَقْعًا، قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٤٢﴾﴾ [إبراهيم:٤٢].

ومع ما في هذه الآية من التهديد والوعيد الشَّديد للظالم، ففيها تسليَةٌ للمَظلوم والوعد بنَصرِه، وأنَّ الله ليس بغافل عمَّن ظلَمَه، وقد قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إنَّ الله ليُملي للظالم حتى إذا أخذَه لم يُفلِته**»(١)، وهذا مما يدل على أنَّ الظالم إن أَمهَله الله ولم يَزَل قائمًا على ظُلمه مُستمرًّا عليه، فإنَّ عقوبَتَهُ ستكونُ أشد، والنكاية به أعظَم، والفَتْك به أكْبَر.

وإذا وقعت العُقوبة بالظالم ففي هذا شفاء صدور المؤمنين وذَهاب غيظ قلوبهم، فإنه لا يُخَفِّف عن المظلوم وتُسَرُّ به نفسُه مثل أن يرَى العقوبة وقد وقَعَت بالظالم، فقد قِيلَ: «إنما تَندَمل من المَظلُوم جراحُه إذا انكسَرَ من الظالم جنَاحُه».

---

(١) رواه البخاري (٤٤٠٩)، ومسلم (٢٥٨٣).

فإن كان المَظلُوم قد اقتَصَّ بنفسه ففي ذلك أعظَمُ السرور والرَّاحة له، ففي غزوة بدر نزَلَت الملائكة مُنَاصِرين للمؤمنين، ومع ذلك جعل الله قتلَ صَنَاديد المشركين على أيدِي المسلمين الذين كانوا يَستَضعِفُونهم في مكة ويَمسُّونَهُم بأنواع البأس والعذاب، فكان في ذلك شِفاءٌ لصُدور المؤمنين، وذهابٌ لغَيظهم، كمَا قال تعالى: ﴿وَيَشۡفِ صُدُورَ قَوۡمٖ مُّؤۡمِنِينَ ١٤ وَيُذۡهِبۡ غَيۡظَ قُلُوبِهِمۡۗ﴾ [التوبة:١٤-١٥].

وإن لم يستطع المَظلُوم أن يستَوفِيَ حقَّه بنفسه بسبب عجزه وضعفه ثم رأى ما يحِلُّ بالظالم من العُقوبات، أيقَنَ بعَدل الله وتحقُّقِ وعدِه بالانتصار له من الظالم، فارتاح قلبُه واطمأنت نفسُه، وحَمِد الله على تمام فَضلِه.

وفي النصوص الواردة في استجابة الدعَاء على الظالم ما يُخيفُ المرء أن يقع في الظلم أيًّا كان نوعه، لا سيَّما ما تضَمَّن القسَمَ من الله عَزَّوَجَلَّ بنُصرة المظلوم وإغاثته، فقد جاء عن النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ أنه قال: «**اتَّقوا دعوَةَ المظلوم؛ فإنها تُحمَلُ على الغَمَام، يقول الله: وعزَّتي وجلالي لأنصرَنَّك ولو بَعدَ حِين**»(١).

فمن يستَمع لمثل هذه النصوص وما فيها من التخويف، كيفَ يهنَأ له عيشٌ أن يَبيتَ ظَالمًا؟!

وقد يدعو المظلومُ على الظالم فلا يَرَى أثر دعائه عليه، فالواجبُ ألَّا يتطرَّقَ إلى قلبه شكٌّ في حِكمَة الله سبحانه وتمام عدله، ولعلَّ الله سبحانه يريد أن يدَّخر للظالم من العذاب أضعاف ما يكون في هذه الدنيا، وقد قيل لعُمَر رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ: «كان

(١) رواه الطبراني في «الأوسط» (٣٧١٨)، وهو صحيح، انظر: «صحيح الترغيب والترهيب» (٢٢٣٠).

الرجل في الجاهلية يُظلَم فيدعو على مَن ظلَمَه فيُجَاب عاجلًا، ولا نرى ذلك في الإسلام! قال: كان هذا جزَاء بينهم وبينَ الظلم، وإنَّ موعِدَكم الآن الساعة، والساعةُ أدهى وأمَرُّ».

والظلم مُمحِق للبركات، ومُؤذِن بخراب البيوت والمساكن بعد عمرَانِها، فبينما الظالم متنَعِّم بما حصل له من الكَسب بسبب ظُلمه، وبينما هو مستمتع به غافل عمَّا أُعِدَّ له، إذ جاءته العقوبة، فكأنه لم يستمتع بعيش ولم تَحصُل له نِعمَة، قال تعالى: ﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا﴾ [النمل:٥٢].

وقد سمع ابنُ عبَّاس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كعبَ الأحبار وهو يقول: «مَن ظَلَم خَرِبَ بَيتُه، فقال: تصديقُه في القرآن: ﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا﴾».

وفي ذلك قولُ بعضِ السَّلف: «الظلم أدعَى شيءٍ لتغيير نِعمَة، وتعجيلِ نِقمَة».

وقد ترَفَّعت النفوسُ الكريمة عن مُقارفة الظلم والتعامُل به؛ لعِلمِهم أنَّ هذه الصفة لا يتصفُ بها إلا مَن تدنَّت مَنزِلته وضَعُفت نفسُه وقسَا قلبه، وكان السلف أبعد ما يكونون عن ظلم ضعيفٍ لا يجِدُ له ناصرًا إلا الله، ويخَافُون القيامَ بين يدَي الله عَزَّوَجَلَّ وقد ظلموا أحدًا من الخَلق، فصار ذلك حائلًا بينهم وبين الظلم، فلم يَلِجُوا ذلك الباب؛ فكان ذلك سَببًا في نجاتهم.

قال معاويةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «إنِّي لأستحي أن أظلِمَ من لا أجِدُ له ناصرًا عليَّ إلا الله»، وقال أبو الدَّرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «إنَّ أبغض الناس إليَّ أن أَظْلِم: مَن لم يَستعن عليَّ إلا بالله»، وكتب عمر بن عبد العزيز رَحِمَهُ اللَّهُ إلى عَامِل له: «إذا دَعَتك قُدرَتُك على ظُلم الناس، فاذكُر قُدرةَ الله عَليكَ».

ودخل رجلٌ على سليمان بن عبد المَلك فقال: «اذكُر يا أمير المؤمنين يومَ الأذان. قال: وما يوم الأذان؟ قال: اليَوم الذي قال الله تعالى فيه: ﴿فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌۢ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾﴾ [الأعراف:٤٤]، فبَكَى سليمان وأزال ظلامَتَه».

وقال بعضُهم: «دَعوتَان أرجو إحدَاهُما وأخاف الأخرى، دعوة مظلوم أعَنتُه وضعيف ظَلمتُه».

وكان بعضُهم يقول: «إذا ظَلَمتَ مَن دُونك عاقَبَك مَن فَوقَك».

ومن أجل ذلك فقد كانوا يتحَرَّون العدلَ، وربما تنازل بعضُهم عن حقِّه ورضي بما يَحدُث له من الظلم والنقص حتى لا يقع في أمر مُلتَبس عليه، وخوفًا مِن أن تكون مطالبَتُه بحقه ظُلمًا وهو على غير ذلك، وهذا من تمام عقولهم، وطمعًا بما عند الله سبحانه من الأجر والمَثُوبة، وكانوا يقولون: «مَن عَمِل بالعدل فيمن دُونه رُزِق العَدلَ ممَّن فوقه»، وقال الأحنَفُ بن قَيس: «كَم جَرعة من الظُّلم تجَرَّعتُها مَخَافة ما هو أعظَمُ منها».

ومما يجِبُ الحَذَر منه: أن يكون المَرء مُعينًا للظَّلَمَة على ظُلمِهم، لطَلب جاهٍ أو مَنزِلة عندهم، وقد أهلَكَ هذا الفِعلُ أقوامًا، حيث طلَبُوا رضا المَخلُوقين بسَخط الله سبحانه، فوقَعُوا في شَرِّ أعمالهم، وسلَّط الله عليهم مَن ظلَمُوا الناس لأجله، وأعانوه على ظُلمِه.

قال بعضُ خلفاء بني العباس لأحدِ وُلاتِه: «لا تَظلِم لي فيُسَلطني الله عليك».

وقال ابنُ عبَّاس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «ليسَ للظالم عَهدٌ، فإن عاهَدتَه فانقُضْه، فإن الله تعالى يَقُول: ﴿لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٢٤﴾﴾ [البقرة:١٢٤]».

فالظُّلم جِنَاية عظيمة، وتَعَدٍّ على حُقوق العِباد، يتجرع المظلوم بسببه القَهرَ

والألم، وقد تقَحَّم بعضُ الأشقياء هذا الباب الخطير، فلم ينالُوا عزًّا، ولم يَبقَ لهم ذِكر، بل سُرعان ما عاجَلتهم العُقوبة، ﴿فَمَا بَكَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَا كَانُواْ مُنظَرِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [الدخان:٢٩].

والسلامة لا يَعدِلُها شيء، والسعيدُ مَن غادر هذه الدنيا وهو خفيفُ الحِمل من آثام الناس، فلم يَسلُب مالًا، ولم يتَعَدَّ على عِرض، فتُعجَّل له العقوبة في الدنيا، مع ما ينتظره في الآخرة من الوعيدِ والعَذَاب الشديد، ما لم يصرف الله عَزَّوَجَلَّ عنه عقوبَة ذلك، بسبب توبة وخَلاصٍ من مَظَالم العباد، أو عَمل صالح.

ومَن وفِّق للسَّلامة من الآفات، فقد أعظَمَ الله له الهِبَات.

○○○○○

تبدُّل الأزمان

العاقلُ لا يأمنُ المُتَغيرات ومفاجأة الأحداث، ولذلك فالواجب عليه أن يكون دائمَ الشكر لله رب العالمين على ما أحدَثَه له من النِّعَم، وأن يخاف تغيُّر الأحوال إلى النقص بعد التمام، وإلى الخَلَل بعد الكمال، وأن يحذَرَ أشدَّ الحذر أن يكفُرَ نِعمَةَ الله فتنفر عنه، وحَرِيٌّ بها إن نَفَرت ألَّا تعود، ولنا في رسول الله ﷺ أسوة حسنة، فقد كان من دعائه ﷺ قوله: «**اللهُمَّ إني أعوذُ بك من زوال نِعمَتك، وتَحَوُّل عافيتك، وفُجَاءة نقمتك، وجميع سخَطِك**»(١).

فهذه الدنيا لا تدوم على حال، ولا يستقر لها قرار، تتزين بين يدي الخُطَّاب، حتى إذا تعَلَّقوا بها أدبرت عنهم وسامَتهُم سوء العذاب.

قال ابن عبَّاس رضي الله عنهما: «ما مِن قومٍ قالَ لهم الناس: طُوبى، إلا خبَّأ لهم الدهرُ يومًا يَسوءهم»، وقال عبد الله بن مَسعُود رضي الله عنه: «لِكُل فرحةٍ تَرحةٌ، وما من بيتٍ مُلِئ فرحًا إلا مُلئ ترَحًا»، وقال سعيدُ بن أبي بُردة: «ما يُنتظر من الدنيا إلا كل مُحزِن أو فتنةٌ تُنتَظر».

ولما تُوفِّي أيوبُ ابنُ الخليفة الأموي سليمان بن عبد الملك اشتد جزعه عليه، فأتاه المُعَزُّون من الآفاق، فقام إليه رجلٌ منهم، فقال له مُعَزيًا ومُسَليًا: «إن امرأً حدَّث نفسَه بالبقاء في الدنيا، ثم ظن أن المَصَائب لا تُصيبه فيها لَغَيْر جيِّد الرأي».

---

(١) رواه مسلم (٢٧٣٩).

ومِن أشد الأمُور وقعًا على نُفُوس الخَلق: حين تُقبِل عليهم الدنيا وقد حصَلُوا منها على ما لم يكن يخطر لهم على بال، فلما أصبَحُوا فإذ بهم وقد صار أقلُّ ما يريدونه منها صَعبَ المَنال، وحرِيٌّ بها أن تتقلب أمورها ويعود ما حصل عليه المرء من الكمال إلى الاضمحلال، وفي ذلك يقول الصادق المَصدُوق صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**حقٌّ على الله ما ارتفع شيء من الدنيا إلا وضَعَه**»(١).

ومَن قَلَّب صفحات الماضي، ورأى ما حلَّ بالسابقين مِن ذَهَاب الدنيا من أيديهم بعد أن حَصَلوا منها على عظيم المَلذَّات من الجاه والمُلك والمال، رأى في ذلك أعظَمَ العِبَر والعِظَات، وكان متأهبًا للأخطار والمتغيرات، فهذه الدنيا مَطبُوعة على الكَدَر، وسريعة التقلب والغِيَر، والعاقل من كان منها على حَذَر، فإن أقبَلَت وأصابه الخير شكر، وإن أدبَرَت وحلَّ به الضرُّ صبر، **وفي قَصَص الماضين أعظم شاهد**:

كان النعمانُ بن المنذر ملك الحيرة ممن لا يخفى ذِكرُه، ولا تُجهل سيرته، حيث بُسِط له المُلك العظيم، ودانت له النَّواحي والأقاليم، وكان من أكثر الملوك بَسطَة وقوة، فلما شاء الله سبحانه زالَ مُلكُه، وانهارت مَملَكتُه، فعاد أمرُهُ إلى هوان، وربحُه إلى خُسران، وصارع أهلُه ذُلَّ العيش بعد أن أقاموا بالنعيم الذي لا مثيل له ردحًا من الزمان، وقد غفَلُوا عن دورات الزمان وتقلباته، وما دار في خَلَدهم أن يعود أمرهم إلى أسوأ حال.

لمَّا دَخَلت هند بنت النعمان بن المُنذِر على مُعَاوية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال لها: أخبِريني عن حالِكُم، كيف كانت؟ قالت: أطيل أم أقَصِّر؟ قال: لا، بل قَصِّري،

(١) رواه البخاري (٢٧١٧).

فقالت: أمسَينا مساء وليس في العَرب أحَدٌ إلا وهو يَرغَب إلينا، ويرهَبُ منا، فأصبحنا صباحًا وليس في العَرَب أحد إلا ونحن نرغبُ إليه، ونرهَبُ منه.

وجاء إسحاقُ بن طلحة بن عُبَيد الله إلى هند بنت النعمَان بن المُنذِر فقال: أتيتك لتخبرينا عن مُلكِك، ومُلك أهل بيتك، قالت: لقد رأيتُنا ونحن من أعَزِّ الناس وأشَدِّه مُلكًا، ثم ما غابت الشمسُ حتى رأيتُنا من أذَلِّ الناس، وإني أخبرك أنه حقٌّ على الله ألّا يملأ دارًا حَبْرة -أي: غِبطةً وسرورًا- إلا ملأها عَبْرَة.

ولما جاء مسقلةُ بن هُبَيرة بمال كثير من أصبهان، لقي ابنةَ النعمان، فلما رأته بكت، فقال: ما يبكيكِ؟، ألم نُحسِن عطاءكِ؟ قالت: بلى، ولكني بكيت في غير ذلك، قال: ذَكَرتِ مُلك أبيك وما كنتِ فيه؟ قالت: لا، قال: فما يبكيكِ؟ قالت: لِما أرى بك من الحَبْرة، وليس من حَبْرة إلا ستتبَعُها عَبْرَة.

وقد كان العقلاء يتَأمَّلون ذلك، ويَقدِرُون الأمر قَدْرَه، ويعلمون أنَّ دوام الحال من المُحَال، ولذلك لما دخل عبد الملك بن مروان قصر الكوفة، أمر بطعام كثير فعُمل لأهلها، فأكلوا من سِمَاطه، ثمَّ قال: ما ألذَّ عيشنَا لو أنَّ شيئًا يدوم، ولكن نحن كما قال الأول:

وكـلُّ جَديـدٍ يـا أُمَـيمُ إلـى بِلـى وكـلُّ امـرئٍ يـومًا يـصيرُ إِلَـى كَـانَ

ولمَّا سقَطَت دولةُ بني أمية، جلس مروان بن محمد -وهو آخِرُ حُكَّامها- يومًا وقد أحيط به، وعلى رأسه خادم له قائم، فقال مروان يومًا لبعض مَن يُخَاطبه: ألا ترى ما نحنُ فيه؟ لَهْفي على أيدٍ ما ذُكِرت، ونِعَمٍ ما شُكِرَت، ودولة ما نُصِرَت.

فقال له الخَادِم: يا أمير المؤمنين، مَن تَرَك القليلَ حتى يَكثُر، والصغيرَ حتى

يكبر، والخفيَّ حتى يظهر، وأخَّر فِعلَ اليوم لغَد، حلَّ به أكثر من هذا.

فقال مروان: هذا القول أشدُّ عليَّ مِن فَقْدِ الخِلافَة.

وفي زمن الدولة العباسية كان عليُّ بن عيسى وزيرًا للخليفةِ المقتدرِ فعَزَله عن الوزارة ، ثمَّ إنه دعاه مرة أخرى من دمشق إلى بغداد ليُعيدَ تَوزيره، فتلقاه الناسُ أثناء الطريق، وجاءوا إليه من كل فَجٍّ عَميق، وحين دخل على الخليفة المُقتَدر خاطبه الخليفة فأحسَنَ مخاطبته، ثم انصرف إلى منزله، فبَعث وراءه بالفُرُش والقماش وعشرين ألف دينار، واستدعاه من الغد، فوزَّره، فأنشد حينذَاكَ قائلًا:

ما الناسُ إلا معَ الدنيَا وصَاحبِها ... فكيفَما انقَلَبَت يومًا به انقلَبُوا

يُعَظِّمون أخَا الدُّنيا فإن وَثَبت ... يومًا عَليه بمَا لا يشتَهِي وثَبُوا

ولما سُجنَ يحيى بن خالد البَرمكي وبعضُ بنيه أيام هارون الرشيد، وكان من وزراء الدولة العبَّاسية، قال له بعضُ بَنيه وهم في السجن والقيُود: يا أبت، بعد الأمر والنهي والنِّعمة صِرْنا إلى هذا الحَال!. فقال: يا بُنَي، دعوة مظلوم سَرَت بليل ونحن عنها غافلون، ولم يَغفَل اللهُ عنها، ثم أنشأ يَقُول:

رُبَّ قَومٍ قد غدَوا في نعمَة ... زمنًا والدهرُ ريانٌ غَدقْ

سكَت الدَّهرُ زمانًا عَنهُمُ ... ثُم أبكَاهُم دمًا حِينَ نَطَقْ

ومما قاله الفَضلُ بن يحيى البَرْمَكي في سجنِهِ:

إلى اللَّه فيما نَالنَا نرفع الشكوَى ... ففي يدِه كَشفُ المَضرةِ والبَلوَى

خَرَجنا من الدنيَا ونحن مِن أهلِهَا ... فلا نحنُ في الأمواتِ فيها ولا الأحيَا

إذا جاءَنَا السجَّان يومًا لحاجَةٍ ... عجِبنَا وقُلنَا: جَاء هذا مِن الدُّنيَا؟!

وقد كان يحيى بن خالد يُجرِي على الإمام سُفيان بن عُيَينة كل شهر ألف

درهم، وكان سفيانُ يدعو له في سُجُوده، يقول: اللهُمَّ إنه قد كفَاني أمر دُنياي فاكفه أمرَ آخِرَته، فلما مات يحيى رآه بعض أصحَابه في المنام فقال له: ما فعل الله بك؟ قال: غفَرَ لي بدعاءِ سُفيان.

ولما قُتِلَ الخليفة العباسي المُقتَدر بالله، جِيء بأُمِّه الملقبةِ بالسيِّدة، وكان دخْلُ أملاكها في كل سنة ألف ألف دينار، وكانت تتصدقُ بأكثر ذلك على الحَجيج في أشربة وأزواد وأطباءَ يكونون معهم، وتسهيلِ الطرقات والمَوَارد.

وكانت في غاية الحِشمَةِ والرياسَةِ ونفوذِ الكلمة أيامَ خلافةِ ولَدِها، فلما قُتِل كانت مريضَةً فزادها مرضًا إلى مَرَضها، ولما استقَرَّ أمر القاهر في الخلافة -وهو ابنُ زوجها المُعتَضد وأخو ابنِها- وقد كانت حضنته حين تُوفيت أمُّه، وخَلَّصَته من كيدٍ كان يُراد به، فلما ولِيَ القاهرُ عاقبها عقوبة عظيمة جدًّا، حتى كان يُعَلقها برجلها ورأسُها منكوس، ليُقَرِّرها على الأموال التي في يدها، فلم يجد لها شيئًا سوى ثيابها ومَصَاغها وحُليِّها في صناديق لها، قيمتها مائة وثلاثون ألف دينار، وجميع ما كان يدخل عليها تتصدق به، وأوقفت شيئًا كثيرًا، ولكن كان لها أملاكٌ فأمَرَ ببيعها، وأتى بالشهود ليشهدوا عليها بالتوكيل في بيعها، فامتنع الشهود من أداء الشهادة حتى يحلوها، فرفع الستر بإذن الخليفة، فقالوا لها: أنت «شَغَبُ» جارية المُعتضد أم جعفر المُقتَدر؟ فبَكَت بكاءً طويلًا، وقالت: نعم.

فبكى الشهود وتفَكَّروا في تقلب الزمان، وتنَقُّل الحدثان.

قالَ الأصمَعيُّ: كنتُ مع الرشيد في الحج، فمَرَرنا بوادٍ، فإذا على شفيره امرأة صبية حسناء بين يديها قصعة -أي: صحن-، وهي تسألُ فيها، وتقول:

طحطَحَتنا طَحَاطِحُ الأعوَامِ ورَمَتْنا حوادِثُ الأيَّامِ

فأَتَينـــــاكُمُ نمُــــد أكفًّـــا   لفَـــضالات زادِكـــم والطَّعَـــامِ
فاطلُــبُوا الأجــرَ والمَــثُوبةَ فيــنَا   أيهَـــا الزائِـــرونَ بـــيتَ الحَـــرامِ
مَــن رَآنِــي فَقَــد رآنِــي ورَحْلــي   فارحَمُـــوا غُربَتـــي وذلَّ مَقَامِـــي

فذهبتُ إلى الرشيد فأخبَرتُه بأمرها، فجاء بنفسه حتى وقف عليها، فسَمِعها فرَحِمها وبكى، وأمر مَسرُورًا الخادم أن يملأ قَصعَتها ذهبًا، فمَلأها حتى جعلت تفيض يمينًا وشمالًا.

قال عبدُ المَلك بن عُمَير: دخلتُ القصر بالكوفة فإذا رأسُ الحُسَين بن عليٍّ على خشَبة منصُوبَة بين يدَي عُبَيد الله بن زياد، وعبيدُ الله على السرير، ثم دخلت القصر بعد ذلك بحين فرأيتُ رأسَ عبيد الله بن زياد على خَشَبة بين يدي المُختار والمختارُ على السرير، ثم دخلت القصر بعد ذلك بحين فرأيتُ رأسَ المختار على خَشَبة بين يدَي مُصعب بن الزبير ومُصعَبٌ على السرير، ثم دخلتُ القصر بعد حين فرأيتُ رأسَ مصعبِ بن الزبير على خشبة بين يدي عبد المَلِك بن مروان وعبدُ الملك على السَّرير.

قال سُفيان: فقلتُ له: كم كان بين أول الرؤوس وآخرِها؟ قال: اثنتا عشرَةَ سَنَةً.

وَقَالَ مَيمون بن مهران: خرجتُ مع عمر بن عبد العزيز إلى المَقبَرة، فلما نظر إلى القبور بكَى، ثم أقبلَ عليَّ فقال: يا ميمون، هذه قبور آبائي بني أمية كأنهم لم يُشَاركوا أهلَ الدنيا في لذتهم وعيشهم، أما تراهم صَرعى قد حَلَّت بهم المَثُلاث، واستحكَمَ فيهم البِلى، وأصابت الهوَامُّ مَقيلًا في أبدانهم، ثم بكى وقال: واللهِ ما أعلمُ أحدًا أنعَمَ ممن صار إلى هذه القبور وقد أمِنَ من عذاب الله.

وتغيُّر الأحوال سبب لتغير النفسيات والتصرفات، فلا تُثقِلْ على مُبتلى مهمومٍ بكثرة العَذل والسؤال والتأنيب.

لما ماتت (عَزَّةُ) بمصر في أيام عبد العزيز بن مروان، زار (كُثَيِّرٌ) قبرها ورَثَاها، وقد تغير شعرُه بعد موتها، فقال له قائل: ما بال شِعرِك تغيَّر، وقد قصَّرت فيه؟ فقال: ماتت (عزَّةُ) فلا أطرب، وذهب الشبَابُ فلا أعجَب، ومات عبدالعَزيز ابن مروان فلا أرغَب، وإنما الشعر عن هذه الخِلال.

وقد بقي الخليفةُ العباسي أميرُ المؤمنين أبو جعفر المنصور في الخِلافَةِ عُمرًا مديدًا، وحصَّن الدولة الإسلامية، وبنى بغداد التي كانت تُسمَّى في وقته «دار السَّلام»، وكان مما أنشَدَه قوله:

المَـــــرءُ يأمُــــــل أن يَعــــيــ ... ـــشَ وطــولُ عُمــرٍ قــد يــضُرُّهْ
تَبلــــــى بــــــشاشَتُه ويَــــــبـ ... ـقَــى بعــدَ حُلــوِ العَــيشِ مُــرُّهْ
وتَخُــــــونُه الأيـــــامُ حـــــتَّـ ... ـــــى لا يَـــرى شـــيئًا يَـــسُرُّهْ
كَـــم شَـــامتٍ بِـــي إن هَلَكْـــ ... ـــــتُ وقَائـــــل للَّــــــهِ دَرُّهْ

ولما خرج الشَّعبيُّ مع ابن الأشعَثِ على الحَجَّاج، انتصر الحجَّاجُ على ابن الأشعث، فاستشار الشعبيُّ أصحابَه فأشاروا عليه بالاعتذار، قال الشَّعبي: فلما دخلتُ على الحجاج خالفت مشورَتَهم، ورأيتُ واللهِ غير الذي قالوا، فسلَّمتُ عليه بالإمرة، ثم قلتُ: أيَّد الله الأمير، إنَّ الناس قد أمرُوني أن أعتذِرَ بغير ما يعلم اللهُ أنه الحق، ولك اللهُ ألَّا أقولَ في مقامي هذا إلا الحق: قد جهِدنا وحَرَصنا، فما كنا بالأقوياء الفجَرَة، ولا الأتقياء البَرَرة، ولقد نصَرَك اللهُ علينا، وأظفَرَك بنا، فإن سطَوتَ علينا فبذنوبنا، وإن عَفَوت فبحِلْمك والحُجَّةُ لك علينا.

فقال الحجاجُ: أنت واللهِ أحبُّ إلينا قولًا ممن يدخُل علينا وسيفُه يقطُر من دمائنا، ويقول: واللهِ ما فعَلت ولا شَهِدت!، أنت آمنٌ يا شَعبي.

فقلتُ: أيها الأمير، اكتحَلتُ واللهِ بعدَك السَّهر، واستحلستُ الخَوف، وقطعتُ صالحَ الإخوان، ولم أجِد أحدًا من الأمير خَلفًا.

قال: صَدَقتَ. وانصَرفتُ.

ومن طالت به الأيام رأى أعظم العِبَر، وبات خائفًا حذرًا من مَزَلة القدم وشدة الزمان وقِلَّته، فعليه أن يُوقِنَ أنه لن يحمل همَّه إلا نفسه، فلا يقف مواقف العَجز، وعليه أن يمضي في حياته نحو ما يصلح دِينه ودُنياه مُتَوكلًا على الله سبحانه، مستمدًا منه العَون والسَّداد، فدوَامُ الحُزن ليس حلًّا، والزمانُ كفيلٌ بأن يُنسي المرءَ ما مرَّ به من الشدَّة والبلاء، ومَن رأى مصَائب الخَلق وجَد في ذلك أعظَمَ التسلية على تجَاوز مُصَابه، وفي ذلك يقول القائل:

ولـولا الأسَـى ما عشتُ في الناس ساعَةً ولَكِـن مَتـى ناديـتُ جاوبَنِـي مِثْلِـي

وقد قيلَ: إنَّ ذا القَرنين لمَّا حَضَرته الوفاة كتَب إلى أمِّه قائلًا: إذا أتاكِ كتَابي فاصنَعي طعامًا، واجمَعي عليه النسَاء، فإذا جلَسُوا للغداء قولي لهُن: لا تأكل امرأةٌ ثَكلى، ففَعَلت، فكفَفنَ أيدِيَهُنَّ كلهُنَّ، فقالت: ألا تأكلن، أكلُّكُن ثَكْلى؟ قلن: إي والله، ما منَّا امرأةٌ إلا وقد ثَكَلت أبَاها أو أخَاها أو ابنَهَا، فقالت: إنَّا لله وإنَّا إليه راجعون، هَلَك ابني، ما كتَبَ بهذا إلا تعزيةً لي.

وقال هلالٌ الوَزَّان: أتاني نَعيُ أخي من الكوفة وأنا بالمدينة، فمررتُ على عروة بن الزبير فسَلمت عليه ومضيتُ، فقال عروة لبعض غِلمَانه: ردُّوه عليَّ، فوالله ما كان يعوِّدنا هذا، كان إذا مر بنا جَلَس، فلحِقُوني فرَدُّوني إليه، فقال: كنتَ

إذا مررتَ بنا جَلستَ، فما بالُكَ اليوم؟ فقلتُ: أتانِي نَعيُ أخي من الكوفة، فقال عروة: كان للزبير سبعَة وعشرون ذكرًا، منهم من قُتل، ومنهم من مات، وما بَقي من ولده أحَدٌ غيري، فأنا آكُل أطيبَ الطعام، وألبَسُ أليَنَ الثياب.

ومهما مسَّ المرءَ من البَلاء، فعليه أن يحذَرَ شَمَاتة العدو المتَربص ولا يُبدِي له انكسَاره، فإنَّ شماتَةَ العدو مما يفُتُّ القلوبَ، ويزيد الهُموم، ويُوهِن القُوى، وعليه أن يتوَجَّه إلى الله بالدعاء، أن يرفَع عنه البَلاء، وأن يرزقه العافية في دينه ودنياه، وأن يُحييَه حياة السعَدَاء، وألَّا يُشمِت به عدوًّا ولا حاسِدًا، فإنه إن ظَفِر بذلك فقد أفلح، وقد صحَّ عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه كان يستعيذُ من جَهْد البلاءِ، ودَرَك الشقَاء، وسُوء القضاء، وشَماتة الأعداء[1].

○○○○○

(١) رواه البخاري (٥٩٨٧)، ومسلم (٢٧٠٧).

سرعة الأيام وانقضاء الأعمار

العاقلُ الفَطِن هو الذي يتأمَّل في سرعة الأيام، وانقضاء الأعمار، وأن الناس في هذه الحياة بين مستقيم ومُفَرط، والمُوفَّق مَن هَدَاه الله لاستغلالها بما يَكُون فيه النجَاة بين يدي الله سبحانه.

فعُمر الإنسانِ ظلٌّ زائل، وطَيفٌ عَابِر، كالخيال الذي يجيء إلى الإنسان في منامه، وأيام العمر سُرعان ما تنقضي، فما يشعر الإنسان إلا وقد عايَنَ الحقيقة بعد طولِ الأمَد، فإذا به وما مرَّ به من سالف الأيام إلا كأحلام نائم.

وقد قيل: «الدنيا مثل مَنَام، والعيشُ فيها كالأحلام».

وقيل: «إنَّ نوحًا عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ سُئل: يا أطولَ النبيين عمرًا، كيف وَجدت الدنيا؟ قال: كدارٍ لها بابان، دخلتُ من هذا، وخرجتُ من هذا».

قال ابن عبَّاس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا: «بُعث نوح وهو لأربعين سنةً، ولبِثَ في قومه ألف سنة إلَّا خمسين عامًا، وعاش بعد الطوفان ستين عامًا حتى كَثُر الناس وفَشَوا».

ومَن عَلِم هذه الحقيقة وعايَنَها، لم يَأسَ على ما فاته من الدنيا، ولم يفرح فيها برخاء، ولم يحزن على بلوى، لعِلمِه أنه لم يَبقَ مما مرَّ به شيء، لا ترَحَ ولا فرَح، بل إنه كلما كَبر عُمره، تراءت له أيامُ طفولته وكأنها قبل سُوَيعات، فعلم مِقدَار الأسف فيما فاته من وقتٍ لم يَجْنِ فيه خيرًا، ولم يَستَثمِره في طاعة.

وإذا عَلِم العبدُ أنه راجِع إلى الله عَزَّوَجَلَّ، وموقوف بين يَدَيه، ومسؤول عما جنَى واكتَسَب، وَجَب عليه أن يُحسِن العمل، فإنه سيقوم بين يدي الله وحيدًا،

ليس له من دُونه وليٌّ ولا نَصير، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ ۖ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ ۚ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٩٤﴾﴾ [الأنعام:٩٤].

ومن عظيم ما وعَظَ الله به عباده وأنذَرَهم به في آخر ما نزل من القرآن، تذكيرُهم بالرجُوع إليه في قوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ۖ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٨١﴾﴾ [البقرة:٢٨١]، وقد مات النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعد نزولِهَا بتِسع ليالٍ.

وقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**ما مِنكُم من أحدٍ إلا سيُكَلِّمه ربُّه ليس بينَه وبَينَه تُرجُمان**»(١).

ومَن أيقَنَ برَحِيله بعد الإقامة، وأنه سيُلاقي رَبَّه؛ أحسَنَ العملَ في هذه الدنيا، وتزوَّد للسَّفر الطويل؛ ليَغنَم السعادة الأبَدِية، والحياة الدائمة السَّرمدية، ولم يَغِب عن ذِهنه أنَّ طويل ما يعيشه من الأيام سيعود قصيرًا، وكثيرَها سيكون حقيرًا، وعليه فلا بُدَّ أن يكون هَمُّه الآخرة، ولا ينسَى نصيبه من الدنيا، ولا تكون الدنيا هَمَّه وشاغلَه وكأنه سيعيش فيها مُخَلدًا، وليَكُن له في نبيِّه مُحمدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أسوةٌ وقدوة، فإنه لم يُنافس على دنيا، ولم يطمع فيها ببقَاء، ولذلك فقد عاشَ فيها عيش الفقراء، وخرج منها ولم يشبع من خُبز الشعير، وهو أكرَمُ الخَلق على ربه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وما كان ذلك إلَّا لعِلمِه أنها ليست لحيٍّ سكنًا.

وقد جاء عن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه قال: «نامَ النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على حَصير، فقامَ وقد أثَّر في جسده، فقُلنا: يا رسول الله، لو أمَرتَنا أن نبسُطَ لك

(١) رواه البخاري (٦١٧٤)، ومسلم (١٠١٦).

ونعمَل. فقال: **ما لي وللدنيَا؟ ما أنا والدنيا إلا كرَاكبٍ استظَلَّ تحتَ شَجرة ثم راح وتَركَهَا**»[١].

أي: ليس حالي معها إلا كحَالِ راكِب مُستَظل، وهذا «تشبيهٌ تَمثيليٌّ» على سُرعة الرحيل وقلَّة المُكث، فالدنيا زُيِّنت للعيون والنفوس، فأخَذَت بهما استحسانًا ومحبَّة، ولو باشر القلبَ مَعرفةُ حقيقتها ومُعتبرها لأبغَضَها، ولمَا آثرها على الآجل الدائم حتى تعَامَل معها وكأنها دارُ إقامة، ومن فعل ذلك أَلْهَته عن تذكر كَونِ الآخرة دارَ مَقَر، وقد وصَّى النبيُّ ﷺ جماعةً من الصحابة بالتقلل من الدنيا، وأن يكون بلاغُ أحدهم من الدنيا كَزَاد الراكب، كما أوصَى عبدَ الله بنَ عمر رضي الله عنهما بذلك فقال: «**كُن في الدنيَا كأنك غَريبٌ أو عَابِر سَبيل**»[٢].

فلما فهِمُوا أن هذا هو المَقصُودُ من الدنيا؛ جعلوا همَّهم التزود منها للآخرة التي هي دارُ القَرار، واكتفوا من الدنيا بما يكتفي به المسافرُ في سفَره، ولذلك كان ابن عمر رضي الله عنهما يقول: «إذا أمسيتَ فلا تنتظر الصبَاح، وإذا أصبَحتَ فلا تنتظر المسَاء، وخُذ من صحَّتك لمَرَضك، ومن حياتك لمَوتِك»[٣].

فيجبُ على المرء إذا عَزَم على السفر أن يستعِدَّ لذلك بأخذِ ما يُعينه على قطع الطريق وبلوغ المَنزل، ومن علم أنه مُسَافر إلى الدار الآخرة فهو بالاستعداد لذلك أَوْلى وأَحْرَى، فيجب عليه أن يُكثر من الأعمالِ الصالحات، والتزودِ من

---

(١) رواه الترمذي (٢٥٣٤)، وهو صحيح، انظر: «صحيح الترغيب والترهيب» (٣٢٨٣).
(٢) رواه البخاري (٦٠٥٣).
(٣) رواه البخاري (٦٠٥٣).

الخيرات، كما يجب عليه ألَّا يغتَرَّ بعمل، ولا يُطيل الأمل، فإنَّ طول الأمل يُلهِي عن الآخرة ويَصُد عن العمل، قال الحسَنُ البصري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ما أطال عبدٌ الأمل إلا أسَاء العمل»، وقال الفضيل بن عياض: «إنَّما أتي الناس من خَصلَتَين: حُب الدنيَا وطُول الأمل».

وكان معروف الكرخي يدعو ويَقُول: «اللهم إني أعوذ بك من طول الأمل، فإنَّ طول الأمل يمنع من خير العمل».

وعلى العبد المُسلم أن يكون دائم الوَجَل مع حُسن رجائه بالله، فإنه لا يَدرِي قُبِلَ عمله أم لم يُقبل، وهذا هو دأب الصالحين المُخبِتين، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ﴿٦٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ ﴿٦١﴾﴾ [المؤمنون:٦٠-٦١].

وقد سألت عائشَةُ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا رسولَ الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن هذه الآية، فقالت: «يَا رَسُولَ الله: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾؛ أَهُم الذين يشربون الخَمرَ ويسرقون؟ قال: **لا يا بنتَ الصدِّيق، ولكنهم الذين يصومون ويُصَلون ويتصَدَّقون، وهم يخَافُون ألَّا يُقبَل منهم ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ ﴿٦١﴾﴾**»[1].

والعَجَب كل العَجَب من عبدٍ أيقن الرَّحيل والانتقال عن هذه الدنيا إلى الدار الآخرة، ولم يزَل غافلًا عما أُمِر به ونُهي عنه، حتى يدهَمَهُ الأجَلُ وهو في لَهْوه وغَيِّه.

قال يزيدُ بن حَازِم: كان سليمان بن عبد المَلِك يخطُبنا كل جُمعة، فلا يَدَعُ أن يقول في خُطبَته: «إنما أهل الدنيا على رحيل، لم تَمضِ بهم نية، ولم تطمئن لهم

(١) رواه الترمذي (٣٤٤٩)، وهو صحيح، انظر: «سلسلة الأحاديث الصحيحة» (١٦٢).

دار، حتى يأتي أمر الله وهم على ذلك، كذلك لا يَدُوم نَعيمُها، ولا تُؤمَن فجَائِعُها، ولا يُتَّقى مِن شَرِّ أهلها، ثم يتلو: ﴿أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَٰهُمْ سِنِينَ ﴿٢٠٥﴾ ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُواْ يُوعَدُونَ ﴿٢٠٦﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يُمَتَّعُونَ ﴿٢٠٧﴾﴾ [الشعراء:٢٠٥-٢٠٧]».

ولأنَّ الحياة لا تَخلُو من الشُّبُهات والشَّهوات التي يَخشَى معها العبدُ أن يزيغ قلبه؛ وجب عليه أن يدعو الله أن يُثَبِّت قلبَه على الاستقامة، وأن يرفع أكُفَّ الضَّراعة بذلك، وأن يكون دائم الدعاء بأن يُوَفقه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ دائمًا وأبدًا إلى التوبة النصوح، وأن يرزُقَه عند موته حُسن الخاتمة، ويصرف عنه مِيتَة السُّوء، لأنَّ من خُتِمَ له بخير فقد أفلح.

وما شَغل قلوب الصالحين ذَوِي البصيرة، وأضجَّ مضَاجِعَهُم، وأرَّق نومَهُم، إلَّا رجاء حُسن الخاتمة؛ لأنَّ ذلك دليلٌ على حصول الفرَج، وإشارة إلى قَبُول الله تعالى للعبد، وعفوِه عما كان عنده من الخَطَأ والزَّلَل، وقد قال صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إِنَّما الأعمالُ بالخَوَاتِيم**»(١).

كما أنه دليلٌ على كَريم عطاءِ الله سبحانه لعَبدِه ورحمَتِه به، وأنه غَنيٌّ عن عذابه، وأنَّ تيسير ذلك له مَحض امتِنان وتفَضُّل منه، فقد قال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إذا أرادَ الله بعبدٍ خَيرًا استعمَله**. قيل: وكيف يستَعمِلُه يا رسولَ الله؟ قال: **يُوفِّقه لعمل صالح قبلَ المَوت ثم يقبضُه عَلَيه**»(٢).

ولا بدَّ للمَرء -وإن كان مجتهدًا بالعمل الصالح- أن يعظُمَ خوفُه من سُوءِ الخاتمة لأنها بوابة الشقاء، وأن تشتَدَّ خشيَتُه أن يخذُلَه ذنبُه أحوجَ ما يكون إلى

(١) رواه البخاري (٦٢٣٣).

(٢) رواه الترمذي (٢٢٨٠)، وهو صحيح، انظر: «صحيح الترغيب والترهيب» (٣٣٥٨).

ربه، وهذا من أعظَم الفقه، أن يخاف الرجلُ أن تخذُلَه ذنوبُه عند الموت، فتَحُول بينه وبين الخاتمة الحُسنى.

ولقد بكى سفيان الثوري رَحِمَهُ ٱللَّهُ ليلةً إلى الصَّباح، فلما أصبح قيل له: «كُل هذا خوفًا من الذنوب؟ فأخذ عُودًا من الأرض، وقال: الذنوبُ أهوَنُ من هذا، وإنما أبكي من خَوفِ سُوءِ الخَاتِمة».

وكثير من الناسِ إنما يُحَال بينهم وبين حُسن الخاتمة عُقوبةً لهم على أعمالهم السَّيئة، من الانكباب على الدنيا، والإعراض عن الأخرى، والإقدام والجرأة على مَعَاصي الله عَزَّوَجَلَّ، وربما غَلَب على الإنسان حبُّ نوع من المعاصي، ورافقَ ذلك نصيبٌ من الجرأة والإقدام على المَعصيَة، فمَلَك قلبَه، وسَبَى عقلَه، وأطفأ نورَه، فلم تنفع فيه تذكِرَة، ولا نجحت فيه موعظة، حتى جاءه الموتُ وهو على ذلك، ومن أجل ذلك خاف السلفُ من الذنوب أن تكون حِجَابًا بينهم وبين حُسن الخاتمة.

خَطَب عبد الملك بن مروان يومًا خُطبَة بليغة، ثم قطَعَها وبكى، ثم قال: «يا ربِّ إنَّ ذنوبي عظيمَة، وإنَّ قليل عَفوِك أعظم منها، اللهُمَّ فامحُ بقليل عَفوِك عظيم ذنوبي»، فبلغ ذلك الحسَن البَصري فبكى، وقال: «لو كانَ كلام يكتب بالذهب لكُتِب هذا الكَلام».

على أن سُوءَ الخاتمة -أعاذنا الله منها- لا تكون لمن استقام ظاهِرُه وصَلَح باطِنُه، وإنما تكون لمن له فَسَاد في الأصل، أو إصرار على الكبائر، وإقدام على العظائم، فربَّما غَلَب ذلك عليه حتى ينزل به الموت قبل التوبة، فيأخذه قبل إصلاح الطَّويَّة، ويُستَأصَل قبل الإنابة، فيَظفَر به الشيطان عند تلك الصَّدمة،

ويختطفه عند تلك الدَّهشة، والعياذ بالله.

وأعظمُ الناس توفيقًا: مَن شَمِلَه الله برَحمَته، فيسَّر الله له توبَةً قبل رحيله، وأنَاب قبل انتقاله، وحاسَبَ نفسه قبل مُلاقاة ربه، فتخفَّفَ من أثقال أوزَارِه، وقدِم على ربه وهو خفيفُ الظهر من الذنوب والمظالم.

وسَبيلُ النجاة: تَيَقُّن العَبد أنه ليس بمُستَغنٍ عن ربه طرفَةَ عين، وأنه إنْ وَكَله إلى نفسه هَلَك، فيتوجه إلى الله تعالى بصِدق اللجوء والتضَرُّع والدعاء أن يحفظ عليه دِينَه، وأن يتوب عليه، وأن يُثَبِّته حتى يلقاه وهو راضٍ عنه، وأن يشمله بعظيم فضله، وسَعَة جُودِه، وكبير عَفوِه.

وأن يلزمَ العبدُ الدعاء مع انكسار النفسِ وافتقارها لله ربِّ العالمين، وتَذَلُّلها وتخَشُّعها، وأن يُظهِرَ ذُلَّه ومَسكَنَتَه، وهذا كان حالَ أشرفِ الناس حالًا ومقامًا رسولِ الله ﷺ حين سؤاله رَبَّه، فقد جاء في الحديث: «أنَّ رسولَ الله ﷺ خرجَ في الاستسقاء مُتَبذلًا متواضعًا مُتخَشِّعًا متضرعًا»[(١)].

وكان ممَّا علَّمه ﷺ لأمَّته: أنَّ يُقِر العبدُ بذَنبه حين سؤال ربه، ليَنزِعَ عن نفسه رداءَ العِصمَة، ويُعلِن افتقاره بين يدي ربه، فعَن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال: قال أبو بكر رضي الله عنه للنبيِّ ﷺ: «عَلِّمني دعاء أدعو به في صلاتي. قال: **قُل: اللهُمَّ إني ظلَمتُ نَفسي ظلمًا كثيرًا، ولا يغفِرُ الذنوبَ إلا أنت، فاغفِر لي مغفرَةً من عندك، إنكَ أنت الغفُورُ الرَّحيم**»[(٢)].

فإذا كان هذا في حق أبي بكر الصَّديق رضي الله عنه، وهو مَن هُو في الفضل

(١) رواه أبو داود (١١٦٥)، وهو حسن، انظر: «مشكاة المصابيح» (١٥٠٥).
(٢) رواه البخاري (٧٩٩)، ومسلم (٢٧٠٥).

والرتبة والسابقة، فغيره من باب أَوْلَى.

واللهُ سبحانه لا يتعَاظَمُه شيء، فإن شاء سبحانه أن يغفِرَ لعَبده غَفَر له وإن كان مسرفًا على نفسه بالخَطَايا، لا رَادَّ لحُكمِهِ، ولا مانع لقَضَائه، فعلى العبدِ أن يعلن افتقاره إلى ربِّه، راجيًا فضله، مُقِرًّا بذنبه، لعله إذا رأى منه ذلك شَمِلَهُ برحمته ولُطفِه، فإنه عمَّا قريب راحلٌ إلى ربه فمُلاقيه.

بلغ عمرَ بن عبد العزيز رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنَّ رجلًا من أصحابه تُوفِّي، فجاء إلى أهله ليُعَزِّيَهم فيه، فصرَخُوا في وجهه بالبكاء عليه، فقال: «مَه!، إن صاحبَكُم لم يكن يرزقكم، وإن الذي يرزقكم حيٌّ لا يموت، وإنَّ صاحِبَكُم هذا لم يَسُدَّ شيئًا من حفرِكم، وإنما سدَّ حفرة نفسِهِ، وإنَّ لكل امرئ منكم حُفرة لا بُدَّ واللهِ أن يسدَّها، إن الله عَزَّوَجَلَّ لما خَلقَ الدنيا حَكَم عليها بالخراب، وعلى أهلها بالفناء، وما امتلأت دارٌ حَبْرةً إلا امتلأت عَبْرة، ولا اجتمعوا إلا تفَرَّقوا، حتى يكون اللهُ هو الذي يرث الأرض ومَن عليها، فمن كان منكم باكيًا فليبك على نَفسِه».

يـا ربِّ فَـضلَك إنَّ جـودَك واسِـعٌ عظُمَـت خطَايانَـا وعفـوُكَ أعظَـمُ
فاغفِـر لـنا مَـا كـانَ مِـن هفَواتِـنا إِنَّ القلُـوبَ مـن الخَطَـا تتـثلَّمُ

○○○○○

سقوط الدولة الأموية

من المعلوم أنَّ دولة بني أميَّة قد عَمَّرت زمَنًا طَويلًا، وعاشَت عهدًا زاهرًا، كثرت فيه الفتوحات الإسلامية، ونُصِرت السنة، وقُمِعت البدعة، ولم تزل على ذلك حتى أذن الله بأفول شَمسِها، حيث بدأ التفرق والشَّتات، ومُنَافسة خصومها لها على المُلك، فضَعُفت القوى، ووَهَنَت الهِمَم، ولله سبحانه الأمرُ من قبلُ ومن بَعدُ، وله الحِكمَة البالغة، قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ [آل عمران:١٤٠].

وقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**حَق على الله ما ارتفَعَ شيء من الدنيا إلا وضَعَه**»(١).

﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾﴾ [آل عمران:٢٦].

ففي عام مائةٍ وسبع وعشرين من الهِجرَة، بُويعَ بالخلافة لمَروان بن محمد ابن مروان آخر خُلفاء بني أمية، واستتَبَّ له الأمر، وكان كثير المُروءة، حازم الرأي، شجاعًا مِقدامًا، وكان قبل ذلك قد ولَّاه هشامُ بنُ عبد الملك على بعض الجهات والنَّواحي، ففتح بلادًا كثيرة وحصونًا مَنِيعة، وقاتَلَ طوائف من أشد الأعداء وأكثَرِهم فتكًا، فكَسَرهم وقهرهم، وفتح بلادَهُم.

ولكن لحِكمَةٍ يُريدها الله سبحانه كان سُقوط دولة بني أمية في عهده، بعد أن استتَبَّت له الخلافةُ خمس سنين.

---

(١) رواه البخاري (٢٧١٧).

ففي عام مائةٍ وتسعٍ وعشرين ظهَرَ أبو مُسلم الخُرَاساني يدعو إلى دولة بني العباس، وإسقاط الدولة الأموية، حيث أرسل إليه إبراهيم بن محمد العبَّاسي كتابًا يطلُبُ منه أن يدعو إلى حُكم بني العباس، وكان مما كتب إليه: «أن أَظْهِر دعوتك ولا تتَربَّص»، فقام أبو مُسلم الخُرَاساني داعيًا إلى بني العباس، وبث دعاته في بلاد خراسان ونواحيها، وكان أميرُ خراسان من قِبَلِ بني أمية نصرُ بن سيَّار مشغولًا بقتال جماعة من الخوارج.

ولما رأى نصَر بن سيَّار ما يقوم به أبو مسلم من جمع الناس وتأليبهم على دولة بني أمية رغبَةً في إسقاطها، كتب إلى الخليفة مروان بن محمد بن مروان يخبره بأمر أبي مُسلِم وكثرة من معه، وأنه يدعو إلى إبراهيم بن محمد، وكان فيما كتبه في كتابه:

أرَى خَلَل الرَّمادِ وميضَ نَارٍ ... فيُوشك أن يكُونَ لها ضِرامُ

فإن النَّار بالعُودين تُذكَى ... وإن الحَربَ مَبدَؤُها كَلامُ

لئن لم يُطفِها عقلاءُ قَوم ... يكونُ وقودَها جثثٌ وهَامُ

فقُلت من التعجُّبِ لَيتَ شِعري ... أأيقَاظٌ أميَّةُ أم نيَامُ

فإن كانُوا لحِينِهِمُ نيَامًا ... فقُل قومُوا فقد حَانَ القِيَامُ

فكتَب إليه مروانُ: الشاهِدُ يَرى ما لا يَرى الغائب، فقال نصرٌ: إنَّ صاحبَكُم قد أعلَمَكم أن لا نُصرَة عنده.

ثمَّ ورد الكتاب من جهَةِ إبراهيم بن محمد إلى أبي مسلم يأمره فيه أن يُقاتل نصر بن سيَّار، وعند ذلك بعَثَ الخليفة الأموي مروان بن محمد إلى نائبه بدمشق يأمره فيه أن يذهبَ إلى البلدة التي فيها إبراهيم بن محمد فيُقَيده ويُرسِله

إليه، فذهب إلى إبراهيم فقَيَّده وأرسله إلى مروان بن محمد، فأمر به فسُجِن.

ولما قُبِضَ على إبراهيم بن محمد كان قد أَوصَى أهلَهُ أن يكون الخليفة من بعده أخوه أبو العباس السفاح، وأمرهم بالمَسِير إلى الكوفة، فارتحلوا إليها عَجْلَى، وبقوا فيها مستَخْفِين حتى فُتِحَت البلاد وأُخِذَت البيعةُ لأبي العباس عبد الله بن محمد بن علي المُلقَّب بالسفاح.

وكان قد بلغ أهلَ الكوفة مَقتلُ إبراهيم بن محمد، فأحضَرُوا أبا العباس السفاح، وسَلموا عليه بالخلافة، وكان عُمره إذ ذاك ستًّا وعشرين سنة، فقام ودخل المسجد، فصَلَّى بالناس، ثم خطب بهم على المنبر، ثم نزل ودخَلَ القَصْر، ودخل الناس يُبَايعونه إلى الليل.

ولما استقَرَّ الأمر للسفاح بالكوفة أرسل عمَّه عبد الله بن عليٍّ لقتال مروان بن محمد، فسار بمَن معه حتى واجَه جيشَ مروان، ونهض مروان في جنوده وأصحابه، وتصَافَّ الفريقان في أول النهار، وقد كان مع مروان يَومئذٍ مائة وخمسون ألفًا، وكان مع عبد الله بن علي عشرون ألفًا، وقد اشتدَّ القتال بين الفريقين، حتى انهزم أهلُ الشام، واتَّبَعُهم أهل خُرَاسان يَقتُلون منهم ويأسِرُون.

ثم أقام عبد الله بن علي في موضع المعركة سبعة أيام، واستولى على ما كان في معسكر مروان من الأموال والأمتعة، وكتب إلى أبي العباس السفَّاح يُخبِرُه بما فتح الله عليه من النصر، وما حصل لهم من الأموال.

ولما انهزم مروان بن محمد، فرَّ هاربًا وليس معه إلا قِلَّة، فأمر السفاحُ عبدَ الله بنَ علي أن يتبعه، فسار في طلبه بمن معه من الجنود، وخرج مروان قاصدًا حمص، فلما جاءها خرج إليه أهلها بالأسواق، فلما رأوا قِلَّة مَن معه،

اتبعوه طمعًا فيه، وقالوا: مَرعُوب منهزم، فلما أدركوه عطف عليهم، وناشدهم أن يرجعوا، فأبَوا إلا مُقَاتلته، فقاتلهم حتى هزمهم، ثم خرج قاصدًا الديار المصرية، وخرج عبدُ الله بن علي في أثره، وجعل لا يمُرُّ عبدُ الله بن علي ببلد إلا خرجوا إليه يُبَايعونه ويُعطيهم الأمان، وقد بعث إليه السفاح بالمَدَد، فجاء إلى دمشق فحاصرها مدة طويلة، وهَدَم سورها، وأباحها لجنده، وقَتَل من أهلها خَلقًا كثيرًا، حتى قيل: إنه قتل بها في هذه المُدة نحوًا من خمسين ألفًا.

وكان نائبُ مروان قد حصَّن البلدَ تحصينًا عظيمًا، ولكن اختلف أهلُها فيما بينهم بسبب الفتنة والهَوَى والعصبية، حتى إنهم جعَلُوا في كل مسجد مِحرَابَيْن للقِبلَتَين، فتَشَتَّتَتْ كلِمَتُهم، وضَعُفت هِمَّتهم، واشتَدَّ نِزاعُهم، فكان ذلك سببَ سقوط بَلدِهم.

وقد تتَبَّع عبدُ الله بن علي بني أميَّة من أولاد الخلفاء وغيرهم، فقتل منهم في يوم واحد اثنين وتسعين نفسًا، وبسط عليهم الفرش من الجلود، ومَدَّ عليهم سماطًا، فأكل وهم يختَلجُون تَحتَه.

ثم سار عبد الله بن علي وراء مروان، فوجد مروان قد دخل الديار المصرية، فجاءه كتابُ السفَّاح أن يُقيم هو بالشام نائبًا عليها، ويوجِّه أخاه صالح بن علي في طلب مروان، فسار صالحٌ في طلبه، وجعل كلما التَقَى مع جندٍ لمروان هزَمَهُم.

وقد جلس مروان يومًا وقد أُحِيط به، وعلى رأسه خادم له قائم، فقال مروان يومًا لبعض مَن يُخَاطبه: ألا ترى ما نحن فيه؟ لَهْفي على أيدٍ ما ذُكِرت، ونعمٍ ما شُكرت، ودولة ما نُصرت، فقال له الخادم: يا أمير المؤمنين، من ترك القليل حتى يكثر، والصغير حتى يكبر، والخفي حتى يظهر، وأخَّر فعل اليوم لغد، حلَّ

به أكثر من هذا، فقال مروان: هذا القول أشد عليَّ مِن فَقْد الخلافة.

ثم لم يزل جيشُ العبَّاسيين يتتبعون مروان، حتى سألوا بعض مَن أسَرُوهم عن مكانه فدلُّوهم عليه، فوصلوا إليه آخر الليل، فانهزم مَن معه من الجُند، وخرج إليهم مروان في نَفَر يسير، فأحاطوا به حتى قتلوه، وكان ذلك عام مائةٍ واثنين وثلاثين، وكان هو آخر خلفاء بني أمية، وبه انقَضَت دولتهم.

ولمَّا سَقَطت دولةُ بني أمية وقف أبو مُسلم الخُرَاساني عند ذلك يَذكُر ما فعله، وسبب سقوط تلك الدولة الفَتيَّة، فقال: ارتدَيتُ الصبر، وآثَرتُ الكتمَان، وحَالَفتُ الأحزان والأشجان، وسامَحتُ المَقَادير والأحكام، حتى بَلغْتُ غاية هِمَّتي، وأدركْتُ نِهاية بُغيَتي، ثم أنشأ يَقُول:

قد نِلتُ بالحَزم والكِتمَان ما عَجَزت ... عَنه مُلوكُ بني مَروانَ إذ حَشَدُوا

مَا زلتُ أضرِبُهُم بالسيفِ فانتبَهُوا ... مِن رقدَة لم يَنَمْهَا قَبلَهم أحَدُ

طفِقتُ أسعَى عَليهم في ديَارِهمُ ... والقَوم في مُلكِهم بالشام قد رقَدُوا

ومَن رَعَى غَنمًا في أرض مَسبعَةٍ ... ونَامَ عنهَا تَولَّى رَعيَها الأسَدُ

وعند انتهاء دولةِ بني أمَيَّة، تحَوَّلت الخلافة إلى العَبَّاسيين، واستتَبَّ الحُكم لأبي العبَّاس السفاح، حتى توفي عام مائةٍ وسبع وثلاثين، ثم انتقَلَ الحُكم بَعده إلى أخيه أبي جعفر المنصور، فكتب إلى عمِّه عبد الله بن علي يُعلِمُه بوفاة السفَّاح، فلما بلغ عبد الله بن علي الخَبَر، جمع الناس والأمراء، فقرأ عليهم وفاة السَّفاح، وذكر لهم أن السفاح كان عهد إليه حين بَعَثه إلى مروان أن يكون الأمر إليه من بعده، فنهضوا إليه فبايعوه، فلما بلغ المنصور ما كان من أمر عمه عبد الله بن علي بعث إليه أبا مسلم الخراساني، ومعه جماعة من الأمراء، ولما تيقَّن عبد الله

ابن علي من قدوم أبي مسلم إليه خَشِي من جيش خُرَاسان الذين معه ألَّا ينصَحُوا له، فقتل منهم سبعة عشر ألفًا، ولما وصل أبو مسلم إلى الشام، نزل في موضع قريب من عبدالله بن علي، وغوَّر ما حوله من المياه، وحارَبَهُم خمسة أشهر أو سِتَّة، وقد قَتَل منهم جماعات في أيام نَحِسات، وكان أبو مسلم إذا حمل عليهم يرتجِزُ ويَقُول:

مَـن كـان يَـنوِي أهلَـه فَـلا رجَـعْ فَـرَّ مـن المَـوتِ وفي المَـوتِ وقَـعْ

ثمَّ وقَعَت الهزيمة على عبد الله بن علي، واستولى أبو مسلم على ما كان في مُعسكَرِهم من الأموال، وأمَّن بقية الناس فلم يَقتُل منهم أحدًا، واستقَرَّ الحُكمُ للمنصور، وفرَّ عبد الله بن علي إلى أخيه سليمان بن علي بالبصرة، فأقام عنده زمانًا مختفيًا، ثم عَلِمَ به المنصور، فبعث إليه فسَجَنه، ولبِثَ في السجن تسع سنين، ثم سقط عليه البيت الذي هو فيه فمَاتَ.

ولما آلت الخلافةُ لأبي جعفر المنصور، كتَبَ أبو مسلم إليه يُعَزِّيه في الخليفة، ولم يُهَنِّئه بالخلافة، فغَضبَ المنصور من ذلك، وقال لأبي أيوب: اكتب إليه كتابًا غليظًا، فلما بلَغَه الكتاب بعَثَ يُهنئه بالخلافة، وانقمَعَ من ذلك، وجاءت الأخبار لكاتب رسائل المنصور تخبره بأن أبا مسلم يتهَكَّم بأبي جعفر المنصور ويَستخِف به، وأنه إذا جاءه الكتاب منه يقرؤه ثم يَلوِي شِدْقَيه، ويرمي بالكتاب إلى أبي نصر، ويضحكان استهزاءً، ولما بعَثَ أبو جعفر مولاه أبا الخصيب ليُحصي له ما كان في معسكر عبد الله بن علي من الأموال والجواهر الثمينة وغيرها، غضِبَ أبو مسلم، فشتَمَ أبا جعفر، وهمَّ أن يقتل أبا الخصيب، فرجع أبو الخصيب، فأخبر المنصور بما كان، وبما همَّ به أبو مسلم من قَتلِه، فغضب

المنصور، وعزم على قَتْله، وقال مردِّدًا:

إذا كُـنتَ ذا رأي فكُـن ذا عـزيمةٍ فـإن فـسادَ الـرأي أن تتـردَّدَا

ولا تُمهِـل الأعـداءَ يـومًا بقُـدرة وبـادِرهمُ أن يملِكُـوا مِـثلَهَا غَـدَا

وخشي المنصورُ أن يذهب أبو مسلم إلى قومه في خراسان فيشق عليه تحصيله بعد ذلك، وكان أبو مسلم قد عزم على الذهاب إلى خُرَاسان ومُخَالفة المنصور، فقَلقَ المنصور من ذلك كثيرًا، وبعث إليه جرير بن يزيد البجلي في جماعة من الأمراء، وقال له: كَلِّم أبا مسلم بألَيَنِ كلام تَقدِر عليه، وقل له: إنه يريد رَفعَك، وعلو قَدرِك، والإطلاق لك، فإن جاء بهذا فذاك، وإن أبى أن يرجع فقل له: قد أقسَمَ بأغلظ الأيمان، إن شَقَقتَ العصا وذهبتَ على وجهك هذا ليُدرِكنَّك بنفسه، ويُقَاتلك بنفسه دون غيره، ولو خُضتَ البحر الخِضَمَّ لخاضَه خَلفَك حتى يُدرِكَك فيقتلك أو يموت قبل ذلك، ولا تَقُل له هذا حتى تيأس من رجوعه بالتي هي أحسن، فلما قدِمَ عليه أمراءُ المنصور دخلوا عليه ولامُوه فيما هو فيه من مُنَابذة أمير المؤمنين، ورغَّبوه في الرجوع إليه، فشاور ذوي الرأي من أمرائه، فكُلٌّ نَهاه عن الرجوع إليه، وأشاروا عليه بأن يُقيمَ في مكانه، وجنوده طوع له، فإن استقام له الخليفة وإلا كان في عز ومنعَةٍ من الجند.

فأرسل أبو مُسلم إلى أمراء المنصور، فقال لهم: ارجِعُوا إلى صاحبكم، فلستُ ألقاه، فلما استيأسوا منه، قالوا له ذلك الكلام الذي كان المنصور أمرهم به، فلما سمع ذلكَ كَسَره جدًّا، وقال: قُومُوا عنِّي الساعة.

ولم يزل المنصورُ يطمَعُ بمَجيء أبي مسلم إليه، ويعمل على مُخَادعته حتى

حصل له ذلك، فقد بعَثَ أبو مسلم إلى المنصور رئيس شرطته أبا إسحاق، وكان ممن يثق به، ليليِّن له قلب المنصور، فلما دخل على المنصور أكرَمَه، ووعده بنيابة خراسان إن جعله يقدم عليه، فلما رجع إليه أبو إسحَاق قال له: ما وراءك؟ قال: رأيتُهُم مُعَظِّمين لك، يعرفُونَ قَدرك، فغرَّه ذلك، وعزم على الذهاب إلى الخليفة، واستشار أحدَ أمرَائِه فنهاه عن ذلك، فصمَّمَ على الذهاب، وكتب إلى المنصور يُعلِمُه بقدومه عليه، فلما رآه عازمًا على الذهاب، تمثل بقول الشَّاعر:

مـا للـرجَالِ مَـع القـضاءِ محَالـةٌ ذهـبَ القـضاءُ بحـيلةِ الأقـوَامِ

قال أبو أيوب -كاتب رسَائل المنصور-: دخلتُ على المنصور وبين يَدَيه كتاب، فألقاه إليَّ فإذا هو كتاب أبي مسلم إليه، ثم قال الخليفة: والله لئن ملأتُ عيني منه لأقتُلنَّه، فبِتُّ تلك الليلة لا يأتيني نوم، وقلتُ: إن دخل أبو مسلم خائفًا ربما يبدر منه شيء إلى الخليفة، والمصلحَةُ أن يدخل آمِنًا ليتمكن منه الخليفة، فلما أصبحتُ طَلبتُ رجلًا من الأمراء، وقلت له: هل لك أن تتولى جهة من جهات الخلافة؟ فقال: ومَن لي بذلك؟ فقلتُ له: فاذهب إلى أبي مسلم، فتلَقَّه في الطريق، فاطلب منه أن يُوليك تلك البلد، فإن أمير المؤمنين يُريد أن يُوَليه ما وراء بابه ويستريح لنفسه، واستأذنتُ المنصور له أن يذهب إلى أبي مسلم، فأذِنَ له، وقال له: سَلِّم عليه، وقل له: إنا بالأشوَاقِ إليه.

فسار ذلك الرجلُ إلى أبي مُسلم، فأخبره باشتياق الخليفة إليه، فسَرَّه ذلك وانشرح، ولا يعلَمُ أنه قد مُكِر به، فلما سمع أبو مسلم بذلك عجَّل السَّير، وقد

أشار أبو أيوب على المنصور أن يؤخِّر قَتلَه في ساعته هذه إلى الغد، فقَبلَ ذلك منه.

فلما دخل أبو مسلم على المنصور من العَشي، قال: اذهب فأَرِح نفسَك، فإذا كان الغَد فأتِني، فخرج من عنده، وجاءه الناس يُسَلمون عليه، فلما كان الغد اختار الخليفة أربعة من الحَرس وحَرَّضهم على قتله، وقال: كونوا من وراء الرواق، فإذا صفَّقْت فاخرُجُوا عليه فاقتلوه.

فأقبَلَ أبو مُسلم فدخل على الخليفة وهو مُبتَسِم، فلما وقف بين يديه جعل المنصور يُعَاتبه في الذي صنع واحدة واحدة، فجعل يعتذر عن ذلك كله، ثم قال: يا أمير المؤمنين، أرجو أن تكون نفسُك قد طابت عليَّ، فقال: والله ما زادني هذا إلا غَضبًا عليك، ثم قال: والله لأقتُلنَّك، فقال: استبقني يا أمير المؤمنين لأعدائك، فقال: وأي عَدُو لي أعدى منك؟ ثم ضربَ بإحدى يديه على الأخرى، فخرج الحرس فضربوه بالسيوف حتى قتلوه، ولَفُّوه في عباءة، ثم أمر بإلقائه في دجلة، وكان آخر العهد به، ولمَّا قتَلَه قال له بعض الأمراء: يا أمير المؤمنين، الآن صِرتَ خليفة، فأنشد المنصورُ عند ذلك:

فألقَت عصَاها واستقرَّ بها النَّوى كمَا قَرَّ عينًا بالإيابِ المُسافرُ

ولمَّا قتَلَ المنصورُ أبا مسلم الخراساني قام في الناس خطيبًا، وقال: أيها الناس، لا تُنَفِّرُوا أطرافَ النِّعمة بقِلَّة الشكر، فتَحِلَّ بكم النقمة، ولا تُسِرُّوا غِشَّ الأئمة، فإن أحدًا لا يُسِر منكم شيئًا إلا ظهر في فَلَتات لسانه وصفَحَات وجهه، وطوالعِ نظره، وإنا لن نجهل حقوقكم ما عرفتم حقَّنَا، ولا ننسى الإحسان إليكم

ما ذكَرتُم فضلنا، وإنَّ أبا مسلم بايع على أنه مَن نكث بيعتنا وأظهر غشًّا لنا فقد أباحَنَا دمه، وقد كان قد أحسن مُبتدئًا وأساء مُعقِبًا، وأخذ من الناس بنا أكثر ممَّا أعطَانا، ورجَح قبيحُ باطنه على حُسن ظاهره، وعَلِمنا من خُبث سريرته وفساد نِيَّته ما لو علمه اللائمُ لنا فيه، لعَذَرَنا في قتله، وعنَّفَنا في إمهَالِه، وما زال ينقض بيعته ويخفِرُ ذِمَّته حتى أحلَّ لنا عقُوبَتَه.

ثم إن المنصور شَرَع في تأليف أصحاب أبي مسلم بالأعطية والرغبة والرَّهبة، وأحسَنَ إليهم حتى استمالَ قلوبَهُم إليه، واستتَبَّ له الأمر.

○○○○○

طمع النفوس

من طبيعة النفوس شدةُ حِرصِها على الراحة والدَّعَة والاستكثارِ من متاع الدنيا، ولا تزال تبحث عن المال والجاه والرِّفعة بكل حِيلة وسبيل، ولا تدري لعل هَلاكَها يكون فيما تطمع به وتسعى إليه.

ومَن تأمَّل في وقائع الزمان وما فَعَلته الدنيا بمَن قاتل من أجل الاستحوَاذِ عليها دون بصيرة ولا تمييز، تبيَّنَت له الحقيقة، وزالت عنه الغِشَاوة، وأفَاقَ من سَكْرة الغفلة.

ومن المُسَلَّمات لكُل ذِي عَقل: أنَّ الطمع لا ينتهي عند حَدٍّ، وكلما بلغ المرءُ نهاية مرحلةٍ تَاقَت نفسُه إلى ما بعدها حتى يغيبَ عقلُه في غَياهِب الظلمات، فإذا أراد الله به خيرًا بَصَّره في حقيقة أمره، فرجع عن الأمل فيما لا يُعرف مُنتَهاه ولا غايتُه، كما قيل:

وما النَّفسُ إلا حَيث يجعَلُها الفَتَى ... فإن أُطمِعَت تَاقَت وإلا تسَلَّتِ

وقد قاد الطمعُ ناسًا إلى ما لا تُحمَد عُقبَاه حتى أفسَدَ عليهم الدِّين وسَلَبهم الدنيا، فعاد أمرُهُم إلى خُسران.

وقد دلَّنا ربُّنا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ على قطع الطمع عمَّا عند الآخرين من متاع الدنيا، وأخبر أنَّ ذلك إنما كان فتنةً لهم، فقال تعالى مُخَاطبًا نبيَّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ﴾ [الحجر:٨٨]، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿١٣١﴾﴾ [طه:١٣١]،

وفي هذا النهيُ عن النظر إلى المُترفين وما هم فيه من النِّعَم، وبيانُ أنَّ ذلك إنما كان فتنة وابتلاء.

وقد كان نبينا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عاملًا بهذا الهدي مسارعًا إليه، فقد جاء عن عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه دخل على رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فرآه مضطجعًا على حصير، متوسدًا وسادة من أَدَمٍ حشوُها ليف، قد أثَّر الحَصيرُ في جنبه، فبكى عمَرُ، فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**ما يُبكِيك؟** فقال: يا رسول الله، إن كِسرَى وقيصر فيمَا هُمَا فيه، وأنت رسولُ الله. فقال: **أمَا تَرضى يا عُمَر أن تكونَ لهم الدنيَا، ولنا الآخِرَة؟**»[(١)].

وكان صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أزهَدَ النَّاس في الدنيا مع القُدرة عليها، إذا حَصَلت له أنفقها في عباد الله، ولم يَدَّخر لنفسه شيئًا لغَد، وكان عظيم الخوف على أمته أن تُفتح عليهم الدنيا، لما يقود إليه ذلك من التنافس والطمع المُردِي، قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إن مِمَّا أخافُ عَليكم ما يَفتَح اللهُ عليكم مِن زهرة الدنيَا وزِينَتها**»[(٢)].

وقد عَظُمَ تحذير السَّلف من طمَع النفوس، وأنَّ على العبد أن يرضى بما كتَبهُ الله له وقدَّره عليه؛ لجَهله بما يَئُول إليه حالُه لو فُتِحَت عليه الدنيا.

قال عُمر بن الخَطَّاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «ما شيءٌ أذهب لعُقول الرجال من الطَّمع».

وقَال: «قد أفلَح مَن حُفِظ من ثلاثٍ: الطَّمع، والهَوى، والغَضَب».

ووقَف عليُّ بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عند الكعبة يعِظُ الناس، فوقَفَ عليه الحسَنُ فقال: «ما مِلاك الدِّين؟ قال: الورع، قال: فما آفَةُ الدِّين؟ قال: الطَّمع».

---

(١) رواه البخاري (٤٦٢٩)، ومسلم (١٤٧٩).

(٢) رواه البخاري (١٣٩٦)، ومسلم (١٠٥٢).

وقال عبدُ الله بن سَلَام لكَعبٍ: «ما يُذهِبُ العلومَ من قلوب العُلَماء إذا وَعَوها وعَقَلُوها؟ قال: الطمَعُ وشَرَهُ النَّفس وطلَبُ الحَوَائج».

وقال ابن المُبارَك: «ما الذلُّ إلا في الطَّمع».

وقال هزال القريعي: «مِفتاح الحِرص الطَّمَع».

وممَّا جاء من قَصَص الزمان التي فيها أعظَمُ العِبَر والعظات: قصَّة عبد الرحمن ابن الأشعث الذي بدأ أوَّلَ أمره مُقَاتلًا يَذُب عن حِمى المسلمين، حتى طَمِعَت نفسُه بعد ذلك بالحكم والإمارة، فكان ذلك سببَ هلاكِه، حتى مات مِيتةً شَنيعَة.

ففي عهدِ عبد الملك بن مروان كان «رُتبِيل» أحدَ ملوك النصارى يُصَالح المسلمين تارةً ويتمرد أخرى، فكتب الحجَّاج إلى عُبَيد الله بن أبي بكرة أنْ قَاتِلْه بمَن معَك من المُسلمين حتى تستبيح أرضَه، وتَهدِم قِلاعَه، وتَقتُل مُقَاتلتَه.

فخرجَ في جَمع كبير من الجنود، والتقى مع «رُتبِيل»، فكَسَره وهدَمَ أركانه، واستحوَذَ على كثيرٍ من أقاليمه ومُدنه وأمصَارِه، وعند ذلك تراجع «رُتبِيل»، وما زالَ يتبعه حتى اقتَربَ من مَدينته العُظمى، وكانوا منها على مسافة قريبة، وخاف النصارى من المسلمين خوفًا شَديدًا، ثم إنهم أخَذُوا على المسلمين الطرقَ والشِّعاب، وضَيَّقوا عليهم المَسَالك، وقتلوا منهم جَمعًا كثيرًا حتى ظن المسلمون أنهم هالِكُون لا مَحالة، وعند ذلك طلب عُبيد الله أن يُصالح «رُتبيل» على أن يدفَعَ إليه مالًا كثيرًا، ويفتحوا للمسلمين طريقًا يخرجون منه، ويرجِعُون عنهم إلى بلادهم، فوَافَق على ذلك، وبلغ ذلك الحجَّاج، فكتب إلى عبد الملك يُعلِمه بذلك ويستشيره في بَعثِ جيش كثيف إلى بلاد «رُتبيل»؛ لينتقموا منه بسبب ما حَلَّ بالمسلمين في بلاده، فكتَبَ عبدُ الملك إلى الحجَّاج بالمُوَافقة على ما رأى

من المَصلَحة في ذلك، وأن يُعَجل ذلك سَريعًا.

فلما وصل البريدُ إلى الحَجاج أخذ في جمع الجيوش، وجهز لذلك جيشًا كثيفًا بلغ أربعين ألفًا، وبذَلَ فيهم العطاء، وأمَّر عليهم عبد الرَّحمن بن محمد بن الأشعث، فأتى عمُّه إسماعيل بن الأشعث، فقال للحَجَّاج: إني أخافُ أن تُؤَمِّرْه فلا يرى لك طاعة إذا جاوَزَ جسر الفرات، فقال: هو لي أهْيَب، ومِنِّي أرْهَب أن يخالِفَ أمري أو يخرُجَ عن طاعتي.

فسار ابنُ الأشعث بالجُيوش إلى أرض «رُتبيل»، فلما بلغ «رُتبيل» مجيء ابن الأشعَث بالجنود إليه، كتَبَ إليه يعتذر مما أصاب المسلمين في بلاده في السَّنة الماضية، وأنه كان لذلك كارهًا، وأنهم ألجَئُوه إلى قتالهم، وسأل مِن ابن الأشعث أن يُصَالِحَه، وأن يبذُلَ للمسلمين الخَرَاج، فلم يُجِبه ابنُ الأشعث إلى ذلك وصَمَّم على دخُول بلاده، وجمع «رُتبيل» جُنودَه وتهيَّأ له ولحَربِه، وجعل ابن الأشعث كلما دخل بلدًا أو مَدينة أو أخذ قَلعة من بلاد «رُتبيل» استعمَل عليها نائبًا من جهته، وجعل معه مَن يَحفظُها، وجعل المراقبة على كل أرض ومكان مَخُوف، فاستحوذَ على بلادٍ ومدنٍ كثيرةٍ من بلاد «رُتبيل»، وغَنِم أموالًا كثيرة جَزِيلة، وسَبَى خلقًا كثيرًا.

ثم حبَسَ الناس عن التوغُّل في بلاد «رُتبيل» حتى يُصلِحُوا ما بأيديهم من البلاد، ويتقَوَّوْا بما فيها من المُغَلَّاتِ والحَوَاصِل، ثم يتقدموا في العام المُقبل إلى أعدائهم، وكتب ابنُ الأشعث إلى الحجَّاج ما رأى لأصحابه أن يُقيمُوا حتى يتقَوَّوا إلى العام المُقبِل، فكتب إليه الحجاج يَستَهجِن رأيه في ذلك، ويستَضعفُ عَقلَه، ويصفه بالجُبن والنكُول عن الحرب، ويأمره حتمًا بدخول بلاد «رُتبيل»،

ثم أردَفَ ذلك بكتاب ثانٍ ثم ثالث، وقد كان الحجاجُ يُبغض ابنَ الأشعث، وكان هو يفهَمُ ذلك ويُضمِرُ له السوءَ وزوالَ المُلك عنه، فلما توارَدَت كتب الحجاج إليه يحُثه على التوغل في بلاد «رُتبيل»، جمَع مَن معه وقام فيهم، فأعلَمَهُم بما رأى من الرأي في ذلك، وبما كتب إليه الحجاج من الأمر بمُعَاجلة «رُتبيل»، فثار إليه الناس، وقالوا: لا، بل نأبى على عَدُو الله الحَجَّاج، ولا نسمع له ولا نُطيع، ووثَبُوا إلى عبد الرحمن بن الأشعث فبَايعُوه عوضًا عن الحجَّاج، ولم يذكُروا خَلع عبد الملك بن مروان، وبعث ابن الأشعث إلى «رُتبيل»، فصالَحَه على ما رأى، ثم سار بالجنود الذين معه مُقبلًا على الحجَّاج، ليُقَاتله ويأخذ منه العراق، فلما توَسَّطوا الطريق قالوا: إنَّ خَلْعَنا للحجَّاج خَلعٌ لابن مروان، فخلَعُوهما جميعًا، وجدَّدوا البيعةَ لابن الأشعث، فبايعَهم على كتاب الله وسُنة رسوله صَلَّىٰللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ، وخَلْع أئمَّة الضلالة.

فلمَّا بلغ الحجَّاجَ مَا صنعوا من خَلْعه وخَلع ابن مروان، كتب إلى عبد الملك يُعلِمه بذلك، ويستعجله في بعثه الجنود إليه، وجاء الحجَّاج حتى نزل البصرة، وكتب ابنُ الأشعث إلى المُهَلب يَدعُوه إلى ما عزَمَ عليه، فأبى المُهَلَّب ذلك وبعث بكتابه إلى الحَجَّاج، وكتب المُهَلب إلى ابن الأشعث يقول له: إنك يا ابن الأشعث قد وضَعتَ رِجلَك في ركاب طويل، أَبْقِ على أمَّة محمد صَلَّىٰللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ، اللهَ اللهَ، انظُر لنفسِك فلا تُهلكها، ودِماءِ المسلمين فلا تَسفِكها، والجمَاعةِ فلا تفرقها، والبيعةِ فلا تنكُثْها، فإن قُلتَ: أخاف الناس على نَفسِي، فاللهُ أحقُّ أن تخَافَه من الناس، فلا تعرضها لسَفك الدماء، أو استحلال مُحَرَّم، والسَّلام عليك.

وكتب المُهَلب إلى الحجَّاج: أما بعدُ، فإنَّ أهل العراق قد أقبَلُوا إليك مثل

السيل المنحدر من عَلُ، ليس شيء يَرُده حتى ينتهي إلى قرارِهِ، وإن لأهل العراق شِرةً في أول مَخرَجهم وصبابةً إلى أبنائهم ونسائهم، فليس شيء يرُدُّهم حتى يصِلُوا إلى أهليهم، ويشموا أولادهم، ثم واقِعْهُم عندها، فإن الله ناصِرُك عليهم -إن شاء الله-.

وفي محرم سنة ثنتين وثمانين كانت وقعة الزاوية بين ابن الأشعث والحجَّاج، وحمل فيها سفيان بن الأبرد -أَحَدُ أمراء أهل الشام- على مَيمَنة ابن الأشعث فهَزَمها، وقَتلَ خَلقًا كثيرًا من أصحاب ابن الأشعث، وفرَّ بقيتهم، فخَرَّ الحَجَّاج لله ساجدًا بعدما كان جَثَا على رُكبتيه، وسَلَّ شيئًا من سيفه، وجعل يترحَّم على مصعب بن الزبير ويقول: ما كان أكرَمَه حين صبَّر نفسَه للقتل!

ولما فرَّ أصحابُ ابنِ الأشعث رجع ابنُ الأشعث بمن بقي معه، وسار حتَّى دخل الكُوفة، فعَمَد أهلُ البصرة إلى عبد الرحمن بن عباس بن ربيعة فبايعوه، فقَاتَل الحجَّاج خمس ليالٍ أشد القتال، ثم انصرف فلَحِق بابن الأشعث وتَبِعه طائفة من أهل البَصرَة، ودخل ابنُ الأشعث الكوفة، فبَايَعه أهلها على خلع الحجَّاج وعبدِ الملك بن مروان، وتفاقَمَ الأمر، وكثر مُتابِعُو ابن الأشعث على ذلك، واشتَدَّ الحال، وتفَرَّقت الكلمة جدًّا، وعظم الخطب، واتسع الخَرق.

ثم كانت وقعة دير الجماجم في شعبان من هذه السنة، وذلك أن ابن الأشعث لما قصد الكوفة خرج إليه أهلها فتلقوه واحتفوا به وقاموا بين يديه، فلما دخل الكوفة أخذ قَصرَ الإمارة، وأراد أن يقتُل مطر بن ناجية عامل الحجاج، فقال له: استَبقِني، فإني خيرٌ من فُرسَانك، فحبَسَه، ثم استدعاه فأطلقه وبايعه، واستوثق

لابن الأشعث أمرُ الكوفة، وانضم إليه مَن جاء من أهل البصرة، وأمر بالمُرَاقبة من كل جانب، وحُفِظَت الثغور والطرق والمَسَالك.

ثم إنَّ الحجاج ركب فيمن معه من الجيوش الشامية حتى نزل «دير قرة»، وجاء ابن الأشعث بمن معه من الجيوش حتى نزل «دير الجَمَاجم»، وكان جملة مَن معه مائة ألف مقاتل.

وقدِمَ على الحجاج في أثناء ذلك أمدادٌ كثيرة من الشام، وخَنْدَقَ كلٌّ من الطائفتين على نفسه، غير أن الناس كان يَبرز بعضُهم لبعض في كل يوم فيقتتلون قتالًا شديدًا، حتى أصيب من رؤوسِ الناس خلقٌ كثير، واستمر هذا الحَالُ مدة طويلةً.

واجتمع الأمراءُ من أهل المَشُورة عند عبد الملك بن مروان، فقالوا له: إنْ كان أهل العراق يُرضيهم منك أن تَعزِل عنهم الحجاج فهو أيسَرُ مِن قتالهم وسفك دمائهم، فاستحضر عبد الملك عند ذلك أخاه محمد بن مروان، وابنه عبد الله بن عبد الملك بن مروان، ومعهما جنود كثيرة جدًّا، وكتب معهما كتابًا إلى أهل العراق يقول لهم: إن كان يُرضيكم منِّي عزلَ الحجاج عنكم عَزَلتُه، وأبقيتُ عليكم أعطياتكم مثل أهل الشام، وليَختَر ابن الأشعث أيَّ بلد شاء يكون عليه أميرًا ما عاش وعشت، وتكون إمرةُ العراق لمحمد بن مروان، فإن لم تجيبوا إلى ذلك فالحجاج على ما هو عليه، وإليه إمرَةُ الحرب، ومحمد بن مروان وعبد الله بن عبد الملك في طاعته وتحت أمره، لا يخرجون عن رأيه في الحرب وغيره.

ولما بلغ الحجاج ما كتب به عبد الملك إلى أهل العراق مِن عزله إن رَضُوا به، شقَّ عليه ذلك مشقةً عظيمة جدًّا، وعظم شأن هذا الرأي عنده، وكتب إلى عبد الملك: يا أمير المؤمنين، واللهِ لئن أعطَيتَ أهلَ العراق نزعي عنهم لا يلبثون إلا قليلًا حتى يُخَالفوك ويسيروا إليك، ولا يزيدهم ذلك إلا جرأة عليك، ألم تَرَ وتسمع بوثُوب أهل العراق مع الأشتر النخعي على ابن عفَّان؟ فلما سألهم: ما تريدون؟ قالوا: نزع سعيد بن العاص، فلما نزعه لم تتم لهم السنة حتى ساروا إليه فقتَلُوه؟ وإن الحديد بالحديد يُفَل، كان الله لك فيما ارتَأيتَ، والسلامُ عليك.

فأبى عبد الملك إلا عرض هذه الخصال على أهل العراق، فتقدَّم عبد الله ومحمد، فنادى عبد الله: يا معشر أهل العراق، أنا عبد الله ابن أمير المؤمنين عبدالملك بن مروان، وإنه يعرض عليكم كَيتَ وكَيتَ، فذكر ما كتب به أبوه معه إليهم من هذه الخصال، وقال محمد بن مروان: وأنا رسول أخي أمير المؤمنين إليكم بذلك.

فقالوا: ننظر في أمرنا غدًا، ونَرُد عليكم الخبر عشية، ثم انصرفوا، فاجتمع جميع الأمراء إلى ابن الأشعث، فقام فيهم خطيبًا، ونَدَبَهم إلى قبول ما عرض عليهم من عزل الحجاج عنهم، وبيعة عبد الملك، وإبقاء الأعطيات، وإمرة محمد بن مروان على العراق بدل الحجاج.

فنفَرَ الناس من كل جانب، وقالوا: لا والله لا نقبل ذلك، نحن أكثر عَدَدًا وعُدَدًا، وهم في ضيق من الحال، وقد حَكَمنا عليهم وذلُّوا لنا، والله لا نُجيب إلى ذلك أبدًا، ثم جَدَّدوا خلع عبد الملك بن مروان ثانية، واتفقوا على ذلك كلهم.

فلما بلغ عبد الله بن عبد الملك وعمه محمد بن مروان الخبر قالا للحجَّاج: شأنك بهم إذن، فنحن في طاعتك كما أمرنا أمير المؤمنين، وتولَّى الحجاج أمر الحرب وتدبيرها كما كان قبل ذلك، فعند ذلك برز كل من الفريقين للقتال والحرب، وجعلوا يقتتلون في كل يوم، حتى حَمَل عليهم الحجاجُ حَملة شديدة، فهزمهم هزيمة مُنكَرة، وفرَّ ابنُ الأشعث حتى لجأ إلى «رُتبيل» ملك النصارى فأقام عنده، فلما بلغ الحجاج ذلك، كتب إلى «رُتبِيل» كتابًا يقول فيه: والله الذي لا إله إلا هو لئن لم تبعث إليَّ بابن الأشعث، لأبعثن إلى بلادك ألف ألف مُقَاتل، ولأخربنَّها.

فلما تحقَّق «رُتبيل» الوَعيدَ من الحجاج، استشار في ذلك بعض الأمراء، فأشار عليه بتسليم ابن الأشعث إليه قبل أن يخرب الحجَّاج دياره، ويأخذ عامة أمصاره، فأرسل إلى الحجاج يشترط عليه ألا يقاتَل عشر سنين، وألا يؤدي في كل سنة منها إلا مائة ألف من الخراج، فأجابه الحجاج إلى ذلك، وعند ذلك غدر «رُتبيل» بابن الأشعث، فقبض عليه وعلى ثلاثين من أقربائه فقيدهم في الأصفاد، وبعث بهم إلى الحجَّاج.

فلما كانوا ببعض الطريق صعد ابن الأشعث وهو مقيدٌ بالحديد إلى سطح قصر، ومعه رجل موكَّل به لئلَّا يَفِر، وألقى نفسه من ذلك القصر، وسقط معه الموكَّل به فماتَا جميعًا، فعمد الرسول إلى رأس ابن الأشعث فاحتزَّه، وقتل مَن معه من أصحاب ابن الأشعث، وبعث برؤوسهم إلى الحجَّاج، فأمر برأس ابن الأشعث فطيف به في العراق، ثم بعثه إلى أمير المؤمنين عبد الملك فطيف برأسه في الشام، ثم بعث به إلى أخيه عبد العزيز بمصر فطيف برأسه هنالك، ثم دفنوا رأسه بمصر.

وفي هذه القصة أعظَمُ العِبَر لمن طمع بطلب شيء ليس له، ظنًّا منه أنه سيكون سببًا في سؤدده وغناه، ولم يزل يبحث عن الأسباب الموصلة إليه حتى كان سببًا في تشتت أمره، أو ذهاب نَفسِه.

○○○○○

غربة الإسلام

لقد كان الناسُ قبل بعثة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في ضلالة وشر، يتخبطون في ظلمات الجهل، ويتهاوَوْنَ في دركات الغَي، فتاهت بهم سبل الحياة، وأضاعوا طريق النجاة، وحقَّ على أكثرهم غضبُ الله ومقتُه، إلا نفرٌ يسيرٌ منهم ممن تمسك بما أمر الله به من الهُدى والرشاد الذي بعث به أنبياء بني إسرائيل، كما صحَّ بذلك الحديثُ عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حيث قال: «**إنَّ الله نظَرَ إلى أهل الأرضِ فمَقَتَهُم عرَبَهم وعجَمَهُم إلا بَقَايا من أهل الكِتَاب**»(١).

فلما أراد الله عَزَّوَجَلَّ أن ينشُرَ رَحمَته، ويُتِمَّ نِعمَته، بعث نبيَّه محمدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هاديًا ومبشرًا ونذيرًا، وداعيًا إلى الله بإذنه وسراجًا منيرًا، فجاء بالخير العظيم، وانتشر العلم والسكينة، واندحر الجهل والضلال، فأشرقت الأرضُ بنُور رَبِّها، واكتَسَت ثوب الغِبطَة والحُبور، وعمَّها الفرحُ والسرور.

وكما هو دأبُ الأنبياء قَبلَه، فقد عانَى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في أول بعثته مِن عَنَت المخالفين، وأصابه ضيقٌ ومَشقَّة، ولكنه صبر لأمر الله، حتى يبلِّغ دِينَه، ويُعلي كلمته، فكانت عاقبته الفوز والظفر، وأسبغ الله عليه نِعمَته، وأتمَّ له سعيه، ﴿وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلسُّفْلَىٰۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِيَ ٱلْعُلْيَاۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾ [التوبة:٤٠].

وقد بدا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أول أمره غريبًا في موطنه، وحيدًا بين قومه، مَن عرض

(١) رواه مسلم (٢٨٦٥).

عليه دعوته وما اختصه الله به من أمر النبوة والرسالة ردَّ عليه مقالته، رغم ما كانوا يعرفونه عنه ويشهَدُون له به من الصدق والأمانة، فاشتدت بذلك غربته وغربة الدِّين الذي جاء به بين قومٍ لم يعرفوا له قَدرَه، وما يقودهم إليه من السعادة والنجاة وحُسن العاقبة في الدارين.

ولمَّا كتبَ اللهُ التوفيق لمن شاء من عباده فقد استجابوا لدعوة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وصدَّقوه فيما يُخبِر به ويدعو إليه، ولكن لم يستجب له في أول أمره إلا الواحد بعد الواحد من كل قبيلة، وكان أحدُهُم يأتي وهو خائفٌ من أذى عشيرته، فقد كانوا يُؤذُون مَن أسلَمَ منهم غاية الأذى، ويمسُّونه بأنواع العذاب البدني والنفسي، وهو صابر على ذلك طمعًا فيما عند الله من حُسن العاقبة، وبلغ الأذى بالمسلمين أن يُطرَدُوا من بلادهم فيُشرَّدون في بقاع الأرض، أو أن يُقتَّلوا، فلا قوة لهم ولا ناصر، وقد ابتَلَى اللهُ عبادَه، فصبر مَن صَبَر، فكُتِب له فضيلة السبق.

ولم يزل الناس في تتابُع حتى انتشر الإسلام وقَوِيَت شوكَتُه وسطع نوره، ودخل الناس في دين الله أفواجًا، وأكمل لهم الدين، وأتَمَّ عليهم نعمته، ولم يزالوا في غاية من الثبات والاستقامة على دينهم، حتى يلحق به النقص والخلل في آخر الأزمان، وهذا مصداق ما أخبر به النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حيث قال: «**بدأ الإسلامُ غَريبًا وسيعود غَريبًا كما بدَأ، فطُوبى للغُرباء**»[1]، فقد بدأ الإسلام في أفرادٍ من الناس وقِلَّة، ثمَّ انتشر وظهر أمره حتى لم يبقَ بيت حاضرة ولا بادية إلا دخَلَه، ثمَّ يعود في آخر وقته غريبًا بين الناس، فتتغَيَّر معالمه ورسومه، ويضعف

(١) رواه مسلم (١٤٥).

التمسك به، حتى تشتَدَّ غُربة مَن تمسك بأقل القليل منه، ولله الحِكمَة البالغة فيما يقضيه ويقدره، ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا﴾ [يونس:٩٩]، ولكنه سبحانه حكيم في أفعاله، عليم بالحال والمآل.

ولا يعني أنه إذا صار الإسلام غريبًا كان المتمسك به في شَر، بل هو أسعَدُ الناس، ويَدُل عليه قوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في تمام الحديث: «**فطوبى للغُربَاء**»، وطوبَى: هي العيشُ الطيِّب، وذلك أنَّ المتمسك به حال غربته في آخر الأزمان يكون من جنس السابقين الأولين الذين اتَّبَعُوه لَمَّا كان غريبًا، وهم أسعد الناس وأعلى الناس درجة في الآخرة، وقد كتب الله عَزَّوَجَلَّ لهم النصر والظفر والتأييد والظهور، كما قال صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لا تزالُ طائفة من أمتي ظَاهِرين على الحَق، لا يَضُرهم مَن خَالفَهُم ولا مَن خَذَلهم حتى تقوم الساعة**»(١).

فلا تزال تلك الطائفة -رغم غُربَتها- ثابتة على الحق منصورة، لا يَضُرها تخذيل مُخَذل، ولا عِناد مُخَالف، وكلما عظمت غربة الإسلام بانسلاخ بعض أهله منه، وضعُف تمسُّكُهم بتعاليمه، قيَّض الله له تلك الطائفة المنصورة فتجاهد في إرساء قواعده ونشر تعاليمه، وتَبيين هَديه، وإحياء ما خفي منه، وكان من مِنَّة الله تعالى عليهم أنِ اصطَفَاهم لإقامة دينه إذا ارتد عنه أولئك أو تخاذَلُوا عن نصرته، ورزقهم محبته التي تُنسِيهم كل مُصاب وشدة، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ﴾ [المائدة:٥٤].

وقد عَظُمت شِكايةُ السَّلف الماضين من شدة الغربة، وما حصَل في زمانهم

(١) رواه البخاري (٦٨٨١)، ومسلم (١٩٢٠).

من التغَيُّر عمَّا كان في عهد النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

قال ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «ذهب صفو الدنيا فلم يَبقَ إلا الكَدر، فالموت اليوم تُحفَة لكل مسلم».

وقال أويس القَرنِي رَحِمَهُ اللَّهُ: «إنَّ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لم يَدَعَا للمؤمن صديقًا، نأمُرُهم بالمعروف فيشتمون أعراضنا، ويَجِدُون على ذلك أعوانًا من الفاسقين، وايمُ الله لا أدع أن أقوم لله فيهم بحَقِّه».

وقال الحَسَن البَصري: «ما لي لا أرى زمانًا إلا بَكيتُ فيه، فإذا ذهب بكيتُ عليه».

وقال رَحِمَهُ اللَّهُ: «المؤمن في الدنيا كالغريب، لا يجزَعُ من ذلِّها ولا ينافس في عِزِّها، للناس حال وله حال، الناس منه في راحة، وهو من نفسه في تَعَب».

قال الإمام ابن بطَّة العُكبَري: «فاستَمعُوا إلى كلام هؤلاء السادة من الماضين، والأئمة العقلاء من علماء المسلمين، والسلف الصالح من الصحابة والتابعين، هذه أقوالهم والإسلامُ في طرافةٍ ومطاوعةٍ وعُنفوانِ قوته واستقامتِه، والأئمة راشدون، والأمراءُ مُقسِطون، فما ظنكم بنا وبزمانٍ أصبحنا فيه وما نعانيه ونُقَاسيه، ولم يَبقَ من الدين إلا العَكَر، ومن العَيشِ إلا الكَدَر».

ولا يزالُ أهلُ الحق غُرَباء بين الناس، وكلما كانوا أكثر تمسُّكًا بالعبودية لله وحده، وأشدَّ اتباعًا لسُنَّة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وما كان عليه الصحابة الكرام البَرَرَةُ؛ ازدَادَ بهم الكرب، وضُيِّقت أمامهم السُّبل، ورُموا بالتهَم والأباطيل، وصاروا فُرادى بين الجماعات المُخَالفة المتكاثرة، وقد اختطت كل جماعة لنفسها سبيلًا قائمًا على الهَوَى، مخالفًا للهُدَى، فإذا جاءهم مَن يدعُوهم إلى الحق، رأوا أنه جاء

ببِدعٍ من القول، وغَرَّتْهُم كثرتهم ظنًّا منهم أن الكثرة دليل على سلامة الطريقة، وما علِمُوا أنَّ أهل الحق قليل بين الناس، وقد جاء بيان ذلك في قول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**طوبَى للغُرباء**، فقيل: مَن الغرباء يا رسول الله؟

قال: **أُناسٌ صالحون قليل في ناس سوءٍ كثير، مَن يَعصِيهم أكثر ممن يُطِيعُهم**»(١).

وقد كان هذا مُقرَّرًا لدى السلف الصالحين، حتى قال ابن مسعُود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «اسلُكوا سبيل الحق، ولا تستَوحشُوا من قِلَّة أهله».

وقال الحسَنُ البصري رَحِمَهُ اللَّهُ: «السُّنة واللهِ الذي لا إله إلا هو بين الغالي والجافي، فاصبِرُوا عليها رَحِمكم الله، فإنَّ أهل السنة كانوا أقلَّ الناس فيما مضى، وهم أقل الناس فيما بَقِي، الذين لم يذهبوا مع أهل الإتراف في إترَافِهم، ولا مع أهل البدع في بدعهم، وصبروا على سُنَّتهم حتى لقُوا ربَّهم، فكذلك فكونوا».

وأكثر ما يزيد غربةَ أهل الحق، ويجعل مَهمَّتهم غاية في الصعوبة، حين يتوارث أهلُ الباطل بَاطِلَهُم جيلًا بعد جيل، وزمنًا بعد زَمَن، وفي ذلك يقول عمر ابن عبد العزيز رَحِمَهُ اللَّهُ: «ألا إنِّي أعالجُ أمرًا لا يُعين عليه إلا الله، قد فَنِي عليه الكبير، وكَبر عليه الصغير، وفصح عليه الأعجمي، وهاجر عليه الأعرابي، حتى حَسِبوه دينًا لا يَرَون الحقَّ غيره».

وقال سهل بن عبد الله: «عليكم بالأثَر والسُّنة، فإني أخافُ أنه سيأتي عمَّا قليل زمانٌ إذا ذَكرَ إنسانٌ النبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ والاقتداءَ به في جميع أحواله، ذمُّوه ونَفَّروا عنه وتبَرأوا منه وأذلُّوه وأهَانُوه».

---

(١) رواه أحمد (٧٠٧٣)، وهو صحيح، انظر: «صحيح الترغيب والترهيب» (٣١٨٨).

ومن أجل ذلك فقد عَظُم الأجر لمن تمسَّك بالحق عند تغير أحوال الخلق، وبُشِّر بالعيش الطيب والحياة الكريمة، فقد جاء في حديث النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه قال: «**إنَّ الإسلامَ بدَأ غريبًا، وسيَعود غريبًا كما بدأ فطُوبَى للغرباء**. قيل: ومَن هم يا رَسُول الله؟ قال: **الذين يَصلُحُون إذا فسَدَ الناس**»[(١)].

ولا تزال الغُربة تُحكِمُ قبضتها وتشتد على الصالحين، حتى يكون المتمسكُ بدينه كالقابض على الجَمر، من شِدَّة ما يُصيبه من الآلام والشدائد والأذى، وذلك لغربته بين أهل الباطل والزَّيغ والانحراف، الذين اتبَعُوا أهواءهم، وأُعجِبَ كلٌّ منهم برأيه، وقد أشار النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى ذلك الزمن، مسليًا لمن عظم بلاؤه واشتدت غربته، وحاثًّا له على بذل الكثير من الصبر، ومبيِّنًا له سبيل النجاة والسلامة، ومُبَشِّرًا له بالأجر العظيم، فقال: «**إنَّ من ورائكم أيامَ الصَّبر، الصبر فيهن مثل قبضٍ على الجَمر، للعامل فيهن أجر خمسين رجلًا يعمَلُون مثل عمَله**. قيل: يا رسول الله، أجر خمسين رجلًا منَّا أو منهم؟ قال: **بل أجرُ خَمسين مِنكُم**»[(٢)].

وهذا من أعظم ما يُسَلِّي المسلمُ به نفسَه، وتنبيه لمَن أراد أن يسلك جادَّة الحق، أنه إذا أراد أن يمضي قُدُمًا فلا بدَّ أن يتجمَّل بالصبر، وأن يتوقع الشدَّة والأذى، وأن يُوطِّن نفسَه على قدح الجُهَّال وأهل الغواية، وطعنهم فيه، وتنفير الناس منه، وأن يعلم أنه كلما كان أكثر تمسُّكًا واتباعًا لهَدي النبوَّة كان أكثر غُربَة.

---

(١) رواه أحمد (١٦٦٩٠)، وهو صحيح، انظر: «سلسلة الأحاديث الصحيحة» (١٢٧٣).

(٢) رواه أبو داود (٤٣٤١)، وهو صحيح، انظر: «صحيح الترغيب والترهيب» (٣١٧٢).

ومن عاش في أزماننا هذه، عايَن الغربة حقَّ المُعاينة، ولمَسَها واقعًا يقينًا دون شك، حيث تغيَّرت أحوال الناس، وتفرقت بهم السبل، واختلفت المَشَارب والأهواء، وتعددت المذاهب والآراء، وظهر الباطل ملتبسًا بصورة الحق، وكثر الجهل، وضَعُف العلم بالشريعة، وكثر أدعياء العلم فلبَّسوا على الناس أمر دينهم، وقادوهم إلى وادٍ سحيق من الضلالة والغِوَاية، حتى برزت أعظم معالم الغُربة بتحريف العقيدة الصحيحة، وابتعاد كثير من الناس عن التوحيد إلى الشرك، والانصراف عن عبادة الخالق إلى عبادةِ المَخلوق، فمِن متعلق بوثن، ومن عابدٍ لحيوان، ومن صارفٍ للعبادة لمن يزعم أنهم أولياء، حتى إنك لتجد عند هؤلاء المشركين من الإخبات والخشوع أمام هذه المعبودات، ما لا تجده منهم حين يقومون لله رب العالمين، حيث يقفون أمامها خاشعين من الذلِّ ينظرون من طرفٍ خفي، لا يُحِدُّون إليها النظر من خوفها ومَهَابتها؛ لِمَا استقر لها في قلوبهم من الذل والخضوع والانكسار!

فإذا جاء مَن يدعوهم إلى التوحيد ويَرُدهم إلى عبادة الله وحده، قامت قيامتهم، فناصبوه العداء، وكادوه بكل سبيل، فعاش بينهم غريبًا في اعتقاده لِفساد عقائدهم، وأعظِم بِها من غربة!

ومِن صُوَر الغُربة التي تتكرر في كل زمن، وإن كانت في أزماننا هذه أكثر ظهورًا وأشد أثرًا: انحرافُ كثير من الناس عن اتِّباع السنة النبوية والهَدي النبوي، بل وزاد الأمر شدة أن حارب كثير منهم السُّنة، وتعامل معها بالكَرِّ والفَر، وإلقَاء الشُّبَه حولها، وفي ذلك أعظم الفجيعة؛ لأنَّ أكثر المسائل العقدية التفصيلية، والأحكام الشرعية لا تُعرف إلا من خلال السُّنة النبوية، وفي ذلك يقولُ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

«**ألا إنِّي أوتيتُ القرآن ومِثلَه مَعَه**»[١].

وأعظم ما يَقُود إلى الانحراف عن السُّنة: دعاة السوء، الذين يلبَسُون لباس الدين وهو منهم بَرَاء، ويطلقون على أنفسهم وصفَ «المُفكر الإسلامي»! ونحو ذلك من المُسَميات، ثم يقومون بالحَمَلات الشنيعة على الدين، ويُحَرِّفون الكلم عن مواضعه، ويُثِيرون الشُّبَه التي تجعل المُتَلقي في دائرة الشك والاضطراب، ويُجَرِّئون الناس على انتقاد السنَّة وحَمَلتها بكل صَفاقة وقلَّة حياء، ويدفعونهم للاستهزاء بالمُتَمسك بها، وإظهار المتبعين لها بصورة المتخلِّف الذي لا يستطيع توجيه الأمَّة نحو التقدم، ولا مواكبة عصره الذي يعيش فيه.

وقد حذَّر السلفُ غايةَ التحذير من الانسلاخ عن السنَّة، وأكَّدُوا على لزوم التشبُّث بها؛ لعِلمِهم بما يترتب على تركها من السقوط الكبير والشَّر المُستَطير، وضَعف الدِّين وانحساره، حتى تَفنَى قُوَّته وتُنتقض عُرَاه، كما قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لتُنقَضن عُرى الإسلام عُروة عُروة، فكُلما انتقضت عروة تشبَّث الناسُ بالتي تليها، فأولُهُنَّ نقضًا الحُكم، وآخرهن الصَّلاة**»[٢].

قال عبد الله بن الديلمي: «إنَّ أول ذهاب الدِّين ترك السُّنة، يذهب الدِّين سُنَّةً سُنَّة، كما يذهب الحَبلُ قوةً قوةً».

وقال ابن عبَّاس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «ما يأتي على الناسِ زمانٌ إلا أحدَثُوا فيه بدعَة وأماتوا سُنة، حتى تحيَا البِدَع وتموت السُّنَن».

وقال رجل للإمام مالِكٍ: «أُحرِمُ من مسجد النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أو من ذي الحُلَيفَة؟

---

(١) رواه أحمد (١٧١٧٤)، وهو صحيح، انظر: «مشكاة المصابيح» (١٦٣).
(٢) رواه أحمد (٢٢١٦٠)، وهو صحيح، انظر: «صحيح الترغيب والترهيب» (٥٧٢).

قال: بل من ذِي الحُلَيفة، قال الرجُل: فإني أحرمت من مسجد النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقال مالكٌ: لا تفعل، فإني أخاف عليك الفتنة. قال الرجل: وأيُّ فتنة في ذلك؟ فقرأ مالكٌ قَولَه تعالى: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾﴾ [النور:٦٣]».

وفي هذا الزَّخَم الكبير من الانحِراف عن السُّنَّة، لك أن تتخيَّل حالَ مَن يَدعُو إلى الاتباع والتمَسُّك بما كان عليه النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأصحَابُه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، فهو الغريبُ حقًّا، والقابض على الجَمر صِدقًا، قالَ القاسِمُ بن سلَّام: «المُتبع للسُّنة كالقابض على الجَمر، وهو اليوم عندي أفضَلُ من الضرب بالسُّيوف في سبيل الله».

ومن صُوَر الغُربة الظاهِرَة: ما يحدث في المُجتَمعات من ضعف القِيَم وانحطاط الأخلاق، حتى صار تناول الانحرافات من نوع المألوف، وجُنِّد لنشرها أقوامٌ قلوبهم قلوب الذئاب في أبدان إنس، فلا زالوا يعمَلُون على نشرها وإغراء الناس بها، وضَعُفت العقول حتى إنك لترى المرء ذا هيئة وسَمتٍ، ثم ما يلبث إلا وقد تغيَّر طبعُه وانحدر خُلُقه، بسبب ما يُفتح عليه من الدنيا، وضَعُفَ الحياء حتى صار المنحرفون يتعاطَوْن مُنكراتِهِم على مرأى ومسمع من الناس، بلا رادع من دين، ولا زاجرٍ من شِيَم، بل وبدأوا يتناولونها وكأنها من المُسَلَّمات، ويُوحُون لكثير ممن يسمعهم ويغتَرُّ بهم أنَّ المجتمع يتقبل ذلك ولا يُنكره.

ولا يُنكَر في هذه القضية المُؤلمَة دور وسائل التواصُل المرئية والمسموعة، التي أبرزت السفهاء وضِعافَ العقول كقُدوات، وقامت بدَعمِهم بكل سبيل وحيلة، وغَزَت ثوابت المجتمع، وطُرِحَت على الناس كثيرٌ من القضايا المُقَزِّزة لتكون من نوع المألُوف نظرًا وسماعًا، حتى تفشَّت المنكرات ونَهشت قلب

المجتمع وهاجمت أركانه، وبدأ به الخَلَل والاضطراب، وإذ به يتَرنَّح مَخَافة أن يسقط ما بقي منه من ثَوَابت لا زال يتمسَّك بها قِلَّةٌ من الناس نِسبةً لِمَا يقابلهم من الكثرة المتكاثرة من المنحرفين، وتراهم يبذلون جهودًا مضاعفة بُغيَة السلامة والصبر على دينهم حتى تُقبض أرواحهم وهم في عافية وسلام.

ولا عجب حين تنتشر تلك المظاهر الشنيعة من الفساد الأخلاقي أن يكون منكرها غريبًا بين أفواج الفاسدين، فإذا حذر منها ونبَّه الناس على شرها، صار وكأنه جاء بِبِدعٍ من القول ومُحدثٍ من الفعل!

ولا تزال هذه الغُربة باشتداد والناس في تغيُّر وانسلاخ، حتى يأتي زمان يُنسى فيه اسم الله، وينطفئ نور الهِدَاية، وتغيب مَعَالم الدِّين الذي يَقُود الناس إلى ما يُصلح أحوالهم، وهنالك ينتشر الشرُّ حيث يعيش الناس أسوأ من حياة البهائم العَجْمَاوات حتى يأتي أمرُ الله وهم كذلك، وقد أشار النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى ذلك بقوله: «**لا تَقُوم الساعةُ حتى لا يقَالَ في الأرضِ: الله الله**»(١).

ومَن صَدَّق بمَوعُود الله وعَلِم أنَّ ذلك إنما يجري بحِكمة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ ارتاحت نفسُه رغم ما يرى ويُعايش من شِدَّة البلاء، وعليه أن يكون دائم الدعاء لله سبحانه أن يُنَجيه من الفتن، وأن يُثَبته على دينه الحق حتى يلقاه، وقد كان من دعاء النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قوله: «**يا وَلِيَّ الإسلامِ وأهلِه، ثبِّتني بِه حتى ألقَاك**»(٢).

○○○○○

(١) رواه مسلم (٢٣٤).

(٢) رواه الطبراني في «الأوسط» (٦٦١)، وهو صحيح، انظر: «سلسلة الأحاديث الصحيحة» (١٨٢٣).

معاولُ هدم الأسرة

مَن نَظَر إلى الأزمات التي تَمُر بنا في هذه الأزمان، وتأمل بها بِعَين البصيرة؛ أخذه الخوفُ والوَجَل، ورجع حائر الفِكر، متأرجح العَقل، تعظُم حَيرَتُه مما يرى، ولا يصدِّق ما يسمع حتى يراه واقعًا أمامه ومن حوله، فيَعظُم خوفه على نفسه من الفتن، ويشغله شأنُ مَن تحت يدِه من أهله وذَوِيه.

فالأمواج عاتية، والمَرَاكب ضعيفة، والثبات صعب، وإلى الله المشتكى.

لقد كانت الأسرة المُسلِمة تنعم بالتماسك والعاطفة؛ ولذلك عَظُم نجاحُها، فأخرجت صورًا بهيجة في التمسك بالدين والأخذ بمَجَامع الأخلاق، ومن أجل ذلك، ولعلم الغَرب الكافر بشأن الأسرة ودورها في ثبات الأمم، لم يزالوا يضعون الخطط والألاعيب لتدمير المسلمين، من جهة ضرب مجتمعهم وأسرهم، ويَسُنون القوانين والمُقتَرحات من أجل ذلك، بل وينصرونَها بقوانين ظاهرها الاختيار، وباطنها القَسْر والإجبار وعدم السَّماح بمُحَاسبة المُخطئ والمتخطي لأسوار الفَضِيلة والعفاف.

وما نراه في هذه الأزمان من تَشَبُّه الرجال بالنساء، وتشبه النسَاء بالرجَال، لَهُوَ من هذا النوع، حتى أصبح في بعض المجتمعات من نوع المَألُوف، فيُنظَر إليه من غير إنكار ولا اشمئزاز!

إنَّ تمكُّنَ مثل هؤلاء في المجتمعات لَهُو المرضُ العُضال، الذي إذا تفشَّى أهلك الجسد المتمثل بالمجتمع المتماسك المحافظ على الفضائل، وغيَّر

تركيبة البناء المجتمعي حتى ينتج عن ذلك أمَّةٌ ليست بشيء؛ بل مُجَرد صورة، لا أمَّ تأوي طفلًا، ولا ذَكَر يحمي امرأة، وكيف يقوم بذلك وهو فاقِدٌ صفاتِ الرجُولة؟! وهل يحمي النساءَ إلا الرجالُ؟!

لقد قام أهل الكُفر بتشجيع الشواذ وتقديمهم في المَحَافل حتى يكونوا قدوات، ونقلوا هذه الصورة إلى المجتمعات المسلمة، فسارع إليها بعض المفتونين، لا من باب الشبهة والغَفلة، ولكن لأنَّ كثيرًا منهم يتبنى هذا الفكر لأنه من أهله، أو عن قنَاعَة وانحِطَاط.

وانظر حولك في المَعَارض التي تُعقد للتجارات والأعمال ونحوها، تجد المتشبهة بالرجال التي تمشي بين الناس بلا خجل ولا وَجَل، لتقول للناس بلسان حالها: هذا أمرٌ مألوفٌ وعادي!

والمصيبة أنْ جُعِل مثل هؤلاء قدوات للمجتمع، وبُيِّن للناس أنَّ ما يقومون به بابٌ إلى الثراء والشهرة، ويتبعهم في ذلك ضِعافُ العقول تتَابُع الفَرَاش على النار، بلا وعيٍ ولا إدراك، ولا تنبيه من عاقل يأخذ بأيديهم إلى حيث معرفة الحقيقة.

إنَّ المصيبة عظيمة، والجُرح دَامٍ وعميق، والخوف من المستقبل -إذا لم ينقذنا الله سبحانه- بدأ يُحَاصر كل عاقل يَخَاف على مجتمعه.

لقد لَعَن النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ المتشبهين من الرجال بالنساء، والمتشبهات من النساء بالرجال[1].

وجاء عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أنه قال: «لَعَن رسولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ المُخَنَّثين

(١) رواه البخاري (٥٥٤٦).

من الرجال، والمُتَرَجِّلات من النساء»[١].

والتَّخَنُّث: هو التأنُّث والتخلق بأخلاق النساء حركةً أو هيئةً أو زِيًّا أو كلامًا، فتراه يلبس كما تلبس النسَاء، ويتكلم كما تتكلم النساء، ويُقَلِّد حركاتهن، وكذلك المُتَرجِّلة من النساء التي تلبس ما يختص بالرجال، أو تتكلم ككلامهم، أو تصنع بجِسمِها ما يكون عليه الرجال.

فإذا كان هذا الوعيد الشديد بمُجَرد التشبُّه، فكيف إذا كان الأمر قد تعدَّى إلى أكثر من ذلك؟ وهل تظن أنَّ الله يلعن هؤلاء وأمرُهم سهل ويسير؟

إنَّ هؤلاء يعمَلُون جاهدين أن يُغَيروا تركيبة المُجتمع الفطري؛ إذ كيف يبني ذَكَرٌ مُخَنث أسرةً قوية، ويعبر بهم إلى بر الأمان، وهو غير قادر على المحافظة على نفسه وحمايتها.

كيف يُحافظ على زوجته وهو لنَفسِه أضيع؟ كيف تستند إليه وتَرَاه رُكنًا شديدًا تأوي إليه؟

وهل تستطيع تلك المُتَرجِّلة أن تستشعر فطرة الأنوثة التي لا تكتمِلُ شخصيتها إلا بها؟

كيف ستعيش شُعور الأمُومة؟ هذا إن تزوجت أصلًا!

والمُصيبة العُظمى أنَّ هذه الأشكال الشاذَّة لن يَسعَوا إلى تكوين أسرة أصلًا، بل مع الوقت يكتفي بعضهم ببعض، ويكونون كأمثالهم في المجتمعات المُنحَلَّة، ولكنهم ينتظرون درجات الذوبان الكُلي للمجتمع الذي يعيشون فيه، حتى يتقبلهم المجتمع بالصورة التي هم عليها.

---

(١) رواه البخاري (٥٥٤٧).

إنَّ الوضع مُؤلِم وحَزين ومُحَيِّر، ويجعل الإنسان يستشعر الغربة حتى من ثيابه، وحين يُقَلِّب النظر في الدنيا يراها في كل يوم تتجه نحو الانحدار، فلا مَجَال للتفاؤل، والثبات صَعب على الصالحين والمُصلِحين.

لقد ضَجَّ الإعلام لسَنَوات عديدة بكثير من الأفلام والمسلسلات التي تُرَوِّج للشذوذ والفاحِشَة، من مسلسلات أجنبية مترجمة ومُدَبلجة، وهذا الظاهر الذي أصبح عند الكثير ليس من المستنكر النظر إليه، فما بالك بأفلام الدعارة والإباحية، التي جعلت الكثير ممن ينظرون إليها يريدون تطبيق ما يرون حتى مع أزواجهم ومَحَل عِفَّتهم، فينتقل الرجل العاقل إلى زاوية السَّفَه، حتى يتحول في معامَلتِهِ مع امرأته إلى مُنحَل يريد تطبيق ما يرى، فضلًا عن وَطْءِ الزوجة في المكان المحرم الذي لُعِن صاحِبُه، وقد قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لعَن الله مَن أتى امرأةً في دُبُرِها**»[1].

الوضعُ خطير، الشباب يَحتاجون إلى وعي، فإذا انتشر التشَبُّه بين الجنسين في المجتمعات، أدى ذلك إلى الدياثَةِ واستغناء الجنس الواحد بعضه ببعض، فتنهار الأمة فلا تجِدُ مَن يدافع عنها أمام الأعداء؛ لأنَّ أمثال هؤلاء غير قادرين حتى على حماية أنفسهم حيث سَلَّموها مُطَاوعين.

ولذلك لا بُدَّ من التنبيه والتنَبُّه والحَذر الشديد حتى لا يُسرَق الأبناءُ في ساعةِ غَفلة، لا ينفع بعدها البكاء والنَّدم.

يجب تعليمُ الشباب الخُشُونة، والتعامل مع النِّعَم باعتدال، والبُعد عن التَّرف الذي يقود إلى الأنوثة، حتى تستطيع أن تستمتع بهذا الشاب وتعتَمدَ عليه، وتستند

(١) رواه أحمد (١٠٢٠٦)، وهو صحيح، انظر: «صحيح الترغيب والترهيب» (٢٤٣٢).

الأسرة إليه، وقد جاء في حديث النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ قوله: «**لا تَقُوم الساعة حتى يكون لخَمسينَ امرأة قَيِّم واحد، وذلك لكَثرَة النساء وقِلَّة الرجَال**»[1]، **والقَيِّم**: هو الرجلُ الذي يقوم على الأسرة، فكيف هو الحَال إذا كان القيم يحتاج إلى من يَقُوم به؟!

يجب تربيةُ الشباب على الرجُولة، مع التوجيه بالحسنى، ولذلك لو رأيتَ ابنك مُتَعلقًا بالبَرية، وله أصحاب بهم خشونة وأدب ويتنزه معهم في هذه الأماكن، فلا تخذُلْه ولا تنهَرْه، فقط وجِّهه، فهذا أفضَلُ من المُتَنعم الذي يضَعَ أحمر الشفاه على شَفَتيه، ويضع المكياج بحجة أنه مكياج خاص بالرجال، على أنَّ هذا الفعل ليس من فعل الرجَال.

الرجولة ليست باستعمال البروتينات من أجل أن يُصبِح مُجَسَّمًا مُعَضَّلًا، وهي في الوقت ذاته ومع مرور الزمن تجعَلُه غير قادر على النسَاء!

الرجُولة باختصَار: هي أن يجد الناسُ السندَ ومَن يقومُ بهم إذا احتاجوا إليه.

لا شك أنَّ الوضع حزين ومُؤلم، فقد بدأت المسائل بتشَبُّه الشباب بالفتيات في طريقةِ المكياج، وربطةِ الشعر بالمَسَّاكة مع إطالته وجعله كضفائر النساء، ثمَّ تحولت بعد ذلك إلى نساء بأسماء رجال، حتى آلت إلى شباب بلا شَرَف، قد انتشر بينهم عملُ قوم لوط، وعادوا إلى أخلاق البهائم والحيوانات، وأصبح هذا المسخُ مكسورَ العَين، يمشي وكأنه لم يصنع أمرًا مُخِلًّا، وقد حذَّر النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ أمَّتَه من هذا الفعل الشنيعِ فقال: «**إنَّ أخوفَ ما أخَافُ عَلى أمَّتِي من**

(١) رواه البخاري (٤٩٣٣)، ومسلم (٢٦٧١).

عملِ قَوم لُوط»[1].

ولك أن تتخيل واقعًا يكثر فيه هؤلاء الشواذ، فمن يعفُّ النساءَ العفيفات، ومَن يَحميهن، ومَن يَخَافُ عليهن؟

إنَّ المسلم -وعلى مَرِّ التاريخ- كان يُجَاهِدُ دون إسلامه وشرفه، ولذلك لمَّا علم الكفار بذلك، وعجَزُوا عن سلخ المسلمين من دينهم، بدأوا بالدخول عليهم من خلال أخلاقهم وشَرفِهم، حتى إذا كَثُرت الدياثة والانحلال سَهُلَ الاستيلاء عليهم، قال تعالى: ﴿وَدُّواْ لَوۡ تَكۡفُرُونَ كَمَا كَفَرُواْ فَتَكُونُونَ سَوَآءٗ﴾ [النساء:٨٩].

والعربُ -حتى قبل الإسلام- كانوا يُحَاربون دون العِرض والشرف، ويقاتلون دون ذلك، ولم يزل سليمُ الفطرة على ذلك حتى يأذَنَ اللهُ بقبض رُوحِه.

وكان أهل البادِيَةِ -على ما عِندهم من الجهل بأحكام الشَّريعة- مُقَدِّسين لمَسَائل الأخلاق والشرف، بَعيدِين عن الخيانة والدَّنَس؛ لأنهم يعلمون أنَّ المرء لن تبقى رجولَتُه حتى يُحَافظ على شرفه وعِزِّه وأهل بيته.

لما جالَ المؤرخُ التركي أيوب صبري باشا في الجزيرة العربية، أعجَبَه ما رأى من غَيْرَتِهم وحفاظهم على شرفهم وأعرَاضِهم، فدوَّن في كتابه «مِرآة الجزيرة العربية» من مآثرهم ما رآه فخرًا لكل عربي، **فكَان ممَّا قاله**: «لِقَبائل العرب التي توطَّنت في جزيرة العرب شُعَبٌ كثيرة، ومن الملاحظ أنَّ أفرادَ أي أمةٍ كيفما كانوا يسعون لكمال قوة عصبتهم، وبقاء شرفهم، وخلود عزتهم، ويناضلون بدافع الغيرة الوطنية والقومية للوصول إلى أهدافهم السامية، وسلكت القبائل العربية أيضًا نفس الطريق وكافَحَت نفس الكفاح».

---

(١) رواه أحمد (١٥٠٩٣)، وهو صحيح، انظر: «صحيح الترغيب والترهيب» (١٥٣٤).

وقال: «وكان الأعراب لا يهَابُون أي تضحيَةٍ في سبيل مسألة الشرف، وهذا يدل على اشتداد غَيْرَتِهم وحَمِيَّتهم، ولا يَعرفُ أحَدٌ من الأعراب معنى الفاحِشَة»[1].

فلا بُدَّ من المُحافظة على الشَّرف، فإنه إذا هانَ، هان ما بَعدَه.

ومَن تأمَّل في التصرفات المُخِلَّة في المُجتَمعات؛ مِن تَعَرِّي البنات الصغيرات، والتجولِ في الأسواق وَحيدَات، أيقن أنه قد هانت المُروءة، وفُقِد المُوَجِّه، وأنه قد انشغَلَ كثير من الناس بذات نفسِه عن أولاده، حتى وقَعَت الخَسَارة.

لا بُدَّ أن نعرف أن الأمر له ما بعده، والقضية لن تقِفَ عند حدٍّ، والشذوذ هو بداية لكل انْهِيار: مخدرات، انحلال، مُسكِرات، غُربة مجتمعية، كَثرَة الخصومات، وغير ذلك من أبواب الشر التي ستُفتح.

ولا نُؤَوِّل لهؤلاء المُنحَرِفين كما يفعل بعضُ مُرَوِّجي السَّفه فيجعل القضية دائمًا محصورة بتغير هرمونات الجسم، فهذا غير صحيح، بل بسبب إعلامٍ موجَّه مُمَنهَج لاختِرَاق المسلمين وإضعافهم، وتشتيت المُجتمع بُغيَة تدميره.

ومن المُهم تنبيه الفَتَيات على ما يُراد بِهِن من الشَّر، وبيان الخَطَر المُحدِق بهن؛ لأنهن الحَلقَة الأضعف، فكيف ستكون أمًّا إذا تقَدَّم الزمن، ومَن يقوم بها؟

ففترة الطَّيش ستَمُر كأنها حُلم، والحياة سريعة الأحداث، مُتَلاحقة الوقائع، فإذا كَبَرَت كيفَ ستُعيد ترتيب المَاضي والتخَلص من شخصيةٍ أَلِفَتْها؟

والواجبُ على مَعَاشِر الآباء أن يَعلَمُوا مِقدار المَسؤولية المُلْقَاة على عواتقهم،

(١) «مرآة الجزيرة العربية» (ص٢٧٣).

احرِصُوا على أبنائكم وبناتكم، اجلِسُوا معهم فَهُم رأس المال، خُذ الولَدَ معك إلى مجتمعات الرجال، لا ترفع لِوَاء: «أنا مشغُول»، فكثير منا لا عمَل لديه ولا شُغل ولا بمُعَدل رُبع اليوم على الأقل، فخَصِّص لهم منه ما يكون سببًا في إنقاذهم وحمَايةِ الأسرة والمُجتَمع.

لا تتركوا الأبناء في أحضَان سُفهاء الإنتَرنِت والمَقاطع التي لا تزيدهم علمًا ولا أدبًا، ممن يتشَبَّه بأخته ويُرَاقصها على برامج التواصل المرئية، ويتحداها في طريق التجمُّل حتى لا يُعلَم أهو البِنتُ أم هي!

قلِّلوا جلسة الأولاد مع البَنَات في البيت، كَلِّفوهم بالأعمال ليَشعُروا بالمَسؤولية دون إثقالٍ عليهم.

وعلِّمُوهم أنَّ كثيرًا من الموضوعات لها خصُوصيَّة، فلا يصلُحُ للرجال ما يصلح للنساء، ولا يصلح للنسَاء ما يصلح للرجَال.

ومما لا بُدَّ أن يفعله المُسلم: كثرَةُ اللجوء إلى الله، والدعاء بالستر والعافية، والعلم بأنَّ الفتنة إن لم يدفعها الله عنه كان هو من ضَحَاياها.

نسألُ اللهَ تعالى العافية في الدنيا والآخرة، وأن يُحيينا على الإسلام ويُثَبتنا عليه إلى أن نلقاه.

○○○○○

أسباب زوال الهموم والغموم

الهموم والغُموم من أكبَر مُنَغِّصات السَّعادة، مَن دخلت حياته ضيَّقت عليه بحبوحة العيش، وحَرَمته الراحة، وشَدَّدت عليه كل يسير، وعانى كل أمر عسير.

وهي واردةٌ على قلوب البشر، ولا بدَّ أن تأخذ نصيبها منهم، ولم يسلم منها حتى أعظم الناس منزلة، وهم الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، الذين اصطفاهم الله بالوحي وخصَّهم بالرسالة، قال تعالى مخاطبًا نبيه محمدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ﴾ [الأنعام:٣٣]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾﴾ [الحجر:٩٧].

ولمَّا لَقِيَ النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِن قومه في أول دَعوته عنَتًا ومشَقَّة، خرج إلى أهل الطائف داعيًا إلى الله، طمَعًا في هدايتهم، فردُّوا عليه قوله، وآذَوه، وسَلَّطوا عليه صِغَارَهم وسُفهَاءَهم، فرجع ماشيًا وقد أطبَقَ الهَمُّ عليه، حتى إنه لم يَنتَبه إلا وقد قارب قَرنَ المَنَازل -وهو المِيقات المسمَّى بالسَّيل الكبير-، وفي ذلك يقول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**فانطَلقتُ وأنا مَهمُوم على وَجهِي، فلم أستَفِق إلا بِقَرنِ الثَّعَالب**»(١).

وهذا دليلٌ على عظيم ما أصَابه، حتى إنه انطَلَق هائمًا حيرانَ لا يدري أين يتوَجَّه، ولا أي طريق يَسلُك، مِن شدة ما أصابه من الغَم، فلم يشعُر بنَفسِه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلا وقد بلَغَ ذلك المكان البعيد.

---

(١) رواه البخاري (٢٣٢١)، ومسلم (١٧٩٥).

فإذا كان النبيُّ الكريم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أعظَمُ الخَلق منزلةً عند ربه، وأرفعهم قدرًا، قد تعتَرِيه الهموم، فغَيرُه من باب أَوْلى وأَحْرَى.

وقد تكونُ الهُموم من العُقوبة المُعَجَّلة لمن خَالف أمر الله عَزَّوَجَلَّ وعمِل بغَير طاعَته، وكُلما كان المرء أكثر عِصيانًا ومُخَالفة كان أكثر همًّا وأكبَر غَمًّا، ويشير إلى ذلك قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾ [طه:١٢٤]؛ أي: أنَّ الله تعالى يجعل مَعيشَتَه في هذه الدنيا ضَيقة، بما يسلِّط عليه من الهموم والغُمُوم والآلام التي هي عذابٌ مُعَجَّل، فإذا انتقل إلى قبره وإلى الدار الآخرة جاءه من ربه ما يوعد من المَعيشَة الضَّنك والعَذاب الأليم.

وكمَا تكون الهُمُوم عقوبة مُعَجَّلة للعاصين، فهي رفعةٌ في الدرجات وتكفير للسيئات لمن احتسَب هَمَّه عند الله، وصبَر على ما أصابه من الهموم بسبب أمورٍ لا يمكنه دفعها، ووقائعَ لا يستطيع رفعها، وفي ذلك يقول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مَا يُصيب المُسلمَ من نَصَب ولا وَصَب، ولا هَم ولا حَزن، ولا أذى ولا غَم، حتى الشوكة يُشَاكها، إلا كفَّر الله بها من خَطَاياه**»(١).

ولأنَّ الهَمَّ قاتلٌ للبهجة، قائد إلى الهَرَم وضعف القوة والإدراك، حتى إنه لا ينفَعُ معه لذَّةُ مال، ولا طِيب مَطعم، ولا بَرد عَيش، فقد دلَّت الشَّريعة على ما يقطع أسبابَه ودَوَاعيه، لكي يعيش المُسلم مُطمئنًا، هانئ العيش، مُنشَرح الصَّدر.

ومِن أعظم ما يستعينُ به العبدُ على كَشف همِّه، وزوال كَربِه: أن يعمل بما دلَّت عليه النصوص الشَّرعية؛ لأنها الدواء الذي ليس مثله دَوَاء، فقد يذهب الإنسان لطَرْق باب الوسائل المادية، ويبحثُ عمَّا يُرَفِّه عنه، ومع ذلك لا تغيِّر

(١) رواه مسلم (٢٥٧٣).

من واقعه شيئًا، بل وبمجرد مُغَادَرتِها يرجع حالُه إلى سابقه من الهَمِّ والضَّنْك، أما وسائل الشريعة فتُعطي الدواء الدائم الذي يبقى أثَرُه ملازمًا لمن عمل به.

فالصَّلاة من أقوى الوسَائل التي تَشفي أمراضَ القلوب، وتُزيل الهَم والغَم، وتُقَوِّي القلب وتُنيره، وتُفرِح النفس، وتَجلبُ البَركة، مُقَرِّبة من الله، مُبعِدَة من الشيطان، وما تُستَجلَب المصالح بشيءٍ مثل إقامة الصلاة، لأنها صِلةٌ بين العبد ورَبِّه، وبقَدْرِ ما تكون هذه الصلةُ وثيقةً قوية يُفتح الخير، وتَفيضُ النِّعم، وتُدفَع النقم؛ ولذلك أمَرَ اللهُ سبحانه بهَا فقال: ﴿وَٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ﴾ [البقرة:٤٥].

ولمَّا آذت قريشٌ النبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ببالغ الأذى، ووصفَته بما هو مُنَزَّه عنه، فقالوا عنه: ساحِر، شَاعِر، مَجنون، وغير ذلك من عبارات العِنَاد والتكذيب، وكان ذلك يُحزِنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ويَضيقُ صدره به، أمره الله باللجوء إلى الصلاة؛ لأنَّ فيها ما يدفع الحُزن، ويرفع الهَمَّ والغَم، فقال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ نَعۡلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدۡرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾ فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٩٨﴾﴾ [الحجر:٩٧-٩٨].

فلما علم النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنَّ الصَّلاة دواءٌ لِما يحل به من الحزن كان مبادرًا إليها دونَ توَانٍ، وكان إذا جاءه أمرٌ يُحزِنه أو اشتَدَّ به خطبٌ ما، لجَأ إلى الصلاة، فقد جاء في الحديث أنَّ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان إذا حزَبَه أمرٌ فزع إلى الصلاة[1]؛ يعني: أنَّه إذا ألَمَّ به شِدَّةٌ وضيق فَزِع إلى الصلاة، والفزَعُ أن يستعجلَ إلى الشيء دون تردُّد أو تَأخِير.

وهكذا كان يفعل الأخيار الذين علِمُوا أنه لن يُزيل الضرَّ ولن يكشف البَلوى

(١) رواه أحمد (٢٣٢٩٩)، وهو صحيح، انظر: «صحيح الجامع الصغير» (٤٧٠٣).

إلا الله، فتراهم حين وقوع المصائب وما يتبعها من الهموم والغموم مبادرين إلى الصلاة، ومطَّرحين بين يدي الله سبحانه، لعلمهم أنه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ المَلاذ، وهو وحدَهُ القادر على كشف ما بِهِم.

جاء عن ابنِ عبَّاس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه بلغه موتُ ابنه وهو في مَسِير، فاستَرجع، ثم تنَحَّى عن الطريق، فصَلَّى ركعتين أطال فيها الجُلوس، ثمَّ قام يمشي إلى راحلته وهو يقول: ﴿وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ ﴿٤٥﴾﴾ [البقرة:٤٥].

ومِن أنفع الأعمال التي تُزيل الهموم والغُموم: الدُّعاء، وكلما كان العبد أكثر افتقارًا إلى رَبِّه وخالقه، مطَّرحًا بين يديه، مُظهرًا عظيم حاجته إليه، كَانَ ذلك أَحْرَى أن تُستجاب دَعوَتُه، وأن يُكشَفَ عنه ما به من الغَمِّ والهَم، قال تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾﴾ [غافر:٦٠].

والمَهمُوم من أكثر الناس حاجة واضطرارًا إلى الفَرَج؛ لعظيم ما يُعَاني من الأثقال، وشَديد ما أحاط به من الأغلال، ومن عَظُمَت صِلَتُه بالله، عَلِم حاجته إلى مولاه، وأنه لا يَستغني عنه طرفَةَ عَينٍ.

قال مورِّق العِجْلي: «ما وجَدتُ للمؤمن مثلًا إلا رجلًا في البَحر على خَشَبة، فهو يدعو: يا ربِّ يا ربِّ، لعلَّ الله عَزَّوَجَلَّ أن يُنَجِّيَه».

ولذلك ترى أنَّ الأنبياءَ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ كانوا أصدَقَ الناس دُعاءً لله عَزَّوَجَلَّ؛ لأنهم أعلَمُ الناس به سبحانه، وكانوا إذا ضَاقت بهم الحِيَل، وحاصرهم الهَمُّ والغَمُّ، كان الله تعالى مَفزَعهم وملجَأَهم، فتوَجَّهت قلوبُهم إليه بالثناء، وألسنتهم بالدعاء، فتبدلت شدتهم إلى تيسير، وفَرَّج الله عنهم كلَّ عَسِير.

فيونسُ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ لمَّا التَقَمه الحوتُ بأمر الله تعالى جلَّت قدرته، واحتُبِس في الظلمات المُخيفة؛ ظلمة الليل وظلمة البَحر وظلمة بطن الحوت، ولم يجد غير الله سبحانه ملجَأً ومفزعًا وملاذًا، توجه إلى ربه سبحانه داعيًا مُنيبًا، فكتب الله له النجَاة، قال تعالى: ﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَنَجَّيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡغَمِّۚ وَكَذَٰلِكَ نُنجِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٨٨﴾﴾ [الأنبياء:٨٧-٨٨].

وقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُنجِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾، يَدُلُّ على أنه ما من مُؤمن يُصيبه الكَربُ والغمُّ، فيبتهل إلى الله تعالى داعيًا بإخلاص إلا نَجَّاه الله من ذلك الغَم، خصوصًا إذا دعا بدعاء يونُسَ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، وذلك أنَّ تسبيحَهُ هذا كان سبب نجاته، كما قال تعالى عنه: ﴿فَلَوۡلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلۡمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِي بَطۡنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ ﴿١٤٤﴾﴾ [الصافات:١٤٣-١٤٤].

وقد جاء في حديثِ النَّبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه قال: «**ألا أُخبِرُكم بشيء إذا نزَلَ برجلٍ منكم كَربٌ أو بلاءٌ من بلايا الدنيا دعا به يفرِّج اللهُ عنه**؟ قيل له: بلى. قال: **دُعاء ذي النون**: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾»[1].

وحَرِيٌّ بالمسلم إذا مسَّه الهَم والغَم أن يُسارع إلى دعاءِ الله عَزَّوَجَلَّ والتعلقِ به قبل أن يبحث عن وسائل الخَلاص الماديَّة، فاللهُ سبحانه هو الذي بيَدِه مقادير كل شيء، وهو الذي يصرِّف الأمورَ بحِكمَته، فينبغي للمُسَلم أن يتوجه إليه بقلبه، ويُلِح عليه بأنواع الدعاء، طالبًا منه زوال غَمِّه وهَمِّه، فالعبد لا غنى له عن فَضْله ورحمته.

---

(١) رواه الحاكم في «المستدرك» (١٨٨٥)، وهو صحيح، انظر: «سلسلة الأحاديث الصحيحة» (١٧٤٤).

وممَّا يكشف الهَمَّ والغَم من الدعَاء: أدعية خاصة دلَّ عليها الرحمة المهداة محمدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يحسُنُ بالمرء أن يدعوَ بها إذا مسَّه شيءٌ من الضيق والضنك.

ومن ذلك: قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**ما أصَاب أحدًا قَطُّ هَمٌّ ولا حَزَن فقال: اللهُمَّ إنِّي عَبدُك وابن عَبدِك وابن أمَتِك، ناصيتي بيَدِك، ماضٍ فِيَّ حُكمُك، عَدلٌ فِيَّ قضاؤك، أسألُكَ بكُل اسم هو لك، سَمَّيتَ به نَفسَك، أو أنزَلتَه في كِتَابك، أو علَّمتَه أحدًا من خَلقِك، أو استَأثرتَ به في عِلم الغَيب عِندَك، أن تَجعلَ القُرآن ربيع قلبي، ونُور صَدري، وجلاء حُزنِي، وذهَاب هَمِّي، إلا أذهَبَ الله** عَزَّوَجَلَّ **همَّه، وأبدَلَه مكانَ حُزنِهِ فَرحًا**. قالوا: يا رسولَ الله، ينبغي لنا أن نتعَلَّم هؤلاء الكلمَات؟ قال: **أجَل ينبغي لمَن سَمعهُنَّ أن يتعَلَّمَهُنَّ**»(١).

وكان من دعاءِ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قوله: «**اللهُمَّ إني أعوذُ بكَ من الهَمِّ والحَزَن، والعَجز والكسَل، والجُبن والبُخل، وضَلَعِ الدِّين، وغَلَبَة الرِّجال**»(٢).

وينبغي للمُسلم على كل أحوَالِه أن يلزم الدعَاء الذي دلَّ عليه كتابُ ربنا سبحانه، بقوله تعالى: ﴿رَبِّ ٱشۡرَحۡ لِي صَدۡرِي ۝٢٥ وَيَسِّرۡ لِيٓ أَمۡرِي ۝٢٦﴾ [طه:٢٥-٢٦]، فإنَّ انشراح الصَّدر بوابة للدخول إلى كل خير، وضيق الصَّدر يشغَلُ المرء عن أمر دينه ودنياه، ويُفقِدُه الإدراك حتى يفُوتَه ما لم يرغب بفَوَاته.

وذِكرُ الله عَزَّوَجَلَّ **من أعظم الأسباب الجالبة لانشراح الصَّدر**، والكاشفة للهموم والغُموم، فهو الذي يُسَهِّل الصعب، ويُيَسِّر العسير، ويخفف المَشَاقَّ،

(١) رواه أحمد (٤٣١٨)، وهو صحيح، انظر: «صحيح الترغيب والترهيب» (١٨٢٢).
(٢) رواه البخاري (٥١٠٩).

فما ذُكر الله عَزَّوَجَلَّ في صعب إلا هان، ولا في عَسِير إلا تيسَّر، ولا مشَقَّة إلا خفَّت، ولا شدَّة إلا زالت، ولا كُربة إلا انفَرَجت، ذلك أنَّ ذكر الله عَزَّوَجَلَّ يُذهِبُ عن القلب مخَاوِفَه كلها، وله تأثير عجيبٌ في حصول الأمن، فليس للخَائفِ الذي اشتد خوفُه أنفَع من ذِكر الله عَزَّوَجَلَّ، إذ بحسَبِ ذِكرِه يجِدُ الأمن ويزول خَوفُه، ومِصدَاق ذلك في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِۗ أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ ٢٨﴾ [الرعد:٢٨]، فالقلوبُ إذا عَرَفَت معاني القرآن وأحكامه اطمأنت إليها؛ لأنها تَدُل على الحق المُؤَيَّد بالأدلة والبَراهين، كما أنه لا أشهى للقلوب ولا أحلى لها من مَحبَّة خالقها والأنس به ومعرفته، وعلى قَدر مَحبَّتها لله ومعرفتها له يكون ذِكرُها له، ولذا تجد الذاكرَ لله مستأنسًا به سبحانه، قد زالت وحشَتُه، واطمأن قلبُه، وذهب همُّه وغمُّه، ولو لم يكن للعبدِ من ثوابه إلا اللذة الحاصلة للذَّاكِر والنعيم الذي يَحصُل لقلبه لكفى به.

قال مُسلم بن يَسَار: «ما تلَذَّذ المُتلذذون بمثل الخلوة بمُنَاجاة الله».

وقال مالك بن دينار: «ما تلَذَّذ المتلَذِّذون بمثل ذِكر الله عَزَّوَجَلَّ».

ومن فَضْل الله عَزَّوَجَلَّ أنه ليس شيء من الأعمال أخَف مُؤنةً من الذِّكر، ولا أعظم لذَّة ولا أكثر فرحة وابتهاجًا للقلب.

وأفضَلُ ما يَذكُر به المسلمُ ربَّه: تلاوة كتابه، والتبَحُّر في معانيه، وتدبر آياته، ومُلازَمة الأذكار الصحيحة الواردة عن النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ.

ومن الأسباب التي تُزيل الهَم والغَمَّ، وتُؤَدي إلى انشراح الصدر: الإحسان إلى الخلق، ونفعهم بما يمكن من المال والجاه، والنفع بالبدن وبذل المعروف

وأنواع الإحسان، فإنَّ الكريم المُحسِن أشرحُ الناس صدرًا، وأطيبهم نفسًا، وأنعمهم قلبًا، والبَخِيل الذي ليس فيه إحسان أضيقُ الناس صَدرًا، وأنكَدُهم عيشًا، وأعظَمُهم همًّا وغمًّا.

وقد ضرَبَ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مثلًا في ذلك فقال: «**مَثل البخيل والمُنفِق كمثل رجُلَين عليهما جُبَّتان من حَديد من ثُدِيِّهما إلى تَرَاقِيهِما، فأمَّا المُنفِق فلا ينفق إلا سَبَغت أو وَفَرت على جِلده، حتى تُخفِيَ بنَانَهُ وتَعفُوَ أثرَهُ، وأمَّا البخيل فلا يُريدُ أن يُنفقَ شيئًا إلا لَزِقَت كلُّ حَلقةٍ مكَانَها، فهو يُوَسِّعها ولا تتَّسِع**»[(١)].

والمُراد: أنَّ الجَوادَ إذا همَّ بالصَّدقة انفسَحَ لها صدرُه وطابت نفسُه فتَوسَّعت في الإنفاق، والبَخيل إذا حدَّث نفسَه بالصَّدقة شَحَّت نفسُه فضَاقَ صدرُه وانقَبَضت يَداه.

وكل إحسانٍ يعمد إليه المرء، له مثل هذا الجزاء من انشراح الصَّدر وانبسَاطه، فقد قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**كُل مُعروفٍ صَدَقة**»[(٢)]، وكل من عامل الخَلقَ بالإحسان إليهم والتوسيع عليهم فيمَا ضاقُوا به؛ جَزَاه الله بالإحسان إليه بتيسير أمورِهِ، وانشراح صَدرِه، واطمئنان قلبِهِ، كما قال تعالى: ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ﴿٦٠﴾﴾ [الرحمن:٦٠]، والله تعالى مُحسِن يُحبُّ الإحسَان والمُحسِنين، فمن رَفق بعبَاده رَفَق به، ومن رَحِم خَلقَه رَحِمه، ومَن أحسَنَ إليهم أحسَنَ إليه، ومَن جادَ عليهم جَادَ عليه، ومَن نفَعَهُم نفَعَه، ومن سَتَرهم سَتَره،

(١) رواه البخاري (١٣٧٥)، ومسلم (١٠٢١)
(٢) رواه البخاري (٥٦٧٥)، ومسلم (١٠٠٥).

ومن صَفح عنهم صفَح عَنه.

ولما كان البَخيل محبُوسًا عن الإحسان، ممنُوعًا عن البِر والخَير؛ كان جزاؤه من جنس عَمَله، فهو ضيقُ الصَّدر، ممنوع من الانشراح، ضيِّق العَطَن، صغير النفس، قليل الفَرَح، كثير الهَم والغَم والحزن، لا يكَادُ تُقضَى له حاجَة، ولا يُعَان على مَطلُوب.

○○○○○

نـزهة النـفـوس

مِن طبيعَةِ النَّفس البشرية حاجَتُها إلى التنَزُّه والاستجمام، ومَدُّ النظر في البَراري والأراضي الشَّاسعة، خصُوصًا في أماكن الخُضرة والأمطار؛ لأنَّ هذا مما يَعُود على النفس بالانبِسَاط والانشِرَاح، فتنشَطُ على العمل، وتُقبِلُ على ما تسعى إليه بقُوة وسُرور، فإنَّ المرء إذا ا داوم على حال واحدة أصابَه الذبُول، فإذا رَوَّح عن نفسه لانَت له وانشَرَحت لما يُكَلِّفها به.

ولمَّا كان التنزه في البَراري وأماكن الخضرة والمطر مما يبهج النفوس، فقد كان ذلك مقررًا عند أصحاب النفوس الزَّكية من أنبيَاء الله ورسُله الذين جاءوا لأممَهِم بكل خير وهُدى، وأَوْلاهُم بذَلكَ رسُول الهُدَى محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقد قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عن إخوة يوسف عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ أنهم: ﴿قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأۡمَنَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُۥ لَنَٰصِحُونَ ﴿١١﴾ أَرۡسِلۡهُ مَعَنَا غَدٗا يَرۡتَعۡ وَيَلۡعَبۡ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿١٢﴾﴾ [يوسف:١١-١٢]، **والرَّتع**: هو السَّعي والنشاط والتنزه في البرية والاستئناس بذلك، حيث تكون الخُضرة والمياه والزُّروع.

ووجه نُصحِهم له في ذلك: لأنَّ إلزامه أن يكون في مكَانه مُوجِب للمَلَل الذي يقطع نشاطَه عن العِبَادة واكتساب الكمَالات، وأنهم ناصحون له، وذلك لِمَا يحصُلُ له به من الأنس[1].

ولم ينكر عليهم يَعقُوب عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ اللعب والتنَزُّه في البَرية؛ لأنهم عَنُوا به ما

(١) انظر: «محاسن التأويل» للقاسمي (٦/ ١٥٦).

كان مُبَاحًا.

وقد كان رسولُ الهُدى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يخرج إلى البادية مُتَنزهًا يتتبع مَجَاري المياه، فقد سُئِلت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: هل كانَ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يبدو؟ -أي: يَذهب إلى البادية-، قالت: «نَعَم، كان يبدُو إلى هذه التِّلاع»[1].

ومع ترخيصِ الشريعة في الذهَاب إلى هذه الأماكن، فمِن الضروري للمُسلِم إن أراد الذهاب إليها أن يعمَلَ بالآداب الشرعية، التي تكون سببًا في حفظه وبلوغ مُتعَته والتخفيف عنه.

ومن ذلك أن يبدَأَ أول نزوله في مكانه بدُعاء المنزل الذي أرشَدَ إليه النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بقوله: «**مَن نزلَ منزلًا فقال: أعوذُ بكلماتِ الله التامَّاتِ مِن شَرِّ مَا خَلَق، لم يضُرَّه شيءٌ، حتى يرتحِل من مَنزِله ذلكَ**»[2].

ففي هذا الذكر عِصمَة -بإذن الله- من وقوع الأذى ابتِدَاء، أو أنه إذا وقع بالعبدِ صَرَف الله عنه شَرَّه، وكلما قوي يقينُ العبد كان الأثر أبلغ، وكلماتُ الله سبحانه: هي القرآن، وقيل معناه: النافعة الشَّافية الكاملة، التي لا يدخل فيها نقصٌ ولا عَيب.

فإذا نزل المسلمُ مَنزلًا واستعاذ بكلمات الله تعالى؛ حمَاه الله ووَقَاه، فينبغي له أن يتحصَّنَ بهذا الحِصْن المَنِيع، وأن يحمَدَ الله تعالى على لُطفِه وإحسانه، حيث شرَعَ لعباده ما يكون فيه فلاحُهم وسَلامتهم.

وينبغي للمسلم أن يجعَلَ في منزله نَصيبًا من ذِكر الله تعالى، سواء ذكر الله في خاصَّة نفسه، أو أن يذكِّر أصحَابَه بذلك، حتى تكون المجَالس عامِرَة بذِكر الله

(١) رواه أبو داود (٢٤٧٨)، وهو صحيح، انظر: «صحيح الجامع الصغير» (٤٨٩٣).
(٢) رواه مسلم (٢٧٠٨).

تعالى، فيبوء أصحابُها بالأجر، ويَسلَمُون من الإثم والوِزْر، فقد قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مَن اضطجع مَضجعًا لم يَذكُر الله فيه كان عَليه تِرَة يوم القيامَة، ومَن قعَد مَقعدًا لم يذكُر الله فيه كان عَليه تِرةً يوم القِيَامة**»(١)؛ أي: حَسرَة ونَدَامة.

فمِن الجميل في هذه المَجَالس أن يُقرأ فيها القرآن، أو يُقام دَرسٌ علمي، أو مَوعِظة يُذكَر فيها الله، فيزدادُون خيرًا وهداية واستقامَة.

فإنَّ مُنتَهى الحسرة أن تمضي الأعمَار، وتُقتَل الأوقات بلِهْو الكلام والعبث، فلا يُقام ذكر الله سبحانه، حتى تقسو القلوب، وتضعف الأعمال التي تَدُل على الله.

ومن أهم ما يَنبَغي مُرَاعاته في هذه المَنَازل: رفع الأذان، ليَعلوَ ذِكرُ الله، وترتفع شَعَائره، فقد قال أبو سعيد الخُدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لأبي صَعصَعة: «أراك تُحِب البادِيَة والغنم، فإذا أذَّنتَ فارفَع صَوتَك، فإني سمِعتُ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: **ما يسمَعُ صَوت المؤذِّن مِن جنٍّ ولا إنسٍ ولا شيءٍ إلا شهِدَ له يومَ القِيَامة**»(٢).

كما يجِبُ إقامة الصَّلوات في وَقتِها، حتى تبرأ ذِمَّة العبدِ فيؤدي ما أوجب الله عليه، ويبرأ من الإثم، ويُؤدونها جماعة؛ لِمَا ورد في ذلك من الأمر بإقامتها على هذه الصورة، فقد قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**ما مِن ثلاثةٍ في بدوٍ ولا قرية لا تُقَام فيهم الصَّلاة إلا استحوَذَ عليهم الشيطَانُ، فعليكُم بالجَمَاعة، فإنما يأكُلُ الذئبُ القَاصِيةَ**»(٣).

فترك إقامَةِ الصلاة سببٌ لتسَلط الشيطان على العَبد واستحوَاذِه عليه، فيَقُوده

(١) رواه أبو داود (٤٨٥٦)، وهو صحيح، انظر: «صحيح الترغيب والترهيب» (١٥١٢).
(٢) رواه البخاري (٥٨٤).
(٣) رواه أبو داود (٥٤٧)، وهو صحيح، انظر: «صحيح الترغيب والترهيب» (٤٢٧).

إلى سُبل الغِوَاية ومَهَاوي الرَّدى، فيبقى مُتخبطًا في غيَاهِب الظلمَات، لا يُبصِر طريقَه حتى يَهلِك.

وإقامة الصَّلاة في هذه الأماكن دَليل على حيَاةِ القلوب والبُعدِ عن الغَفلة، ومراقبةِ المُسلم لربه وتعلقِ قلبِه به في كل مكان وعلى أية حَال.

ومن السُّنن التي يُمكن الإتيان بها في هذه الأمَاكن: الصلاةُ في النِّعال، فقد ثَبَت عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه قال: «**خالِفُوا اليَهُود، فإنهم لا يُصَلون في نِعَالهم ولا خِفَافِهم**»(١)، وهذه سُنَّة في كل وقت، ولكن العمَل بها في أماكن النزهات مُتَهيئٌ أكثر مِن غيره، فإنه لو حاوَلَ إقامة السنَّة بصلاته في النعال في المسجد مع ما فيه من فَرْشٍ نظيف، لكان في ذلك إثارَةُ فِتنةٍ بين الناس، وهذا مُخَالف لقواعد الشريعة، لكن في أماكن الرَّحلات والنزهات البَرية، يمكن أن يُعمَلَ بهذه السُّنة، فلا ينبغي أن يحرِمَ نفسه من أجر العمل بالسنَّة مع أخذه بالرخصة، والأخذ بالرخصة مما يُحبه الله تعالى، فقد جاء في الحديث أنَّ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**إن الله يُحب أن تُؤتَى رخَصُه كما يُحبُّ أن تُؤتَى عَزَائمُه**»(٢).

ومن الآدابِ التي يَنبَغي العملُ بها: أنَّ على المسلم إذا قام من فِرَاشه ثمَّ رجع إليه أن ينفُضَه ثلاثَ مَرَّات، مخافَةَ أن يكون قد خَلفَه عليه شيء من الزواحِفِ ونحوها، فإذا دخل في فِرَاشه دون أن ينفُضَه آذَتْه، فقد جاء في حديث النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنَّه قال: «**إذا قامَ أحدُكُم من فِراشِه ثمَّ رجَعَ إلَيه فليَنفُضه في داخِلةِ إزارِه ثلاثَ مراتٍ؛ فإنَّه لا يَدرِي ما خَلَفَه عَلَيه**»(٣).

---

(١) رواه أبو داود (٦٥٢)، وهو صحيح، انظر: «صحيح الجامع الصغير» (٣٢١٠).
(٢) رواه أحمد (٥٨٦٦)، وهو صحيح، انظر: صحيح الترغيب والترهيب (١٠٦٠).
(٣) رواه البخاري (٥٩٦١)، ومسلم (٢٧١٤).

وممَّا ينبغي أن يُعلَم: أن هذه النزهَات إنما يُرادُ منها إدخال السرور على النفوس والتَّرويح عنها، ولذلك لا يُصاحِبُ المرء فيها إلا مَن تسرُّه صُحبَته ويأنس به.

وعليه أن يجتنب الثقيل الذي لا تَحسُن عِشرَته ولا تَسُر مُصَاحَبَتُه، حيث يخرج مع أصحابه في هذه الأماكن التي تُطرَح فيها مؤنة التكلُّف، فيتعامل بالثقل بحُجَّة الوقار، وهو تصَرُّف في غير محله، وقد قال الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «الوقارُ في النُّزهة سُخْف».

أو أنه يكتم أنفَاسَ أصحابه، فكُلما تحدثوا بحديث أخذَهُ هاجس الشك أنه هو المقصُود، وطلب منهم تبريرًا لكل كلمة وتصَرُّف، فمثل هذا فيه من ثقل الطينة ما يكفي ألَّا يُعاشَر ولا يُصاحَب.

أو أنه يخرجُ مع أصحابه ويريد أن يخدموه وهو جَالس، لا يُشَاركهم في عمَل، ولا يساهم معهم في خِدمَة، والمقام هنا ليس مقام جُلوس، بل تعاون وخدمة واستئناس.

ولا يعني كون النُّزهة ميدانًا للأنس والترويح أن تتحَوَّل إلى تصرفات غير لائقة؛ مِن مزح يتعدى فيه الحَدَّ والأدب، حتى يقُودَ إلى الضغائن والأحقاد والخُصُومات، وإدخال الضيق على الأصحاب، بسبب عبارات جارِحَة، أو كلمات طائشة، تُذهب أُنس الرحلة وتكسر قلوبَ الأصحاب وتحزنهم.

ومن ذهب إلى أماكن النزهات كان الواجب عليه أن يعلَمَ أنَّ هذه الأماكن ليست حِكرًا عليه، بل إنَّ الناس مُشَاركون له فيها، ويحبون ما يحِبُّ من تحصيل البهجة والسرور، فلا يتجَاوَز الحد في تصرفاته ويلحق بهم الأذى، فقد قال الله

تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُوا۟ فَقَدِ ٱحْتَمَلُوا۟ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٥٨﴾﴾ [الأحزاب:٥٨].

ومِن صُوَر ذلك: ما يَفعَله البعضُ من رفع أصوات الأجهِزَة بالمُوسيقى والأصوات الصَّاخبة، فيزعج المسلمين ويُشَوش عليهم، ويُكدِّرهم في نزهتهم، وكان الأحْرَى به حين أنعَمَ الله عليه بنعمة الصحة وجَرَيان النِّعم بين يديه أن يشكر نعمَةَ الله عليه، فإن لم يفعل معروفًا كفَّ أذاه عن الناس فإنها صدقة يتصَدَّق بها على نفسه، وقد قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**صَوتانِ مَلعُونان في الدنيا والآخِرَة: نغمَةٌ عند نِعْمَة، ورَنَّةٌ عِند مُصِيبَة**»(١).

فالعجب ممن لم يَكتَفِ بالمَعصيَة ويقتصر بها على نَفسِه، حتى أزعج بها الآخرين وأقلَقَ هُدوءَهم.

ومن صُوَر الأذى: إفساد طرقِ المسلمين وأماكن جلوسِهِم بالأوساخ والقاذُورات، فلا ينظف مكانه إذا غادره، أو أنه يتلف هذه الأماكن بأي صورة كانت، أو أن يلحق الأذى بها أو بمَن زَارَها من الناس، كالذي يُزعِج الناس بالسيارات ونَحوها، فيَسلُب منهم الأمان والهدوء، وهذا من أبرز صُورِ الأذى، وجالبٌ لدُعاء الناس عليه، وقد قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**اتَّقُوا اللاعِنَين: الذي يتخَلَّى في طريقِ الناس أو ظِلِّهم**»(٢)، ويدخلُ في هذا كل أذى يُفسِد على الناس ما يحتاجون إليه.

ومِن الأمور المُهمة التي يجب التنبيه عليها في هذا المقام: مسألة ترويع

(١) رواه البزار في «المسند» (٧٥١٣)، وهو صحيح، انظر: «صحيح الجامع الصغير» (٣٨٠١).
(٢) رواه مسلم (٢٦٩).

الآخرين بحُجة المزَاح وعَمَل المقالب، وهذا أمر محرَّم، وقد جاء في الحديث: أنَّ الصحابَة كانوا يسيرون مع رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فنام رجلٌ منهم، فانطلق بعضُهم إلى حَبل معه فأخذه، ففَزِع، فقال رسولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لا يحِلُّ لمُسلِم أن يُرَوِّعَ مُسلِمًا**»(١).

فبعضُهم يختبئ لصَاحبه خَلفَ جدار ونحوه، وقد يكون ذلك في ظلمة الليل البهيم، فإذا مرَّ صاحبه خرج إليه فجأة وأفزعه، ويفعل ذلك بدعوى المزاح، وهذا أمر لا يَجُوز، والناس من ناحية ردَّة الفعل نحو هذه الأشياء يتفاوتون، فلعل هذا الترويع يلحَقُه أذى عقلي أو بدني، لم يكن يتصور الفاعلُ أنه سيبلغ هذا المبلغ من ردَّة الفعل العَنيفَة.

وإنما اقتضى التَّنبيه على ذلك في هذا المَقَام؛ لكَثرَة من يتعامل بذلك في النزهات، وإلا فالأمر لا يجوز فِعلُه في أي مكان وعلى أية حال.

وكم هو جَميل إذا خرج المرءُ إلى هذه الأماكن ليُرَوِّح عن نفسه ويتنزه أن يفعلَ ذلك الأمر على وجهه، ويأخُذ بالأسباب التي ينال بها ذلك، ويبتعد عمَّا يكدِّر خَاطِرَه من التصرفات غير المسؤولة، التي تُورِث الضِّيق، وتقتُل الأنس والفرح.

○○○○○

(١) رواه أبو داود (٥٠٠٤)، وهو صحيح، انظر: «صحيح الترغيب والترهيب» (٢٨٠٥).

الأمانـة

مما تتابَعَت عليه العقلاءُ في كل زمَن: أن الأمانة من شِيَم الكرام، وقائد إلى رفعة الأخلاق ومحَاسن الآداب، وهي كلُّ ما يُوكَل إلى الإنسان حِفظُه، ويُخلَّى بينه وبينه، قال معاوية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «الزَم الرَّفيعَيْن: الأمانة والعَدل».

ومما يَدُل على جَلالها وعلوِّ قدرها: أن الله تعالى أمر بها وحثَّ عليها، لما يترتب عليها من تحقق عيشٍ آمن، ونفوس مطمئنة، فإذا ذهبت أو ضَعُفَت نزل البلاء ومُحِقَت البَركات، قال الله تعالى: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا﴾ [النساء:٥٨].

وهذا يعم كُلَّ ما اؤتُمِن عليه الإنسان وأُمِر بالقيَام به من حُقوق الله عَزَّوَجَلَّ، فيجِبُ أن يُؤَدِّيها كامِلة، غير منقوصَة ولا مَبخُوسة، ويشمل أيضًا حقوق العباد بعضهم على بعض كالولايات والأموال والأسرار، وغير ذلك مما يَأتَمِن بعضُهم بعضًا عليه، حتى لو لم يَكُن على ذلك بيِّنة ولا شهود.

قال ابنُ عبَّاس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عن الأمر بأداءِ الأمانة: «هي مُبهَمة للبَر والفاجر».

وقَال الربيعُ بن أنس: «هي الأمانَاتُ فيما بينَك وبين النَّاس».

ومما يَدُل على أهميَّة الأمانة: أنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ قد فطر الناس عليها وجعلها في أصل خِلقَتهم، كما جاء في حديث النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**إنَّ الأمانة نزَلَت في جَذرِ قُلوب الرِّجال، ثمَّ علِمُوا من القُرآن، ثمَّ علِمُوا من السُّنَّة**»[1].

---

(١) رواه البخاري (٦١٣٢)، ومسلم (١٤٣).

قال القُرطبيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «والجَذْر: الأصل من كل شيء، ومعنى إنزالها في القلوب: أنَّ الله تعالى جَبَل القلوبَ الكاملة على القيام بحَقِّ الأمانة؛ مِن حِفْظِها واحتِرَامها، وأدائها لمستحقِّها، وعلى النُّفرَة من الخيانة فيها؛ لتنتظمَ المصَالح بذلك»[(١)].

ومن تمام التأكيد عليها: أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لَمَّا جعلها متأصلة في القلوب، أنزل عليهم من القرآن والسنة ما يثبِّت ويؤيد هذا الأصل، فجاء القرآن والسنة مؤيدًا للفطرة التي فُطِرَ الناسُ عليها، وعلِمُوا من كتاب الله وسنة نبيِّه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فازدادوا بذلك إيمانًا وثباتًا وأداء للأمانة[(٢)].

وكلما تقادَمَ الزمَنُ ومَضَت أيامُه، علم الناس قدر الأمانَة وشَديد حاجَتِهم إليها، وازدَادُوا يقينًا بوَصيَّة الله بها والتأكيد عليها، لِمَا ينتُجُ عنها من استقامَة أحوال الناس، وهناء عَيشِهم، وهدوء أنفُسِهم، وانشراح صدُورهم.

قال الأحْنَفُ بن قَيس رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إذا لم تكن خائنًا فبِت آمِنًا».

وقد مدَحَ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ المؤمنين بحِفظِهم العَهدَ والأمانة؛ فقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ﴿٨﴾﴾ [المؤمنون:٨]؛ أي: حافظون لها، مجتهدون على أدائها والوفاء بها، وهذا شاملٌ لجميع الأمانات التي بين العبد وبين ربه، والتي لا يَطَّلع عليها إلا الله، والأمانات التي بين العبد وبين الخَلق، في الأموال والأسرار، وكذلك يشمَلُ العهد الذي عاهد عليه الله، والعهد الذي عاهد عليه الخَلق، فإن العَبدَ مسؤول عنه، هل قام به ووفَّاه، أم خَانَه ولم يَقُم به؟[(٣)].

---

(١) «المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم» (١/ ٣٥٦).

(٢) «شرح رياض الصالحين» (٢/ ٤٧٣).

(٣) «تفسير السعدي» (ص٨٨٧).

وأفضلُ الوفاء ما كان عند الشدَّة والحاجة، كما أنَّ ألْأَمَ الغَدر ما كان في حالِ الثِّقَة.

ومما يُتبادرُ إلى أذهان كثير من الناس حينَما يُطلق وصفُ الأمانة: أنَّ المقصُود منها مُقتصر على الأموال وما تَئُول إليه، ولكن في حقيقة الحال قد تكون حاجة الناس إلى الأمانة في كثير من شؤون حياتهم أشد من الأموال، فقد يتعلق مَصيرُ بعض الناس بأشخاص يرتبطون بهم في أمور حياتهم، كزواج مثلًا، وهذا من أخطر الأمور وَقْعًا؛ لأنه قد يعيش حياة هانئة سعيدة مع شخص طيِّب لطيف المَعشَر، وقد يحيَا حياة بائسَة مع شخص سيئ المَعشر، يسبق شرُّه خيرَه، ومن هنا يعرِفُ المرء أنَّ حاجته للأمين الناصح من أشدِّ ما يكون حاجة وإلحاحًا.

وقد يستشير بعض الناس شخصًا في أمرِ مستقبلٍ أو مسألة تُوَازي الحياة والموت، وهنا يُوقِن المرءُ بعظيم شأن الأمانة وخطرها، والواجب على مَن رُدَّ إليه الأمر في ذلك أن يكون ناصِحًا أمينًا، ويتمثل قول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**المُستشَارُ مُؤتَمَن**»(١).

وحينما ترى ما وقع على أناس في هذا المُجتمع من المآسي والآفات، تجد أنَّ لفَقدِ المستشار المؤتمن أثرًا كبيرًا في وقوع تلك الطوامِّ التي ترتَّب عليها أشنع النتائج.

وقد ورد عن السلف من الاهتمام بأمر الأمانة، ما يؤكد تلك المعاني العظيمة، وذلك بسبب ما استقر في نفوسهم من التعظيم لأمرٍ عظَّمه الله سبحانه، ولعِلمِهم أنَّ هذا الأمر مما تسعَدُ به النفوس وتأنسُ.

---

(١) رواه أحمد (٢٢٣٦٠)، وهو صحيح، انظر: «سلسلة الأحاديث الصحيحة» (١٦٤١).

قال مَيمونُ بن مِهرَان رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ثلاثٌ المؤمنُ والكافرُ فيهن سَواء: الأمانة تُؤَديها إلى من ائتَمَنك عليها من مُسلم وكافر، وبر الوالدين، قال الله تعالى: ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشۡرِكَ بِي مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٞ فَلَا تُطِعۡهُمَاۖ وَصَاحِبۡهُمَا فِي ٱلدُّنۡيَا مَعۡرُوفٗا﴾ [لقمان:١٥]، والعهد تَفِي به لمن عاهَدتَ من مسلم أو كافر».

ووَرَد عنهم من العبارات ما يحُثُّ على اتخاذ الأمانة سَجيَّة وطبيعة، لا تتغير حسب اختلاف الأحوال وتبَدُّل المواقف.

قال عُمر بن الخطَّاب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «لا تنظُروا إلى صيام أحدٍ ولا صلاته، ولكن انظروا إلى صِدق حديثه إذا حَدَّث، وأمانته إذا اؤتُمِن، ووَرَعه إذا أشفَى»؛ أي: إذا أقبَلَت عليه الدنيا.

وقال يَحيى بن أبي كَثِير: «لا يُعجبك حِلمُ امرئٍ حتَّى يغضَب، ولا أمانته حتى يطمَع، فإنك لا تدري على أيِّ شِقَّيه يقَع».

وفي هذه الكلمات الجَميلة ما ينبُذُ اتخاذ الأمانة تكلفًا وتمثيلًا، بل الواجب أن تكون طبيعة تُوَافق الفِطرَة، وتُتَّخَذ عبادة يُتقَرَّب فيها إلى الله، وإلا سُلِبَت منه، فمن كان أداؤه للأمانة فقط من أجل أن يأتَمِنَه الناس، فإنه إذا ذهب الناس الذين كان يُؤَدي الأمانة من أجلهم، انقَطَع عن السبب الذي كان يؤدي الأمانة من أجله، فينام ويُصبح وقد قُبِضَت الأمانة من قلبه[1]، ولا شكَّ أنَّ في وقوع هذه المصيبة أعظَمَ الحِرمَان، ومُنتهى الخُسرَان.

وكما جاء الأمرُ بالأمانة وبذلها، فقد ورد التنفير من الخيانة وسلوك طريقها، قال تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي كَيۡدَ ٱلۡخَآئِنِينَ ٥٢﴾ [يوسف:٥٢].

---

(١) انظر: «الإفصاح عن معاني الصحاح» (٢/ ٢١٢).

وكان من دعاء النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**اللهُمَّ إني أعوذُ بكَ من الخِيانة فإنَّها بِئسَت البِطَانة**»(١).

وقد ورَدَ في السُّنة النبَويَّة أشَدُّ التحذير من الخيانة، وأنَّ مَن اتصف بها قد دخل الخَلَلُ في إيمانه، فقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لا إيمَانَ لِمَن لا أمَانَة لَه**»(٢)، وفي هذا دليلٌ على أنَّ الأمانة من أهَم خِصَال الإيمان، وأنَّ مَن اتصَفَ بالخِيَانة كان ناقصَ الإيمان، ويدخُل في ذلك خيانَةُ الإنسان في ماله أو نفسه أو أهله.

وما هذا التنفير الشديد إلا لبيَان شناعَةِ هذه الصِّفة وانحِدَار هذا الوصف؛ لأنه من أشد الأمور التي تَسلُب الطمأنينة في علاقات الناس، وتُضعِف الثقة فيما بينهم، فينقطع بعد ذلك بينَهُم التواصل، وتتهَيَّأ النفوسُ لكُل شرٍّ وأمرٍ مُنكَر.

وإذا ذهَبَت الأمانة نَزَل البلاء، وتفَشَّت الخِيَانة، ومُحِقَت بعد ذلك البَركَات، وقد قال العُقلاء: «إذا ذهب الوفاءُ نزل البَلاء، وخيانَة الناس أقبَحُ الإفلاس».

وخيانة الأمانة من صفَات النفاق التي يجب على المسلم أن يتبَرَّأ منها، ويَحذَرَ مِن الاتصافِ بها، فقد قال النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**آيةُ المُنافقِ ثَلاثٌ: إذَا حدَّث كذَبَ، وإذا وعَدَ أخلَفَ، وإذا اؤتُمنَ خَان**»(٣).

وقد حَذَّر السلفُ من سلوك طريق الخيانة، وجعلوا من أخطر الوسائل المؤدية إلى ذلك مُصَاحبة الخائن والانتصار له، فكيف بمن جعل الخيانة صفة له يتعامل بها مع الخلق.

---

(١) رواه ابن ماجه (٣٣٥٤)، وهو صحيح، انظر: «صحيح الترغيب والترهيب» (٣٠٠٢).
(٢) رواه أحمد (١٢٥٦٧)، وهو صحيح، انظر: «صحيح الجامع الصغير» (٧١٧٩).
(٣) رواه البخاري (٢٥٣٦)، ومسلم (٥٩).

قال مالكُ بن دِينَار رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «كفى بالمَرء خيَانة أن يكون أمينًا للخَوَنة».

وقال تعالى: ﴿وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا ﴿١٠٥﴾﴾ [النساء:١٠٥]؛ أي: لا تكن معينًا للخائن مُدافعًا عنه، ولا تُخَاصِم عمَّن عَرَفتَ خِيانته، من مُدَّعٍ ما ليس له، أو مُنكِرٍ حقًّا عليه، وفيه دليل على تحريم الخصُومة في باطل، والنيابة عن المُبطِل في الخصومات الدينية والحقوق الدنيوية.

ولا شكَّ أنَّ مُخَالطة الخائن لها أعظم التأثير، حتى إنَّ الموصوف بالأمانة يُسلَبُها حتى يصير خائنًا بعد أن كان أمينًا، وهذا إنما يقعُ على ما هو مشَاهَد لمن خالَطَ أهل الخيانة، فإنه يصيرُ خائنًا؛ لأن القرينَ يقتدي بقَرِينه(١).

ويدخلُ في ذلك أيضًا: التحذير من استعمال الأمين للخائن، **قال علي** رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «مَن تتهمه فلا تأمنه، ومن تأمنه فلا تتهمه».

وفي ذلك يقول القائل:

إنَّ العَفِيفَ إذَا استعَانَ بخَائنٍ كَانَ العَفِيفُ شَريكَه في المَأثَمِ

ولا تزالُ الأمانة تضعُفُ بين الناس حتى يكونَ المُتَّصفون بها أفرادًا من الناس، وبهذا جاء حديث النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مُخبِرًا عن رفع الأمانة، فقال: «**ينَامُ الرجلُ النَّومَة، فتُقبضُ الأمانَةُ مِن قلبه، فيظَلُّ أثَرُها مِثل أثَرِ الوَكْتِ، ثم ينَامُ النَّومَة فتُقبضُ فيَبقى أثرُهَا مِثل المَجْلِ، كجَمرٍ دَحرَجتَه على رِجلِكَ فنَفطَ، فتَراهُ مُنتَبِرًا وليسَ فيه شَيءٌ، فيُصبحُ الناسُ يتبايَعونُ، فلا يَكَادُ أحدُهُم يُؤَدي الأمانَةَ، فيُقالُ: إنَّ في بني فُلانٍ رَجُلًا أمِينًا، ويقالُ للرجُل: ما أعقَلَه، ومَا أظرَفَه، ومَا أجلَدَه!، وما**

(١) انظر: «فتح الباري» (١٣/ ٣٩).

في قلبِه مثقالُ حبَّةِ خَردلٍ مِن إيمَان»[١].

ففي هذا الحديثِ تصويرٌ دقيقٌ لخُلوِّ القَلب من الأمانَة، وأن هذه الأمانَةَ سوفَ تُنزَع من قلوبِ الرجال والعياذُ بالله، فيُصبح الناس يتحدثون أنَّ في بني فلان رجُلًا أمينًا؛ يعني: أنك لا تكادُ تجدُ في القبيلة رجلًا واحدًا أمينًا، والباقي كلهم على خِيَانة، لم يُؤَدوا الأمانة.

ولقد شاهَدَ الناس اليوم مِصدَاق هذا الحديث عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فإنك تستعرض الناس رجلًا رجلًا حتى تبلغ إلى حَدِّ المائة أو المئات، فلا تجِدُ الرجلَ الأمين الذي أدى الأمانة كمَا ينبغي في حق الله ولا في حقِّ الناس.

وقد تجد رجلًا أمينًا في حق الله، ويؤدِّي الصلاة والزكاة ويصوم ويحج، ويذكر الله كثيرًا، لكنه في المال ليس أمينًا، إن وُكِّل إليه عمل فرَّط وصارَ لا يأتي إلى العمل إلا متأخرًا، ويخرج قبل انتهاء الوقتِ، ويُضَيِّع الأيامَ الكثيرة في أشغاله الخاصَّة ولا يُبَالي، مع أنك تجده في مُقدمة الناس في المساجد، وفي الصدقات، وفي الصيام، وفي الحَج، لكنه ليس أمينًا من جهَةٍ أخرى[٢].

وهذا الحديثُ يَصِفُ حال كثير من الناس الذين كانوا يتَّصفون بالأمانة، ثم لم يبقَ معهم بعد ذلك إلا مُجَرد الصورة الظاهرة، دون حقيقة ولا مَضمُون، بل حقيقة الحال أنه لا يكادُ أحدٌ يؤدِّي الأمانة، ويُخدَع الناس بظاهرِ الشخص وما يتصف به من جمال اللسان، وحضُورِ العقل، وقوة البَدَن، حتى يُقَال للرجل: ما أعقلَه، وما أظرفَه، وما أَجلدَه، فينبَهِر الناسُ بحُسن مَظهَره دون النظر إلى صلاح

(١) رواه البخاري (٦٤٩٧)، ومسلم (١٤٣).
(٢) انظر: «شرح رياض الصالحين» لابن عثيمين (٢/ ٤٧٣).

حاله واستقَامَته، ويكون مَدحُ أهلِ ذلك الزمان بكثرة العقل والظرافة والجلادة، لا بكثرة الصلاح، بل حقيقة أحدهم أنه ليس في قلبه مثقال حبَّة خَردَل من إيمان، وهذا من البلاء الشديد، ودليل على انعكاس المَفاهيم، وقِصَر النظر عن السلوك المتعدي إلى الغير، والاكتفاء بالوَصْف الذي يقتصر على صاحبه دون أن يكون له نفع مُتعَدٍّ إلى الناس، أو جميل أثرٍ في حياتهم.

وقد كانت العربُ تأنف من الخيانة، وضربُوا في ذلك أروع النوادر والأمثلة، مما تستأنس به الأسماع عند ذِكرِه، وتبتهج به النفوس عند ورُودِه.

ومن ذلك: ما جاء عن رجل من العَرَب أنه سُجن هو وأصحاب له في سِجن عبيد الله بن زياد، وكان السجَّانُ يُجلُّه، فقال له يومًا: أني أحب أن أقدِّم لك معروفًا، فإن أذِنت لك في الانصراف إلى دارك أترجعُ إليَّ؟ قال: نَعَم، فكان يفعل ذلك به زمنًا، فلما كان ذات يوم قتَلَ أصحابُه المَسَاجين قائدَ شرطة زيَاد، فأمر زيادٌ أن يُقتَل مَن في الحَبس منهم، وكان هذا الرجلُ خارجًا، فعَزَم على الرجوع إلى الحَبس، فقال أهله: اتَّق الله في نفسك فإنَّك مَقتُول إن رجَعتَ، فقال: ما كنتُ لألقى الله غَادِرًا، وهذا جبَّار، ولا آمَنُ أن يقتُل السجان، فرجع وقال للسجَّان: بلغَنِي ما عزم صاحبُك عليه من قتل أصحابنا، فبادَرتُ حتى لا يلحَقَك مكروه، فقال السجَّان: خُذ أي طريق شئتَ فانجُ نجَّاك الله.

وضياعُ الأمانة علامَةٌ على مجيء الساعَة، وقد صَحَّ ذلك على لسانِ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حيث قال: «**إذا ضُيِّعَت الأمانةُ فانتَظِرِ السَّاعَة**، قيل: كَيفَ إضاعَتُها؟ قالَ: **إذا وسِّدَ الأمر إلى غيرِ أهلِهِ فانتَظِرِ السَّاعَةَ**»(١).

(١) رواه البخاري (٦٤٩٦).

وفي هذا أوضَحُ بيان على خطرِ ذَهَاب الأمانة وضَيَاعها، وقد ذكَرَ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صورةً من أعظم صور ضَياع الأمانة، وذلك حينَمَا يُسنَدُ الأمر إلى غير أهلِهِ، ويتولى الأمر مَن ليس بثقة، ويُؤتَمن الخائن ويُخَوَّن الأمين، وتَتكدَّر معايشُ الناس، ويذهب بهاء كل شيء جميل، ويُدرِك الناس السنوات الخدَّاعات التي أخبر عنها النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حيث قال: «**سيَأتِي على النَّاس سنواتٌ خدَّاعات، يُصَدَّق فيها الكاذِبُ، ويُكَذَّب فيها الصَّادِق، ويُؤتَمَنُ فيها الخائِنُ، ويُخَوَّن فيها الأمينُ، ويَنطِقُ فيها الرويبِضَةُ**. قيل: وما الروَيبضَةُ؟ قال: **الرجُل التافِهُ يتكَلَّم في أَمرِ العَامَّة**»(١).

ومَن تأمَّل في واقع الناس رأى ما أخبَر عنه النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ واضِحًا جَليًّا، حيث عظُمت غُربَة الصالحين بسَبب اختلال المَوَازين، وتقدَّم إلى قيادَة الناس مَن نَقَصَ دينُهُ وعَقلُهُ ومُروءتُه، حتى صارت تُضرَبُ به الأمثال، وتكثُر حوله المدائح والأقوال، وتُنسب إليه الفضائل، واتخذه كثيرٌ من أهل الجهل قُدوةً، ومَن تأمَّل حاله وجده لا شيء، ولكنها صورةٌ من صُوَر ضياع الأمانة التي أخبر عنها النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قد خَفِيَت على مَن قلَّ عِلمُه.

فإذا أراد الله بعبدِهِ خيرًا، بصَّره بأمره، وفتح له أبواب فضله، فسَلَك طرق الصلاح والهداية، وزاد حذَرُه من سبل الضلال والغِوَاية، ووُفِّقَ إلى العمل بالأمانة في أمر دِينه ودُنياه، واجتنب الخيانةَ وما يقرِّب إليها من قول أو عمل، فكان ذلك من أعظَمِ أسبابِ فَوزِه ونجَاتِه.

---

(١) رواه ابن ماجه (٤٠٣٦)، وهو صحيح، انظر: «سلسلة الأحاديث الصحيحة» (١٧٧٨).

ذم الهوى

لقد عظُمَ التحذيرُ من اتِّباع الهَوى والنهي عنه في نصوص الشريعة المُطَهرة، وتتَابَعت عليه عباراتُ السلف الصالحين والعُلمَاء الربَّانيين من كل جيل، ويَعنُون بذلك الهوى المذمُوم الذي يميلُ صاحبه إلى ما يُحبه ويُلائمه، دون النظر إلى ما يمنع منه من نصوص شرعية، أو ضوابط عُرفيَّة، وإنما يقوده إلى مباشرة ذلك ما مالت إليه نفسُه، وأحبَّه قَلبُه.

وإنما عظُمَ التحذير من اتباع الهَوى؛ لأنه يصدُّ عن الحقِّ معرفةً وقصدًا، ويُضِل عن سبيل الله، قال علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «إنَّ أخوف ما أخاف عليكُم اتباع الهَوَى وطول الأمَل، فأما اتباع الهوى فيَصُد عن الحق، وأما طولُ الأمل فيُنسِي الآخِرَة».

ولا يزال الهَوَى بصَاحبه حتى يستولي عليه، ويصبح هو آمره وناهيه، وتصير جميع أفعاله تابعة لما يَهوَاه، ويُقَدم طاعته على طاعة الله، وهنا يكون قد صرف ما يستَحقُّه عليه خالقُه من الطاعة إلى هَوَاه، فيصدُق عليه قولُه تعالى: ﴿أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴿٤٣﴾﴾ [الفرقان:٤٣]؛ ومَن استحسن شيئًا ورآه حسنًا لِهَوى في نفسه، كان ذلك الأمرُ دينَه ومذهبَه كما قال تعالى: ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا﴾ [فاطر:٨][1].

قال الحسَنُ البصري رَحِمَهُ اللَّهُ: «هو المُنَافق لا يهوى شيئًا إلا ركبه».

---

(١) انظر: «تفسير ابن كثير» (٥/ ٥٩٦).

والهوى كمينٌ لا يُؤمَن، وحَقيق به أن يُصرَع صاحبُه على حين غِرَّة.

قال الشَّعبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «سُمِّي هوًى لأنَّه يَهوِي بصَاحِبه».

وما ذلك إلا لأنه يَدعُو صاحِبَه إلى اللَّذَّة الحاضِرَة من غير تفكير في العَاقبة، ويحثُّ على نَيل الشَّهوات عاجلًا، وإن كانت سببًا لأعظم الآلام عاجلًا وآجلًا، وله عقوبةٌ في الدنيا قبل عقوبَة الآخرة، لكن يَعمَى صاحِبُه عن رؤيتها، والدِّينُ والمروءة والعَقل ينهى عن لذَّة تُعْقِبُ ألمًا، وشَهوةٍ تُورِثُ ندمًا، ومَن لا دِينَ له يُؤثِرُ ما يهواه وإن أدَّى إلى هلاكه في الآخرة؛ لضَعفِ نَاهِي الدِّين، ومَن لا مُروءَة له يُؤثر ما يهواه وإن ثَلَمَ مُرُوءته أو هَدَمها؛ لضعف ناهي المروءة، ومَن لا عقل له يُؤثِرُ ما يهواه وإن كان فيه تَلَفُه، كالطفل يُؤثر ما يَهوَاه؛ وإن أدَّاه إلى التَّلف؛ لضَعف ناهي العقل عِندَه؟![1].

وتختلفُ أهواء الناس بحَسَب ميولهم واختلاف طِبَاعهم، فتجد منهم من يميل إلى الجاه، وآخر إلى المال، وثالث إلى الجنس الآخر، وغير ذلك، والمُوَفَّق مَن بَصَّره الله بمَوَاطن ضعفه قبل أن يستشري فيه هذا المَرَض، فعاجل بمُعَالجته، وتتبع أسباب الخَلاص منه، فإنه لا ينبغي التَّمَادي مع الهَوى وترك السعي في أسباب إزالته وكَشفِه؛ لأن زوالَ الأمر في أوله سَهل وقريب، وقد يَعظُم ويتفاقم فتبعد إزالَتُه جدًّا ويَبعُد السعي في سبب إزالته لغَلبة الهوى والمَحبة، وقد يحصل مع التمادي في ذلك من الذُّل والشر والفَسَاد ما لا يعلمه إلا الله، ويصير ذلك عادة وطبيعة، ويستمر ذلك مع الشيخوخة وكبر السن، وينتقل من صورة إلى صورة، فلا ينفع مع ذلك وَعظٌ ولا زجر.

---

(١) انظر: «روضة المحبين» لابن القيم (ص٤٧٠).

قال حَنبلٌ: «الخَير بالتَّعَود، والشرُّ طَبعي».

وقد جاء في الحديث: «**مُرُوهم بالصَّلاة لسَبع، وفَرِّقوا بينَهُم في المَضَاجِع**»، فلما جاء إلى الشَّر قال: «**وفَرِّقوا بينَهُم في المَضَاجع**»؛ لعِلمِه أن ذلك أكثر في المُجتَمِعين.

وقالت العَربُ: «العادَةُ أمْلَك بالإنسان من الأدب».

وقَالوا: «الخير عَادَة، والشَّر لجَاجَة».

وذُكِر عن بعض مَن تَوَلَّعَ بشُرب الخمر وألِفَها وعَشِقَها، وأراد الكَفَّ عن ذلك وزَجَر نفسه، فحلف بالطلاق الثلاث أنه لن يشربها، فغلبَتهُ عادَتُه وطبيعته على أن خالَعَ زوجته وشربها، وهذا وأمثاله معروف لمَن نظر في أحوال الناس.

ومن المعلوم أن الناس يتفاوتُون في مَيل القلوب إلى المعاصي، وربما كان المُفتَتِن بذلك عالِمًا أو عابدًا، فرُبَّما فَتَن بعِلمه وعبادته قلوبَ بعض العوام، وربما استمالَ الناسَ وقلوبَهُم إليه ببعض أغراض الدنيَا، فرُبما ترخَّصُوا بفِعلِه ورُبَّما عَذَرُوه فيه، وربما حمَلَهم عَرَضُ الدنيا على ذِكر محاسنه، والكَف عن مساويه، فتحصل الفتنة، ومُعَاداة من أمَرَه ونَهَاه، فتتكَرَّر المعصية على اختلاف مراتبها وصفاتها، وقد يصير هذا المسكين لأجل هذا العرض القليل الزائل عن قليل مُعَاديًا لأولياء الله، مُوَاليًا لأهل الفسُوق والمعاصي، وقد قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُوا۟ فَقَدِ ٱحْتَمَلُوا۟ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٥٨﴾﴾ [الأحزاب:٥٨].

وقد عَظُم تحذيرُ السلف من اتِّباع الهوى؛ لعظيم ضَرَره وكبير خَطَره، وتنبيههم على أنَّ مُنتَهى الفوز والظفر بمُخَالفة داعي الهَوى.

قال وَهْبُ بن مُنَبِّه: «العقل والهوى يصطَرِعان، فأيهما غَلب مال بصَاحِبه».

وقال عُمر بن عبد العَزيز: «أفضَل الجِهَاد جهاد الهَوَى».

وقال سُفيان الثوري: «أشجعُ الناس أشَدهم من الهَوَى امتِنَاعًا، ومن المُحَقَّرات تَنتجُ المُوبقَات».

وقيل: إن هشام بن عبد الملك لم يَقُل بيتَ شعرٍ قط إلا هذا البيت:

إذا أنتَ لم تَعصِ الهَوى قادَكَ الهَوى إلَى بعضِ ما فيهِ عَليكَ مقَالُ

وقيل للمُهَلَّب: «بِمَ ظفِرتَ؟ قال: بطاعةِ الحَزم وعصيان الهَوى».

وقالوا: «مَا ذَكَر الله تعالى الهَوى في شيء من القرآن إلا ذَمَّه».

ومن أخطر أنواع الهَوَى، ويقُودُ إلى السقُوط في مُنحَدر الهَلاك: العِشْق، فهو داءٌ صَعب، ومرضٌ خطير، وقد قال غير واحد من التابعين في قوله تعالى: ﴿**رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ**﴾ [البقرة:٢٨٦]: إنه المَحبَّة والعِشق.

ولا يُبتَلى بالعِشقِ غَالبًا إلا مَن غفَل قلبه عن الله وعن ذِكره وعن أمره ونَهيه، قال تعالى في حق يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿**كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٢٤﴾**﴾ [يوسف:٢٤]، فلما عَظُم إخلاصُه كان سببًا لدَفع السُّوء والفحشاء عنه، فالقلب إذا امتلأ من ذلك تغَذَّى به واستغنى به عمَّا سواه.

قال بعضُ العُلماء: ليس العِشقُ من أدْوَاء الحُكَماء، إنما هو من أمراض الغافلين، الذين جعَلُوا شُغلَهم الشاغل في إفراط النظر في المُستَحسنات من الصور، فهنالك تتقَيَّد النفسُ ببعض الصور فتأنس، ثم تتشوق، ثم تلهَجُ، فيكون العِشْق، والحكيمُ مَن استطَال رأيه على هواه، وتسَلَّطت حِكمَته أو تَقوَاه على شَهوتِه.

والعِشقُ إذا خالطَ قلبَ المرء أفسدَ عليه حياته، وقاده إلى الذُّل والانكسار، وانشغال الذهن بالمَعشُوق حتى يستولي على عقله، فيكدُّ ذِهنَه، ويتبَلَّد تَفكيرُه، وينشغل عن ذات نفسه باحثًا عن رضَا مَن تعلَّق به، وإذ به وكأنَّ الحياة قد تَوقَّفت عند هذه النقطة، وكأنه قد صار مُقَيدًا فلا فِكاكَ ولا حِراك.

والعجبُ أن بعضَ الناس يَذهَب إلى هذا الطريق مُختارًا، فيتعرض لأسباب العِشْق فيعشق وقد كان في عافية، فإنه قد يرى الشخصَ فلا تُوجب رؤيته مَحبَّته، فيُدِيم النظر والمُخالطة، فيقع فيما لم يَكُن في حسابه، ومن الناس من تُوجِب له الرؤية نوع مَحبَّة، فيعرض عن المَحبُوب فيَزُول ذلك، فإن داوَمَ النَّظر نَمَا التعَلُّق والحُب في قلبه، ومثله في ذلك كالبُستان إذا زُرِع، فإنه إن أُهمِل يَبسَ وإن سُقِيَ نَمَا[1].

وهذا غالبُ أحوالِ الناس في هذا الزمان، فما يَمُر بهم ليس خَاطرًا أو سَوانحَ فَكرٍ جاءت بلا مقدمات ولا سبب، بل إنهم يسعَونَ إلى طلب ذلك قصدًا وعَمدًا.

وعلى المسلم إن ابتُلِيَ بشيء من ذلك أن يتَلَّمَسَ سُبل النجاة وطُرقَ العلاج لهذا الدَّاء قبل أن يَسُوءَ حاله، **ويَعلم أنَّ مِن أعظَم طرُق عِلاجِه**: الاستعانة بالله تعالى؛ ودعاءه والابتهال إليه سبحانه لا سيَّما في أوقات الإجابة، والتضَرُّع واللجوء إليه بأن يَرُد إليه قلبه، وأن يكشِفَ عنه ذلك البلاء، وأن يُزيله ويُعَافيه منه؛ لأنَّ هذا البلاء من أشدِّ ما يَهجُم على القلوب ويَفتِك بها، ولا يزال يستشري

(١) انظر: «ذم الهوى» لابن الجوزي (ص٣٠٢).

بصاحِبِه حتى يغيِّر نَفسِيَّتَه وسلوكه وأخلاقه، حتى يصير جسَدًا بلا رُوح، ورأسًا بلا عَقل، لا يَحسُن التفكير، ولا يُتقِن التدبير، وقد رُفِع لابنِ عبَّاس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا وهو بعَرَفات شابٌّ قد صار كالفَرخ، فقال: ما شَأنُه؟ قالوا: العِشق. فجعل عامَّة يَومِه يستعيذ من العِشْق.

وحين يعظُمُ البَلاء يعلَمُ المَرءُ أنه لا مَناصَ له ولا نجاة إلا باللجُوء إلى الله، ويُوقِنُ بأنه لا مُخلِّص له إلا ربُّه ومَولاه، فيَطَّرِح بين يديه اطِّراح الطفل الضعيف بأن ينجِّيه الله مما مَسَّه من الأهوال، وأحاطَ به من الأغلال، حيث إنَّ هذا الأمر كمثل البَحر الذي يُعجِب المَرء بلونه ومَنظَره، فإذا دخله عَظُم خوفه لما فيه من تضَارُب الأمواج، والجهل بما يَئُول إليه الحال، فتبَرَّأ من حوله وقُوَّته إلى حول الله سبحانه وقوته، ليَقينِهِ أنه لا عاصِمَ له من الخطر والهَلاك إلا الله القوي العزيز.

ومن طُرق علاج هذا الداء: البُعدُ عمَّن تعَلَّقت به النفسُ بحيث لا يراه ولا يسمع كلامَهُ، خصوصًا إذا كان الأمر في بِدَايته، فإن البُعد وعَدَم النظر إلى المُهَيِّجات مما يُنسِي أثرها، وقد تنشغل النفس بما يَحُول بينها وبين من مالت إليه فتَسلَم.

ولا يُدَّعَى أن الأمر هيِّنٌ، فمَن نظر في هذه المَحبَّة وجد أنه ليس لها سبب صحيح، بل هو ابتلاء وفتنة، ومما قد شَاعَت به الأخبار ما جاء في قُبح ليلى وأنها لم تكن ذات جَمَال، ومع ذلك اشتَهَر تعَلق صاحبها المَفتُون بها حتى سُمِّي المَجنُون، ونُسب إليها حتى سُمِّي: قَيسَ ليلى.

ولذلك كان على مَن أراد سَبيل النجاة أن يبتعد عن المَوَاضع التي تُذكِّره

بمن يَضعُف قلبه به، وأن يَقطَع الفِكر به، ومَن استعان بالله أعانه الله.

ومن أهم الأسبَاب التي تُضعف تَعلُّقَ القلب بشخص ما، أن يتفَكَّر في مسَاوِيه وسَلبيَّاته، فقد قالت العُلمَاء: الاطلاع على بعض العُيوب يقدَحُ في المَحبَّة، وعليه أن يَقيسَه على مَن يشبه جنسه ممن يصاحبه في بيته أو مُجتمعه فيما يتَّصف به وينَفِّر منه، فإنَّ الناس في الخارج يتعامَلُون بالرسمية والحُدود والأدب، ويَظهَرون أمام الناس بأجمل الأخلاق والصفات، لكن مع مَن يَخُصَّهم ويخُصُّونه يتعاملون على سَجِيَّتهم، فتظهر صفاتهم الحقيقية، والقياس على هذه الحال يجعل المرء مُوقنًا أنَّ ما تعلقت به النفس من جميل الصفات في شخص ما، ربما لن يكون كذلك على أرض الواقع، فالناس يتعامَلُون فيما بينهم بالظاهر بحَسَب ما سَتَره الله، فيُظهِر منهم الجميلَ تفضلًا من الله وتكَرُّمًا، فإذا تكشَّفَت الأمور عَرَف كلٌّ منهم صاحِبَه على الحقيقة، وبَان منه ما يحسُن من الصفات وما يَقبُح.

ومما يُعينُ العَبد على طلب النجَاة وتتَبُّع أسبابها: أن ينظر المرء في عاقِبَة المعاصي، وما يقتَرِن بها من ذهاب البَرَكة والذل الذي يسكُن القلوب ويستقر بها، وما يحصُل لها بسبب ذلك من الآثار الشنيعة التي تَعُود على القلوب والأبدان والأرزاق، قال عبد الله بن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «إنَّ للحسَنة ضياءً في الوجه، ونورًا في القلب، وسَعَة في الرزق، وقوةً في البَدن، ومَحبةً في قلوب الخَلق، وإنَّ للسيئة سوادًا في الوجه، وظُلمةً في القلب، ووهنًا في البَدَن، ونقصًا في الرزق، وبغضَةً في قلوب الخَلْق».

والعاقل لا يُؤثِر لذَّة ساعة في الدنيا يَستَجلب بسببها سخط الله سُبحانه وغضبه، وقد تقودُه نفسُه إلى تتبع خطوات الشيطان حتى يَوقِعه في أكبر الآثام القائدة إلى دار الذلِّ والهَوَان في الآخرة، وقد سُئِلَ النبيُّ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ عن أكثر ما يُدخِل الناسَ النار، فقال: «**الفَم، والفَرج**»(١).

ومِن أنفع الأدويَةِ التي يُعَالج الإنسان فيها نَفسَه: أن ينظُرَ بعَين العقل فيمن تعَلَّقت به نفسُه، فإن كان ممَّن يتعَذَّر الاجتماع به فليعلم أنَّ الطمع في ذلك تجَاوز وجُنون، وقد تطمَعُ النفسُ في شخص تَحُول بينه وبينه الحَوائل، وتصُدُّ دونَه الآفات والغَوَائل، وربما كانت فكرة اللقاء به أصعَبَ من أن تستوعبها العقول، فإذا تحقَّق من ذلك قطع سبيل الطمع والأماني الكَاذِبة، التي تَلُوح كسَرابٍ يحَسَبه الظمآنُ ماءً حتى إذا جاءه بعد كَدٍّ وهَمٍّ وتَعَبٍ لم يجده شيئًا، فأفاقَ على صَدمة العُمر، وإذ به خاوي اليَدَين، فلم يَجنِ ربحًا ولم يَسلَم له رأس المال، ولو أنه تفَكَّر في لُجَّة البحر قبل الغَوص فيه لسَلِمَت له نَفسُه، وأحجَمَ عن أمرٍ عَلِم نتيجته قبل أن يسعى فيه اعتِمَادًا على أنه ربما سيكون وسيكون، وهو من عداد المُستَحيل.

ومما لا بُدَّ أن يُعلَمَ أنَّ الشهوة لها دور كبير في تعَلُّق القلوب وميل النفوس، وأنها نتيجة حَتميَّة للتعَلُّق والمحبة، فإذا هَاجَت القلوب بالمحبة لم تَجِد ما يطفئها مثل الوصل بين المُتَحَابَّيْن، وإذا كان النظَرُ لشَخصٍ عابرٍ قد يُؤَدي إلى الإعجاب به فكيف بمَن يُحِبه؟

ولما كان قضَاءُ هذه الشهوة مما يُطفئ نار الفتنة، فلا يلزم أن يكون مع من

(١) رواه ابن ماجه (٤٢٤٦)، وهو صحيح، انظر: «صحيح الترغيب والترهيب» (١٧٢٣).

تعلَّق به، بل إنه متى ما قضَاها مع مَن أحلَّه الله له، فقد قطع عن نَفسِه وسوسَةَ الشيطانِ وهمَزاتِه، وقد دلَّنا النبي الكريم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على هذا العلاج النَّاجح، حيث إنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رأى امرأةً، فأتى امرأته زَينبَ فقضى حاجته، ثم خرج إلى أصحابه فقال: «**إن المَرأةَ تُقبِل في صورَةِ شَيطَان، وتُدبِرُ في صورَةِ شَيطَان، فإذا أبصَرَ أحدُكُم امرأةً فلْيَأتِ أهلَهُ، فإنَّ ذَلك يَرُد ما في نَفسِه**»(١).

وفي قوله: «**إنَّ المَرأة تُقبل في صُورَة شيطَان، وتُدبِر في صُورَة شَيطَان**»، إشارة إلى أن المَرأة شَبيهةٌ به في دُعائه إلى الشَّر بتزيينه ووَسوسَتِه، والتحذيرُ من الهَوَى والفتنة بالمرأة لما جَعَل اللهُ في نفُوس الرجال من المَيل إلى النسَاء والالتذاذ بنَظَرِهن وما يتعَلَّق بهن، وإنما فعَل النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ما فعل، بيانًا وإرشادًا إلى ما ينبغي فِعلُه في مثل هذه الحال لِمَا له من إضعاف داعي الفتنة وكيفية دَفعِه إذا بدَت بَوادِرُه، **وفي مثل ذلك يَقُولُ علماءُ الطبِّ والسلوك**: «إنَّ من فوائد الجِمَاع أنه يزيلُ داءَ العِشق، ولو كان مع غير مَن يَهوَى».

ومِن أعظَم ما يدفع النَّفس على التيقُّظ والبَصيرة: الاشتغالُ بطاعة الله تعالى دون ما سِوَاه، حتى يكون ذلك من أقوى عوامِلِ الصَّدِّ عن الفتنة والابتعاد عن حَبَائل الشيطان، وأن يُمعِنَ العبدُ النظَرَ في حق الله عَزَّوَجَلَّ وعظَمَته، ويتأمل نِعَمَه التي لا تُعَد ولا تُحصَى، فيجعَل مِن تحقيق شُكره لخَالقه أن يُطيع أوامِرَه، ويَجتَنبَ نَواهيه، ويجعل ذلك دَيدَنه حتى يشغله حبُّ خالِقِه عن حُب ما سِوَاه، فإذا جاءت الفِتَن لتَدخُل قلبه لم تَجِد لها مكانًا، بسبب ما استَولى على قلبه من

(١) رواه مسلم (١٤٠٣).

مَحَبَّة خالقه، حتى إنها لم تَجعَل لغيرها نَصيبًا منه.

ومهما تكلَّمَ المرء عن أسباب دفع الفتنة عن القلوب، تبقى على الرغم من قوَّتِها مُجرد أسباب، إن لم يُوفِّقِ اللهُ صَاحبها ويُمِدَّهُ بعَونٍ من عنده فلن يُدرِك الأمن من المتغيرات، ولن يتَّضح له سبيل نجاة، فإذا اتضحت له تلك الحقيقة، علم المرءُ أنه لن يستغني طَرفَة عين عن ربِّه، ولم يَزَل داعيًا مُتَوجهًا إلى ربه بالمسألة أن يأخُذَ بيده إلى كل خير، وأن يَصرِف عنه السوء ومُضِلَّات الفتن، وأن يرزُقَه العافية حتى يلقَاه سبحانه وهو راضٍ عنه، فيَظفَر بالأمن الذي ليس معه خوف، والسعادة التي ليس بعدها شَقَاء.

○○○○○

العلم الشرعي ميراث الأنبياء

لقد خَصَّ الله تعَالى العِلمَ الشَّرعي بكثير من الفَضَائل والخِصَال، ولمزيد فَضله وقَدره فقد ميَّز أهله على سائر الخلق، وفضَّلهم بالرِّفعة والمكانة العالية، قال الله تعالى: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾ [المجادلة:١١].

فالعلمُ الشرعي ميراثُ الأنبياء عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ، الذين بعثَهُم الله سبحانه بالخير والهُدَى، فصَلَحت بهم الأرض بعد فَسَادها، واستقَامَت حياة الناس واطمأنت نفُوسُهم، فقَصروا عن الشَّر، وأقبَلُوا على كل خير، وكان لمَن أخذ بهذا الميراث الطاهر الأجر العَظيم والخير العَميم، وقد جاءَ في حديث النبيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه قال: «**إن العَالِمَ ليَستَغفرُ له من في السَّمَوات ومَن في الأرض، حتى الحِيتَان في المَاء، وفَضلُ العَالِم على العَابِد كفَضل القمَرِ على سائر الكَوَاكب، وإن العُلماءَ ورثة الأنبيَاء، إن الأنبيَاء لم يُوَرِّثوا دينارًا ولا دِرهَمًا، إنما ورَّثوا العِلمَ، فمَن أخَذَه أخَذَ بحَظٍّ وَافِر**»(١).

وإنما بلَغَ العلم هذا المبلغ لعُمُوم نَفعِه؛ حيث إن مصَالحَ كلِّ شَيء ومنَافِعه متعَلقةٌ به، وقد فُضِّل العالِمُ على العابد كتفضيل نور القمر على سائر الكَوَاكب؛ لأنَّ آثارَ العِلم تتعَدَّى إلى الغير، أما آثار العبَادة فليسَت مُتعَدية، لذلك شَبَّه العالم بنُور القمر والعابد بنور سائر الكواكب، وفي هذا إشارَةٌ إلى أن كمَال العِلم ليس للعَالِم من ذاته؛ بل ممَّا تلَقَّاه عن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، كنور القمر فإنه مُستَفاد

(١) رواه أبو داود (٣٦٤١)، وهو صحيح، انظر: «صحيح الترغيب والترهيب» (٧٠).

من نور الشمس؛ لأنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قد وَرَّث لأمته العلم، فمَن أخذه أخَذَ بحَظ وافر ونَصيب تام؛ لأنه لا أعلى من ميراث النبُوَّة.

ولذلك فقد حَرَص السلفُ على تعَلُّم العلم وبثِّه بين الخَلق؛ لمَا يَنتُجُ عنه من الآثار العظيمة التي تَصلُح بها آخرة المرء ودُنياه، حتى قال عبدُ الله بن المبارك رَحِمَهُ اللَّهُ: «لا أعلمُ بعد النبوة درجَةً أفضَل من بَثِّ العِلْم».

وقد خَصَّ الله سبحانه هذه الأمَّة بخَصَائص لا تُشَاركها فيها أمَّة من الأمَم، وذلك أنْ جَعَلها أمَّة محمدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، الذي بعثَه إلى الناس كافَّة بشيرًا ونذيرًا، وجعل بعثَته رحمَةً للعَالَمِين، فإذا فتح اللهُ لعَبدِه بابَ العِلم ويَسَّر له أسبابه، فقد أعظَمَ عليه المِنَّة، وأرشَدَه إلى ما فيه السَّعادة العُظمى في الآخرة والأولى، وكان سببًا في حياة قَلبِه، وكونه نورًا يهتدي به الضُّلال، ويستَرشِد به الحيَارَى، وحاز الفضائل الكريمة والآلاء العظيمة، واجتمَعَت له الأجور، وحُصِّن من المَهَالك والشرور، فقد جاء عنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه قال: «**فضلُ العَالِم على العَابِد كفَضْلي على أدنَاكُم، إنَّ الله وملائكته وأهل السَّمَوات والأرض، حتى النَّملَة في جُحرِها، وحتى الحُوت، ليُصَلُّون على مُعَلِّم الناسِ الخَيرَ**»(١).

ومن أجل ذلكَ لا بُدَّ للمَرء أن يجتهد حَقَّ الاجتهاد في طلب العلم الشرعي الذي يعرِفُ الناسُ من خِلاله الطريقَ إلى الله عَزَّوَجَلَّ، فيَعبُدونه كما يُحِب ويَرضَى، وينتَهُون عما يكرَهُه ويأباه، ولن يبلُغَ المرءُ المَرَاتب العالية في العلم إلا بالمُجَاهدة في سبيل ذلك طلبًا وتحصيلًا، حتى إذا ظَفِرَ بمَطلوبه أنساه ذلك كل ما ناله من المشقَّة والتعب، فإنَّ السُّؤددَ لا يُنال براحَة البَدَن، والأجرُ على قَدر المشَقَّة.

---

(١) رواه الترمذي (٢٨٨٠)، وهو صحيح، انظر: «صحيح الترغيب والترهيب» (٨١).

قال ابنُ الجوزي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «مَن أحبَّ أن يكون للأنبياء وارثًا، وفي مَزَارعهم حارثًا، فليتعلم العلم النافع وهو عِلمُ الدِّين، ففي الحديث: «**العُلمَاء ورثَةُ الأنبياء**»، وليَحضر مجالس العلماء فإنها رياضُ الجنة، ومن أحَبَّ أن يعلم ما نصيبه من عناية الله، فلينظر ما نصيبه من الفقه في دين الله، ففي الحَديث: «**مَن يُرِدِ الله به خيرًا يُفَقِّهه في الدِّين**»، ومَن سأل عن طريق تُبَلِّغه الجنَّة فليَمشِ إلى مجلسِ العلم، ففي الحَديث: «**مَن سَلك طريقًا يلتمِسُ فيها عِلمًا سَلكَ الله به طريقًا إلى الجنَّة**»، ومَن أحب ألا ينقَطعَ عمَلُه بعد موته فليَنشُر العلم بالتَّدوين والتعليم، ففي الحديث: «**إذا مَات الإنسَانُ انقَطَع عمَلُه إلا مِن ثَلاثٍ: صَدقَة جارِيَة، أو عِلم يُنتَفع به، أو ولَد صَالِح يَدعُو له**»...»[1].

قال مُطَرِّف بن الشِّخِّير: «فضلُ العِلم خيرٌ من فضل العبادة، وخَير دِينِكم الورع»، وقال: «حَظٌّ من علمٍ أحبُّ إليَّ من حَظ عِبَادة».

وسَأل رجلٌ ابنَ مسعُود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «أيُّ الأعمال أفضَل؟ قال: العِلم، فكَرَّر عليه ثلاثًا، كلُّ ذلك يَقُول: العِلم، ثم قال: وَيحَك!، إنَّ مع العِلم بالله ينفَعُك قليلُ العَمَلِ وكثيرُهُ، ومع الجَهل بالله لا ينفَعُك قليلُ العَمَلِ ولا كَثيرُهُ».

ولا يعلم حقيقَةَ العِلم ومَنزلته وعُلُو شأنه إلا رَجُلان:

رجلٌ فَتحَ الله عليه به، فكُلما ازداد علمًا، عَلِم عظيم مِنَّة الله عليه، ولم يَزَل يعلِّم ويبذل العلمَ وتكبر مَعرفته، ويرى انتفاع الناس به، فيزداد غِبطَة وبَركة وسرورًا، حتى إذا كَبر سِنُّه، وصار ما بقي من عُمره أقلَّ مما مضَى، حَمِدَ الله على ما اختص به، حين انصَرف كثير من الناس عمَّا وُفِّق إليه هو.

---

(١) «التذكرة في الوعظ» (ص٥٥).

ورجل كان يطلُبُ العلم ويزدادُ منه، ثم انفتَحَت عليه الدنيا فانشغَلَ بها، وانشغل بجمع المَال والثروات، وانصرف عن العلم الذي به حياةُ القلوب، حتى إذا رأى الأقران، وقد فتح الله عليهم بالعِلم، وانشَرَحت صدورهم بالخير، وانتفع بهم البلاد والعباد، ازداد حَسرَةً وكمَدًا، وأيقَنَ بمقدار السعادة التي فقدها، واستشعر حقيقة الحِرمَان من الفضل الذي فاتَه وظَفِر به غيره.

وقد قالَ بعضُ العُلمَاء: «العِلم عبَادَة العُمر لا يُفرَغ منه»، فمَن أراد أن يبلُغَ المَنزِلة العالية في بلوغِهِ فعليه بالصبر والمُجَاهدة في تحصيله، وإنما كان طَلَبُه مجاهدة لقِلَّة مَن يَعتَني به على الرغم من مَسِيس الحاجة إليه، وكونُه صعبًا على النفوس؛ لأنها لا تُعطَى عليه شيئًا من الدنيا، ولذلك لا يَصبِر عليه إلا مَن أرادَ وجهَ الله به، وأرَادَ الله به خيرًا فوفَّقَه إليه.

وفي نَشرِ العِلم حمَاية الخَلق من الشُّرور؛ لأنَّ العِلمَ رأسُ كُل خير، والجَهل رأس كُل شرٍّ وبليَّة، ومَن نَظَر في حال أهل الجاهلية قبل الإسلام، اتَّضَح له ما كانوا عليه من الظلم والقَسوَة وسُقوط القِيَم، والاستهانة بالحُرمَات والدماء، فلما بعث الله نَبِيَّه محمدًا بالدعوة إلى عبُودية الله دون ما سِواه، انتَظَمت حياتُهم، فهدأت النفوس، وتلاشَت الفتن والقَلاقِل والخُصومات، وتيسر للمرء من أمر عيشه وحياته ما لم يكن يَخطُر له على بال، وعَلِمَ الناس ما عليهم من الواجبات، وما لغيرهم من الحقوق، وتحَقَّق للبشرية الأمنُ التام؛ لأنهم تعلَّمُوا ما جاء في الشريعة الغَرَّاء، وتلاشى عنهم الجهلُ القائد إلى كُلِّ شَر.

وفي مثل ذلكَ يَقُول الإمامُ الأوزاعيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «نَشرُ العِلم حَياة، والبَلاغ عن رسولِ الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رحمَة يُعتصَمُ بها».

وقال الإمام أحمَدُ بن حَنبل رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «الناس مُحتَاجون إلى العلم قبل الخُبز والماء؛ لأن العِلمَ يَحتاج إليه الإنسان في كل سَاعَة، والخُبز والماء في اليوم مرة أو مَرَّتين».

ومتى انتشَرَ الجَهلُ بين الناس، وخافَ الناس من اختِلالِ المَوَازين بسبب ذلك، تأكَّدت الحاجة لتعلُّم العِلم ونشره وبَذلِه، وبانت عظَمَةُ أناس وتَفَانيهم وصبرهم في نشر العلم، ليتفَقَّه الناس، ويُرفَع بلاءُ الجهل عن البشَريَّة.

قال ابنُ القَيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «الجُود بالعِلم وبَذله من أعلى مَرَاتب الجُود، والجُودُ به أفضلُ من الجُودِ بالمَال؛ لأنَّ العِلم أشرَفُ من المَال».

وقال الإمامُ أحمدُ بن حُنبَل رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ما أعلَمُ الناس في زَمَان أحوَج منهم إلى طَلَب الحديث من هذا الزمَان. قيلَ له: ولِمَ؟ قال: ظهَرت بِدَع، فمَن لم يكن عنده حديثٌ وَقَع فيها».

وقال ابن مَسعُود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «تعَلَّموا؛ فإن أحَدَكُم لا يدري متى يُحتَاج إليه».

ومَن عَلِم مَنزِلة العِلم، وطمِعَ أن يكون من أهلِهِ، فلا بُدَّ أن يتَّخذ الطرقَ والوسائلَ القائِدَةَ إليه، حتى يصِلَ إلى مُبتغاه، ويُرضي ربَّه ومولاه، فينتفع به الخَلق، وتثقل بهم موازينه يوم القيَامة.

ومن أهمِّ هذه الوسَائل وأَوْلاهَا: أن يحقِّقَ في طلبِهِ العلم الإخلاص لله ربِّ العَالمِين، فبالإخلاصِ يعظُم العَمل مهما كان صغيرًا، ويُدرك المرء بنِيَّته الصادقَة أجرَ مَا نَواه وإن حالت دُونَه الحَوَائل، ويَدُل على ذلك ما جاء عن أنس بن مَالك رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: «لَمَّا رجَعَ رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من غزوَةِ تَبُوك، ودَنَا من المَدينَة، قال: **إنَّ بالمَدينةِ أقوامًا مَا سِرتُم مَسيرًا، ولا قَطَعتُم واديًا؛ إلا كَانُوا**

مَعَكُم. قالوا: يا رَسُول الله، وهُم بالمَدينَة؟! قال: **وهُم بالمَدينَة؛ حَبَسَهم العُذرُ**»[١].

وقالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مَن سألَ الله الشهادَةَ بصِدقٍ؛ بلَّغَه الله مَنازل الشهَدَاء وإن مَاتَ على فِراشِهِ**»[٢].

ومَن صَدَقت نيَّتُه في تعلُّم العِلم وتعليمه، فقَد أعظَمَ اللهُ عليه المِنَّة، وأتَمَّ عليه الفَضل، ورَزَقَهُ أجرًا لا ينقطع، فكلما استفَاد مِن علمه أحدٌ كَتب اللهُ له أجرَ ذلِكَ، فقد صَحَّ عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه قالَ: «**مَن سنَّ في الإسلام سُنةً حَسَنة كانَ له أجرُها وأجرُ مَن عمِل بهَا إلى يَوم القِيَامة**»[٣].

قال بِشرٌ الحَافِي رَحِمَهُ اللَّهُ: «لا أعلَمُ على وجهِ الأرض عملًا أفضل من طَلَب العلم والحَديث لِمَن اتَّقى الله وحَسُنَت نِيَّتُه».

وقال سُفيان: «ما أعلَمُ شيئًا يُرَاد اللهُ به أفضَل من طلَبِ العلم».

وقيلَ لأحمَد: «ما أفضَلُ الأعمال؟ قال: طلبُ العِلم، قيل: لِمَن؟ قال: لمَن صَحَّت نيَّتُه. قيل: وأيُّ شيءٍ يُصَحح النية؟ قال: يَنوِي أن يتواضَعَ فيه ويَنفِي عنه الجَهل».

وعملٌ بلا إخلاص، تعبٌ بلا ثَمَرة، وسَعيٌ بلا نتيجة، وجهدٌ بلا مُقَابل، ويدخُل في ذلك طلبُ العلم لغير الله، بل ليَنَال به شيئًا من حُطام الدنيا، وقد حَذَّر النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من ذلك أشدَّ تحذير، وذكر فيه من الوَعيد الشديد ما يجعلُ

(١) رواه البخاري (٢٦٨٤).
(٢) رواه البخاري (٢٦٨٤)، ومسلم (١٩٠٩).
(٣) رواه مسلم (١٠١٧).

القلوبَ خائفةً وَجِلَةً، فقد قال رسولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مَن تعَلَّم عِلمًا ممَّا يُبتغَى به وَجهُ الله، لا يتعَلَّمه إلا ليُصيبَ به عَرَضًا من الدنيَا، لم يَجِد عَرْفَ الجَنة**»(١).

وجاء عن الإمام عبدِ الله بن المُبَارك أنه قال: «ما مِن شَيءٍ أفضَل مِن طَلَب العلم لله، ومَا مِن شيءٍ أبغَض إلى الله من طَلَب العِلم لغَير الله».

ومِن بَرَكة العِلم وأسباب ثَبَاته: أن يعملَ صاحبُه بما عَلِم من الهُدى، وأن يظهَرَ أثَرُ عِلمِه عليه، ولا يَكُن همُّه أن يُشار إليه بالأصابع، أو يَمتَدحه الناس في المَجَالس والمَحَافل، أو أن يزداد معرفةً دون أن يعمل بما عَلِم.

قال أبو الدَّردَاء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «لا يكونُ الرجلُ عالمًا حتى يكونَ به عاملًا».

وقال التابعي الجَليلُ أبو قِلَابة رَحِمَهُ اللَّهُ: «إذا حَدَث لك عِلمٌ فأحدِث له عبَادة، ولا يَكُن هَمُّك أن تحَدِّث به الناس».

وقال الحَسَن البَصري رَحِمَهُ اللَّهُ: «كان الرجلُ يطلب العلمَ فلا يلبَثُ أن يُرى ذلك في تخَشُّعه وهَديه ولسَانِه وبصَره ويَدِه».

وجاء عَن عُمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه قالَ: «تعَلَّمُوا العلم، وتعَلَّموا له السَّكينة والحِلْم، وتواضَعُوا لمن يُعَلمكم، وتوَاضَعُوا لمن تعَلِّمون، ولا تكونوا من جَبَابرة العلماء، فلا يَقُوم عملُكُم مع جَهلِكُم».

وعلى طالب العِلم -إن أرادَ أن ينفع اللهُ به- أن يَظهَرَ عليه الصلاح والوَقَار والخَشية والسكينة، وأن يكونَ له سَمتٌ وهَيبَة، فيأخُذ بمَحَاسن الأمُور والعَادات، ويتجَنَّب قبيح الأفعال والتصَرُّفات، ويَصُون نفسَه وعِلمَه عن كل

(١) رواه ابن ماجه (٢٥٢)، وهو صحيح، انظر: «صحيح الترغيب والترهيب» (١٠٥).

شَائبة؛ لأنَّ الناس لا يأخُذون إلا ممَّن يرونه قُدوة في الخير، ومثالًا يَحتَذُون به في دِينِه وسَجَاياه، فقد كتبَ عُمرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إلى أبي مُوسى الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «إنَّ الفقهَ ليسَ بسَعة الهَذَر وكَثرَة الرواية، إنمَا الفِقهُ خَشيةُ الله».

وقالَ الشَّعبي رَحِمَهُ اللَّهُ: «زَينُ العِلم حِلْمُ أهلِه، وإن هذا العِلم لا يصلُحُ إلا لِمَن فيه عقل ونُسُك، فاليَوم يَطلُبه مَن لا عقلَ له ولا نسُك فيه».

وكان عبدُ الوهَّاب الورَّاق رَحِمَهُ اللَّهُ من صَالِحي أصحاب الإمام أحمد بن حنبل -غفر الله له-، وقَد سُئِلَ أحمد: «مَن نَسأل بعدَكَ؟ فقال: عبد الوهاب الورَّاق، فقيل له: إنه ضيِّق العِلم. قال: رجلٌ صالح، مِثلُه يُوفَّق لإصابة الحَق».

ولا يَحسُن بطالبِ العِلم -فضلًا عن العَالِم- أن يَظهَرَ منه ما يقدَحُ في عَدَالته حتى يَزدَرِي الناسُ ما عنده، فيَكُون سببًا في صَرف الناس عن الحق والتباس الأمُور عليهم.

قال سُفيان الثوري رَحِمَهُ اللَّهُ: «العَالِمُ طبيب هذه الأمة، فإذا كان الطَّبيب يَجُر الدَّاء إلى نَفسِه، فكيف يُعَالج غَيرَه؟!».

وقال عبدُ الله بن مسعُود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «لو أنَّ أهل العِلم صانُوا العلم ووضَعُوه عند أهلِهِ لسَادُوا أهلَ زمَانِهم، ولكنهم وضَعُوه عند أهل الدنيا لينَالوا من دُنيَاهم فهَانُوا عليهم».

والأخذُ عن العُلماء من أعظم أسبَاب ثبَات العلم وزيَادَته، والجُلوسُ إلى العالِم والتفَقُّه عليه مما دَرَج عليه أهلُ العلم في كُل زمَان، وأوصوا به في كل مَحفِلٍ ومكان، فمِنهم يُؤخَذ العلم والأدب، ويَعرِفُ طالبُ العلم كيف يبثُّ العلم ويتعَاملُ مع الخَلق.

قال ابن مَسعُود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «إنَّ أحدَكُم لم يُولَد عالِمًا، وإنما العِلم بالتعَلُّم، اغدُ عالِمًا، أو مُتَعلمًا ولا تَغْدُ إمَّعةً بين ذلك».

وقيل للإمام أحمَد: «إلى متَى يَكتُب الرجلُ؟ قال: حتى يَمُوت، ونحنُ إلى الساعَةِ نتعَلَّم».

قال صالحُ بنُ أحمد بن حنبل: «رأى رجلٌ مع أبي مِحبَرة، فقال له: يا أبا عبدِ الله، أنت قد بَلَغتَ هذا المَبلغ وأنت إمامُ المسلمين، فقال: مَع المِحبَرة إلى المَقبَرة».

ورأى أحمدُ أصحابَ الحديث قد أقبَلُوا وبأيديهم المَحَابر، فقال: «هذه سُرُج الإسلام»؛ يعني: المَحَابر.

وفي بقاءِ العلماء سعادةُ الإنسان وأمن الأوطان، فإذا ذهبُوا حلَّ الخوف والاختلال، لكثرَةِ الجهل الذي هو أصلُ كلِّ شرٍّ وبَلِيَّة، وقد قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إنَّ اللهَ لا يقبضُ العِلمَ انتزاعًا ينتَزعُه من العبَاد، ولكن يَقبِض العلمَ بقبض العُلماء، حتى إذا لم يُبْقِ عالمًا؛ اتخَذَ الناس رُؤوسًا جُهالًا، فسُئِلُوا، فأفتَوُا بغَير عِلم، فضَلُّوا وأضَلُّوا**»[1].

قال ابنُ مَسعُود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «عليكُم بالعِلم قبل أن يُقبَض، وقبضُه ذَهاب أَهلِه، وإياكُم والتنطُّع والتعمُّق، وعَليكُم بالعتيق فإنه سيَجيء أقوامٌ يَتلون كتابَ الله ويَنبُذونه وراء ظُهُورهم».

وبمُذَاكرة العِلم مع أهله، يَثبُت العِلم ويزدادُ ويُبارك فيه، ويُفتح لطالبه الآفاق، ويُورثه ذلك علمَ ما لم يَعلَم، وهذا كان دَأْبَ أهل العلم في كل زمن.

قال الأَحْنفُ بنُ قَيس: «مُذَاكرة الرجال تَلقيحٌ لعُقولها».

---

(١) رواه البخاري (١٠٠)، ومسلم (٢٦٧٣).

وقال ابن عبَّاس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا: «مُذَاكرة العلم ساعَة أحَب إليَّ من إحياء ليلَةٍ».

وقال عبدُ الرحمن بن مَهدِي: «كان الرجلُ إذا لَقِي من هو فوقَه في العِلم كان يوم غنيمَة، وإذا لقي من هو مثله دارَسَه وتعلَّم منه، وإذا لقي مَن دُونه تواضع له وعَلَّمه».

وينبغي لطالب العِلم أن يُديمَ النظَرَ والمُطَالعة، فهو سَببٌ لإثراء العُقول وتحصيل المَعلُومات وتنميتها، وإنما الأمرُ اعتياد، فإذا بَدَأ القراءة ولو قَليلًا، تعوَّد عليها ثمَّ لَزِمها، فإذا رأى تغيُّر حاله إلى الأفضل، وسَيْرها نحو الأكمَل، أحبَّ ذلك وجَعَله من ضروريات حياته التي لا يَستَغني عنها.

ومَن ذاقَ لذَّةَ العِلم هان عليه في سبيل تَحصيله كُل عسير، وربما تغرَّب في البُلدان، وفارق الأهل والأوطان، وسافر لعَالِم ليَلزَمه ويتعَلَّم على يديه، أو ينتقل إلى جامِعَة تُعَلِّم العلوم الشرعية، وبقي هناكَ فترة طويلة، فإذا حصَلَ له ما يريد نسي كلَّ ما مرَّ به من المشَقَّات وكأنها لم تَكُن قط.

وقد كان مِن دَأبِ السلف الرحلةُ في طلب العِلم، وتحمُّل المَشَقَّات من أجل ذلك، يريدونَ بذلك وجه الله، فأعلى اللهُ قَدرَهُم، وخلَّد ذِكرَهم، فانتفع بهم مَن جاء بَعدَهم.

قال أبو قِلابة رَحِمَهُٱللَّهُ: «لقَد أقَمتُ بالمدينةِ ثلاثة أيام، ما لي حاجَةٌ إلا رجل يَقدُم عندَهُ حَديثٌ فأسمَعُه».

وقال الشَّعبيُّ: «لو أن رجلًا سافَرَ من أقصى الشَّام إلى أقصى اليَمَن، فسمع كلمةً تنفعه فيما يستقبل من أمرِهِ، ما رأيتُ سفَرَه ضَاع».

وإذا أنارَ اللهُ بصيرةَ العبد وأراد به خيرًا أيقَن تمام اليَقين أنَّ العِلمَ رِزقٌ من الله،

يُعطيه الله مَن شاء من عبَاده مِنَّة منه وفَضلًا، وقَد جاء عن الإمام أحمَد بن حنبل قَولُه: «إنما العِلم مَوَاهب، يُؤتيه الله مَن أَحَب مِن خَلقه، وليس يناله أحَدٌ بالحَسَب، ولو كان بالحَسَب لكان أَوْلى الناس به أهلَ بيتِ رسُولِ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ».

فالواجبُ على العَبد إن فتح اللهُ عليه بالعِلم أن يحمَدَ الله أن خَصَّه بالفَضل والإنعام، ورزَقَه بهذا النور الذي يُنير العَتمَة والظلام، وعليه أن يجعَلَ هَمَّه الشاغل المُحافظَة عليه، والتزَود منه على الدَّوام، وأن يحذَرَ أن يُطفئ هذا النور بظلمَاتِ المَعَاصي والآثام، فإنَّ المَعَاصي تُزيل النِّعم، وتَحجُبُ البصيرة، وتجلبُ النِّقم، فإذا تقَحَّمها طالبُ العلم حُرِم هذا الرِّزق العظيم، وذهَبَت بركة ما تعَلَّمَه، حتى يصير أمرُه إلى شتَات، وفي ذلكَ يَقُول ابن مسعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «تعَلَّموا، فمَن عَلِم فليَعمَل، وإني لأحسَبُ أن الرجلَ ينسَى العِلمَ للخَطيئة يعمَلُها».

وقد استعاذَ النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِن عِلمٍ ليس فيه نَفعٌ ولا برَكَةٌ، فقال: «**اللهُمَّ إني أعُوذُ بِك مِن عِلم لا ينفَع، ومِن قلبٍ لا يخشَع، ومِن نَفسٍ لا تَشبَع، ومِن دَعوةٍ لا يُستَجابُ لَهَا**»(١).

○○○○○

(١) رواه مسلم (٢٧٢٢).

وصيـة جـامعـة

إذا أوصَى النبيُّ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ بوصيَّة فالزَمْها، فإنَّ فيها الخير والبركة، والزيادة من كلِّ برٍّ، والهداية إلى أفضل سبيل وأقوم طريق، وإنما تَعظُم الوصايا عند شدة الحاجة إليها، والاضطرارِ إلى ما يكون فيها من توضيح المُشتَبه وبيان المُلتَبِس، ومن هذه الوصايا وصيته صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ لشدَّادِ بن أوس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ -وهي وصيَّة لأمَّته- حيث قال: «**يَا شَدَّاد بن أَوْسٍ، إذا رأيتَ الناسَ قد اكتنَزُوا الذهبَ والفضَّة، فاكتَنِز هؤلاءِ الكلمَات: اللهُمَّ إني أسألُكَ الثباتَ في الأمرِ، والعزيمَةَ على الرُّشد، وأسألُك مُوجِبات رَحمَتك، وعزَائِمَ مَغفِرَتك، وأسألُك شُكر نِعمَتِك، وحُسنَ عِبَادتك، وأسألُك قَلبًا سَلِيمًا، ولسَانًا صادقًا، وأسألُك من خَير مَا تَعلَم، وأعوذُ بكَ مِن شرِّ ما تعلَمُ، وأستَغفِرُك لمَا تعلَمُ؛ إنكَ أنتَ علَّامُ الغُيُوب**»[1].

والمتأمِّل فيما قدَّم له النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ من هذه الكلمات، يَرى فيه أبلغَ دلالة وتوجيه إلى أنَّ الإنسان يتأكَّد عليه حين اختلاط الأمور أن يلزمَ الدعاء والابتِهَال إلى الله عَزَّوَجَلَّ، وحينما ينشغِلُ الناس في الدنيا ويُفتح عليهم بابُ الشهوات، يكون المرء أكثر ما يكون التجاءً إلى الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ بالدعاء والتبتُّل إليه، وذلك أنه حينما تُفتح الدنيا على الناس وتتشرَّبُها القلوب؛ يكون للإنسان من الدَّواعي ما يُبعِدُه عن الله عَزَّوَجَلَّ، ويجعَلُ الأمور مُختَلطة بالنسبَة إليه.

ولذلك نبَّه النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ على خُطورة الأمر، وأن على الإنسان إذا كَثُرت

(١) رواه الترمذي (٣٧٠٥)، وهو صحيح، انظر: «سلسلة الأحاديث الصحيحة» (٣٢٢٨).

حوله المَخَاوف أن يكون داعيًا اللهَ مُتبَتِّلًا إليه، وأن يكون أكثر فِرارًا إلى الله عَزَّوَجَلَّ، لا سيَّما حين يُفتح باب الفتن الواضحة المَعلُومة، أو المَجهُولة التي لا يشعر الإنسان بها حتى تقع منه موقِعًا لم يكن له بالحسبان، كمَا قال الزُّبَيرُ بن العَوَّام رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: «كُنا معاشِرَ أصحابِ رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ نقرأ هذه الآيةَ: ﴿وَٱتَّقُواْ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً﴾ [الأنفال:٢٥]، فَلَم نَكُن نعلم أنَّا أهلُها حتى وقَعَت مِنَّا حيثُ وقَعَت».

فقد يظُنُّ الإنسانُ أنه بمَنأى عن الفتنة، وبعيد عن مواقف الخَلَل، ومواقع الخَطَر، فلا يشعر بنَفسِه إلا وقد وقع.

فحينما تكثُر فتنُ الشبهات والشَّهوات، وتُفتح على الناس الدنيا؛ نَبَّه النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ في مثل هذه الحال على لزوم الدعَاء، وهذا من نُصحِه لأمَّته صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ.

ولمَّا نبَّه صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ هذا التنبيه العظيم، خصَّ بالذكرِ الدعاءَ بكَلمَات تَعظُم حاجةُ الإنسان إليها، من أجل أن يكونَ ثابتًا في مَسِيرِه، ويكون الطريق مُتَّضِحًا له، فينجو من الفتن ومواقع الخوف والخطر.

فسؤال الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ الثبات على الدِّين والاستقامة أمام هذه الفتن المُتَلاطمة تلاطُمَ الأمواج العاتية، من أشدِّ ما يحتاج إليه المَرء؛ لأن هذه الأحداث والمُتَغيرات مما تُنَازعه الثبات، فيُكثِر الدعاء بأن يثبته الله عَزَّوَجَلَّ على الخير، ويصرفه عن الشر حتى لا يَضِلَّ ولا يَزِلَّ.

والثباتُ له قدرٌ عظيم، ومسألةٌ يجب أن يكون الإنسانُ منها على بَصيرَة، ويعلم أنها لن تُنال إلا برَحمَة الله عَزَّوَجَلَّ، وقد ذَكَرها الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ لنَبيِّه من باب

الامتنان عليه بها، فقال سبحانه: ﴿ وَإِن كَادُوا۟ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ لِتَفْتَرِىَ عَلَيْنَا غَيْرَهُۥ ۖ وَإِذًا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلًا ﴿٧٣﴾ وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾ ﴾ [الإسراء:٧٣-٧٤].

وتَثبيتُ الله عَزَّوَجَلَّ للعبدِ أمامَ فِتَن الدنيا حينما تُفتَح على الناس؛ من أعظم النِّعَم، وعلامةٌ على حفظ الله عَزَّوَجَلَّ له، وبشارة له بأن يثبته الله تعالى يوم القيامة، وإذا كان المرء قد وفَّقه الله للإيمان به، وكان ملازمًا للطاعات، ويدعو الله دعاء الخائف الوجل الذي يخاف أن يضعُفَ دينُه أو يذهبَ عنه، كان حريًّا بأن يثبته الله على الحق، وأن يبلغ المقامات العظيمة، وفي ذلك يقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ ﴾ [إبراهيم:٢٧].

ومن كان يسير إلى الله عَزَّوَجَلَّ على خُطًا ثابتة، وفتح عليه باب الطاعات، كان من المتأكد في حاله أن يسأل الله عَزَّوَجَلَّ المَزيدَ، وأن يُثَبته على ذلك، وكلما دارت حوله الفِتَن استشعر الخطر، خُصوصًا في أزماننا هذه التي تسير نحو النهايات، وقد يَظُن كثير من الناس أنهم لا يزالون على مَشَارف البدايات وهم في آخر الأزمان، وقد جاء في حديث النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ أنه قال: «**بُعِثتُ أنَا والسَّاعةُ كهَاتَينِ**، وأشَار بإصبعَيهِ السَّبَّابةِ والوُسطَى»[(١)].

وهذا في وَقتِه صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، فكيف بزمَاننا هذا؟!

والناس في كل يوم بانحِدَار، ولا يأتي زمانٌ إلا وما بعده أشرُّ منه وأشَد، كما قال النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**لا يَأتي زمَانٌ إلا والذِي بَعدَه أشَرُّ مِنهُ**»[(٢)].

---

(١) رواه البخاري (٦١٤٠)، ومسلم (٢٩٥١).

(٢) رواه البخاري (٦٦٥٧).

فمَن ثبَّته الله سبحانه على الحق والهُدَى ووفَّقه للعمل به، فقد أعظم عليه المِنَّة، وأتَمَّ عليه النعمة، فعليه أن يدعو الله دائمًا أن يثبته على ذلك ويسأله الزيَادَة، ويعلم أنه لا يستغني طرفَةَ عين عن ربه، وأنه إن وكَلَه إلى نَفسِهِ هَلَك.

ومِن توفيق الله للعَبد أن يتم له ما عزم عليه من الصلاح والرَّشَد، ولن يبلغ هذه المنزلة إلا بتيسير الله له، ولذلك أكَّدَ النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على ذلك ورغَّب للعبد إذا تبيَّن له أمرٌ فيه صلاح أن يسأل الله «**العَزيمة على الرُّشد**»؛ لأنه إذا لم يظفر بتأييد الله له وتوفيقه إلى ما عزم عليه، لم يفتح له بابٌ، ولم يَنفَعه حولٌ ولا قُوة، وسُرعان ما تَفتُر قوته، ويضعف عَزمُه، فالمرء لن يستغني عن الله، ومحتاج إليه حتى في أبواب الطاعة والامتثال إلى أمره سُبحانه، على الرغم أنه من المتبَادِر إلى الأذهان أن السَّعي إلى الطاعات من المسلَّمات لأنَّ الله أمَرَ بها؛ فإذا أراد العبدُ أن يكتَسِبها ويعمل بها تيَسَّرت له، وهذا ظنٌّ خاطئ، فإنه لن يتيَسَّر للعبد إلا ما أعانه الله عليه، ولذلك فقد جاء عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه قال لمُعَاذ بن جَبَل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**إنِّي لأحِبُّك، فلا تدَعَنَّ في دُبُر كلِّ صلاةٍ أن تَقُول: اللهُمَّ أعنِّي عَلى ذِكرِك وشُكرِك وحُسنِ عبَادَتِك**»(١).

فإذا تبيَّن للإنسانِ أمرٌ فيه صَلاح؛ سألَ الله أن يُعطِيه العَزيمَة عليه، وأن ينشرِحَ له صَدره، وأن يوفقه للقيام به، ويعلم أنه لن يستطيع ذلك إلا إذا وفَّقه الله إليه، فيسأل الله من فَضله العَظيم.

ولأنَّ العبد محتاج إلى رحمَة الله، شُرع له أن يبحث عن الأسباب التي تجلِبُ له هذه النعمة العظيمَة، مع سؤال الله تعالى أن يُوَفِّقه إليها، ويدعو بما

(١) رواه أبو داود (١٥٢٣)، وهو صحيح، انظر: «صحيح الترغيب والترهيب» (١٥٩٦).

أوصى به صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بقوله: «**وأسألُكَ مُوجبَات رَحمَتِك**»، ويدخل في ذلك كل أمر يُوجِب حصولَ الرحمة للعبد من الأقوال والأفعال، فيسألها من الله عمومًا، أو أن يَخُصَّ شيئًا معينًا بالسؤال، مثل سؤال الله تعالى أن يفتح له باب العِلم، أو الذِّكر، أو العِبَادة، أو الإحسان إلى الخَلق، ونحو ذلك من الأعمال التي تُوجِب له حصولَ الرحمة وتقوده إليها، وقد كان هذا دَأْبَ الصالحين، كما أخبر الله تعالى عن صفات المؤمنين أنهم كانوا يَدعُون الله ويسألونه أن يُيَسِّر لهم أسباب النجَاة، فقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴿٧٤﴾﴾ [الفرقان:٧٤].

وكان الأنبياءُ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ أكثَر الناسِ ابتهالًا إلى الله بأن يُوَفِّقهم لذلك، ومن ذلك ما ذكَره ربُّنا سبحانه عن إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ أنه كان يَدعُو بقوله: ﴿رَبِّ ٱجْعَلْنِى مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۚ رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ ﴿٤٠﴾﴾ [إبراهيم:٤٠].

وهكذا كان حالُ أصلح الناس في القُرون المُفَضَّلة؛ فقد كانوا أكثر الناس ابتهالًا إلى الله ولجوءًا إليه بأن يُيَسر لهم السُّبُل والأسباب التي تُوجِب رحمته لهم، بالرغم مما جعل الله لهم من السابقة، وقوة التديُّن، والثبَات على الحق.

والمرءُ يرجو الله عَزَّوَجَلَّ أن يفتح له الأسباب التي تكون سببًا للمَغفِرة، وأن يستُرَه في الدنيا والآخرة، وأن يستُرَ ما اقترفه من الذنوب فلا يظهر له يوم القيامة ما لم يكن له بالحُسبَان، فيكون ممن قال الله فيهم: ﴿وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا۟ يَحْتَسِبُونَ ﴿٤٧﴾﴾ [الزمر:٤٧]، وسبيل ذلك أن يسأل الله تعالى «**عَزائِم مَغفِرتِهِ**»، وذلك بأن يأخُذَ بالعزيمَة، وهي الأمور المُؤَكَّدة، فيأخُذها بقُوَّة وتأكيد، وأن يثبت عليها؛ حتى يكون ذلك سببًا للمغفرة للعبد، وأن يُلِحَّ في الدعاء بأن يُيَسرها الله

له، ويغفر ما كان منه مما علمه ومما لا يعلمه.

وفي هذا الدعاء سؤال الله تعالى أن يُوَفِّق عبدَه لشكر نعمته وحسن عبادته، فيشكر الله عَزَّوَجَلَّ بقلبه وجوارحه ولسانه، ويقرُّ بأنَّ النعم التي رزقه اللهُ بها إنما هي من عند الله عَزَّوَجَلَّ، ويكون من تمام أداء شكر ربه سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ أن يأخذ بما يحبه الله ويعمل به، ويشكر الله تعالى بقلب ذاكر، ولسان شاكر، ويؤيد ذلك بالعمل؛ لأن الشُّكر عمَل؛ كما قال تعالى: ﴿ٱعۡمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكۡرٗاۚ﴾ [سبأ:١٣]، وينتهي عما نهى عنه، فلا يستعمل هذه النعم التي أنعم الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ عليه بها في معصية، ويكون محسنًا العبادة، وذلك بإخلاصها لله رب العالمين، وأن يكون متابعًا للنبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ، ويعلم أنَّ كل طريقٍ إلى الله مَسدُود إلا طريق محمدٍ صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ، ولن يُفلِحَ المرءُ ويظفَرَ بالأجر الوافي الكامل إلا إذا تعبَّد اللهَ عَزَّوَجَلَّ على طريقة النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ، الهادي البشير، الذي ما ترك طريقَ خَيرٍ إلا دلَّ أمته عليه، ولا طريقَ شَرٍّ إلا حذَّر أمته منه، فإذا اجتمع في عمل المَرء إخلاصُه لله تعالى، واتباعُه لسُنَّة النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ فقد وُفِّق للعمل الحَسَن المتقبل عند الله، قال الفُضَيل بن عيَاض رَحِمَهُٱللَّهُ في قوله تعالى: ﴿لِيَبۡلُوَكُمۡ أَيُّكُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلٗاۚ﴾ [الملك:٢]، قال: «أخلصُه وأصوَبُه، فإنه إذا كان خالصًا ولم يَكُن صوابًا لم يُقبَل، وإذا كان صوابًا ولم يكن خالصًا لم يُقبَل، والخالص إذا كان لله، والصَّواب إذا كان على السُّنة».

وفي هذا الدعاء ابتهالُ العَبد إلى الله قائلًا: «**وأسألُكَ قلبًا سَليمًا**»، والقلب السليم: هو البَريء من الشرك والبدع، كما يَحرص صاحبه على أن يُزَكِّيَه من أخلاق السوء، كالحسد والكبر والأضغان والأحقاد، والسلوكيات التي تُفتَح بها

أبوابُ الشرور، والتي كلما ازداد منها العبدُ أصبح بينه وبين الله فَجوة وحَاجِز عظيم.

ومَن تأمَّل السُّنة النبوية تبيَّن له نَهي النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن كثير من المُعَاملات والتحذير منها؛ لأنها توجب البُغض بين الخَلق، فقد نَهى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن بيع الغَرَر؛ وهو مجهول العاقبة، وعن النَّجْش؛ وهو الذي يزيد في السلعة لا يريد شراءها، ولكن ليَخدعَ بعض إخوانه المسلمين حتى يزيد على ثمن السلعة، فتُباع له بثمن لا تستحقه، وينتفع بذلك البائع.

ونهى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يخطِبَ الرجل على خِطبَة أخيه، وأن يبيع على بيعه، ويَسُوم على سومه؛ لأنَّ هذه الأفعال مما تُغَيِّر القلوبَ وتُفسِدُها.

فإذا أراد المَرءُ أن يكون قلبُه سليمًا، فلا بُد أن ينشِّئَه على إخلاص العمل لله ربِّ العالمين، وأن يكونَ مُتنزهًا عن الشِّرك، مُتَوجهًا إلى الله بالعبادة، مُتنزهًا عن أخلاق السُّوء، فإذا صار قَلبُه سليمًا فقد فاز، قال تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾ [الشعراء:٨٨-٨٩]، وكم من أُناس غفَلُوا عن إصلاح قلُوبِهم، حتى دَهَمتها الأدرانُ والأمراض فأفسدَتها، فصَارَت لا تعرفُ مَعرُوفًا ولا تُنكِر منكرًا.

فالواجب على المسلم أن يُزكِّي قلبه ويجتهد في سبيل تحقيق ذلك، ويعلم أن هذه الأدران لا بُد أن تَهجُم على القلوب، وأكثر الناس حظًّا ونصيبًا في النجاة منها، مَن إذا جاءت إليه استعاذ بالله، ووَطَّن نفسه على المقاومة، حتى يصفُوَ قلبُه ويرِقَّ طبعه، لا أن يسلِّم لما يُفسِد قلبه حتى لا يجد إلى السلامة من سبيل، ويُحَال بينه وبين قلبه، فيَرى قُربَه منه ولكن لا يَجِد حيلة في الوصول إليه، حتى إنه ليستنكر

هذا القلب، ويَجدُ بينه وبينه وحشة، ولا يزال مُنغَمسًا في أدرانِ الذنوب، ويسعَى بزيادَتِها في كل يوم، حتى ينطمِسَ نور القلب فلا ينتفع به، وفي ذلك يقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ ﴾ [الأنفال:٢٤]، قال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «يَحُول بين الكافر وبين الإيمَان، وبين المُؤمنِ وبين الكُفر».

ومَن رُزِقَ لسَانًا صادقًا فقد أفلح، واللسان الصادق لا يقول إلا حقًّا في جميع أموره، ويكون صاحِبُه جميل اللفظ، حُلو المنطق، لا يمتطي الكذب ولا يسلك طريقًا يقود إليه؛ لأن الكذِبَ قائد إلى الفجور، وإذا فُتح بابه على العبد قاده إلى النار، فقد قال النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إيَّاكُم والكَذبَ، فإنَّ الكذبَ يَهدِي إلى الفُجور، والفُجُور يَهدِي إلى النَّار، وإنَّ الرَّجُلَ ليَكذبُ، حتى يُكتبَ عندَ الله كذَّابًا**»(١).

والمَرء لا يكذب إلا من مَهَانته، وقد يظن أنه بكَذِبه سيَسبِق الناسَ إلى المجد، أو أنه سيُغَيِّر الأحداث والوقائع، ويحصُل على الشيء الذي لم يُقدَّر له، وهذا من سُوء الظن بالله عَزَّوَجَلَّ، وهذه الأرزَاقُ قد تأتي إلى الناس ولم يَكُن منهم ثَمَّة عمل ولا طلب، وقد تُمنَع ممَّن جاء بجميع الأسباب، والله حَكيم عَليم، وفي ذلك يقولُ النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لو أنَّ ابنَ آدم هَربَ مِن رِزقِه كمَا يَهرُبُ من المَوت، لأدرَكَه رِزقُه كمَا يُدركُه المَوتُ**»(٢)، وهذه حقيقةٌ ثابتة تَنفِي عن الإنسان كل ظنٍّ سيئ، فهل بعد هذا يعمَدُ المرءُ إلى الكذب ظنًّا منه أنه سيُقَدِّم رزقًا، أو يُؤَجِّل شرًّا؟

---

(١) رواه البخاري (٦٠٩٤)، ومسلم (٢٦٠٧).

(٢) رواه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (٨/ ٢٤٦)، وهو صحيح، انظر: «سلسلة الأحاديث الصحيحة» (٩٥٢).

وأقربُ الناس إلى الناس أصدَقُهم لسانًا، ولذلك عند المُلِمَّات لا يذهب الناسُ إلا إلى الصادق الأمين، ولا يأتون الكاذِبَ أبدًا، وحينما تتعَلَّق بهم بعض الأمور والحُقوق والواجبات فإنهم يطرُقُون باب الصَّادق ويبحَثُون عنه مهما ندَرُ وجودُه وابتعَدَ مَكانُه.

ولما خَصَّ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في هذا الدعاء ما تدعو إليه الحاجة من أمورٍ خاصَّةٍ، دعا بعمُوم الدعاء، وقال: «**وأسألُكَ مِن خَيرِ مَا تَعلَمُ**»، فالخير قد لا يعلَمُه الإنسان، ولكنَّ اللهَ تعالى يعلمه ولا يَخفَى عليه، وهذه دَعوةٌ عامَّة بعد أن خصَّ نوعًا من الأدعية، وقد كان من عادة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في دُعَائه أنه يخُص ويَعُم، كما جاء ذلك عنه في قوله: «**اللَّهُمَّ إنِّي أسألُك مِنَ الخَيرِ كُلِّهِ عاجِلِهِ وآجِلِهِ، ما عَلِمتُ مِنهُ ومَا لَم أعلَم**»(١).

وكما سألَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَبَّه من الخير كله خصوصًا وعمُومًا، فقد استعاذ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من الشرور الخاصَّة والعامة، وقال: «**وَأَعُوذُ بِكَ مِن شَرِّ مَا تَعلَمُ**»، فالناس لهم ظاهِرُ الحَال، ولكن لا يعلَمُ الأمر على الحقيقة إلا الله، وقد تأتي بعض الأمور ويُرى أنها من الخير، ويَكمُن وراءها الشرُّ كله، وقد لا يظهر أثَرُ ذلك الشَّر إلا بَعدَ زمَنٍ بعيد.

وكان فيما أَوحَى الله تعالى إلى نَبيِّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قوله تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ۝١ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ۝٢﴾ [الفلق:١-٢]، أي: أن في هذا الخَلق الذي خَلقه اللهُ مَن يكون فيه شَر، فيَستعيذ بالله منه، بل وكان مِن دُعَائه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قوله: «**ونعُوذُ بِاللهِ مِن شُرورِ أنفُسِنَا**»، فإذا كانت النفسُ قد تأمرُ صاحِبَها بالشر

(١) رواه ابن ماجه (٣٨٤٦)، وهو صحيح، انظر: «سلسلة الأحاديث الصحيحة» (١٥٤٢).

فغَيرُها من باب أَوْلى.

وقد لا تتكشفُ للمَرء كثير من الأمُور، وتظهر بثوب حسَنٍ جميل ولكن يكمُن وراءها الشَّر كله، وسبيل النجاة للعبد أن يدعو الله أن يُجَنِّبه هذه الشرور، ويستعيذ بالله منها، ويتأكد في حقه أن يكون دائم التبتُّل لله عَزَّوَجَلَّ أن يَحمِيَه من الشرور الخفيَّة التي لا تتكشَّف له وقد تأتي بصُورة الخير.

والعبد إذا رأى ذلك لَزِم هذه الأدعية؛ وازداد ضَعفًا لله، وعَلِم أن ما يخفى عليه أكثر مما يظهر، فأيقَنَ بحاجته لربه وافتقاره إليه.

وفي ذلك يَقُول الإمامُ الفقيه ابن قُدَامة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «واعلم أنَّ مَن هو في البَحر على اللَّوح ليس بأحوَجَ إلى الله ولُطفِه مِمَّن هو في بيته بين أهله وماله، فإذا حَقَّقت هذا في قلبك، فاعتمد على الله اعتماد الغريق الذي لا يعلَمُ له سببَ نجاةٍ غَيرَ الله»[1].

وهكذا يجبُ أن يعيش المسلم، يسأل الله السلامة والعافية دائمًا، وأن يجنِّبه الشرور ويفتح له باب كل خير، وأن يُلهِمَه الدعاء في كل أحواله، وكُلَّما اضطَرَّته الحاجة لذلك كان أكثر تبتُّلًا وأعظَمَ إخباتًا وأشدَّ لجوءًا إلى الله.

وفي هذا الدعاء ختَمَ النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هذه الوصية بقوله: «**وأستَغفِرُكَ لمَا تعلمُ، إنَّكَ أنت علَّامُ الغُيوب**»، وفيه حثٌّ العبد على أن يستغفر الله من الذنوب عامة، وذنُوبٍ نَسِيها ولكن الله تعالى يعلَمُها ولم يَنسَها، فلما كان المرء يخشَى أن يظهر له ما لم يَخطُر له على بالٍ فيُؤَاخذ عليه، جاءت إليه الوصيَّة بأن يسأل الله أن يغفِرَ له ما خَفِي عليه ولكنه لم يخفَ على الله، وأن يتبتل إلى الله أن يغفِرَ

(١) «الوصية المباركة» (ص٧٧).

له ما كان منه من زَلَل وإن لم يكن يتذَكَّره، ولذلك ختَمَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هذا الدعاء المُبَارك بقوله: «**إنَّك أنتَ عَلَّام الغُيوب**»، فهو سبحانه الذي لا تَخفَى عليه خافيَة، وهو المُطَّلع على ما يُضمِرُه العبدُ وما يتكَلَّم به، كما قال تعالى: ﴿ يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ ﴾ [غافر:١٩]، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ ۝٩ فَمَا لَهُۥ مِن قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ ۝١٠﴾ [الطارق:٩-١٠].

فمِن الجَميل المُؤكَّد أن يدعو الإنسان دائمًا طالبًا من ربِّه تعالى مُغفِرة ذنب معيَّنٍ فعلَه ويرجوه سبحانه أن يُخَلصه منه، وكذلك يَدعُو الله أن يغفر له ما وقع منه من ذنبٍ قد خفي عليه ولكن الله تعالى يعلَمُه، فيخاف أن يُؤَاخِذَه عليه، فيكون تبتُّلُه إلى الله تعالى واعتِرَافُه بذنبه والتبَرؤُ منه وسيلةً إلى نجَاتِه.

والناظرُ إلى هذه الوصية بعُمق يتَّضح له قدر الدعاء وعَظيم مَنزلته، خصوصًا عند انصراف الناس إلى الدنيا، والإقبال عليها بكل طريق وسبيل، ولو كان المُقَابل ترك عمل الآخرة، والركون إلى اللهو والغَفلة، فيَقِل المعين على الخير، وتكثُرُ الفتن والشَّهوات، وتضعفُ القلوب، ويخَافُ المرءُ على نفسِه السُّقوط، فلا يجد له سبيل نجاة إلا بالفرار إلى الله ومُلازمَة دعائه.

○○○○○

الافتقار إلى الله

العبدُ المُوَفق مَن أنار الله بصيرَتَه، وأيقَنَ تمامَ اليقين بأنه لا يستغني طرفَةَ عين عن ربِّه، وأنه مُحتاج إليه في جميع أحواله، فيزدَاد تعَلُّقه بربه وخَالقِه، وتكون أسعَدُ أوقاته وأعذَبُ لحظاته حين يَخلُو بربه فيُنَاجيه، ويَشتكي إليه حالَهُ، لعِلمِه أنه لن يعلَمَ حقيقة ما يمُرُّ به من الوجع وما يفتَقرُ إليه من الحاجات إلا الله تعالى.

وقد تجَلَّت هذه الحقيقة بَيِّنةً واضحةً عند السلف الأخيار، حتى تتَابَعَت عبارَاتُهم على الوصية بها وبيان أهميتها.

سُئل أبو عبدِ الله الصبيحي عن أصُول الدِّين، فقال: «إثباتُ صِدقِ الافتقار إلى الله تعالى، وحُسْن الاقتداءِ برَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ».

وقال أبو بَكرٍ الكتَّاني: «إذا صَحَّ الافتقار إلى الله صَحَّ الغِنَى به؛ لأنهما حالان لا يتِمُّ أحدُهُما إلا بصَاحِبه».

وكان سَهلُ بنُ عبدِ الله يَقُول: «ليسَ بين العَبد وبين الله حجَابٌ أغلظُ من الدَّعوى، ولا طريق أقرَب إليه من الافتِقَار».

وجاء عن أبي حفص النَّيسَابُوري أنه قال: «أحسَنُ ما يتَوسَّل به العبدُ إلى مولاه: الافتقارُ إليه، وملازمةُ السُّنة، وطلبُ القُوتِ من حِلِّه».

وقال أحمدُ بنُ أبي الحسَن: «سَلكتُ كلَّ الطرق المُوصِلة، فما رأيت أقربَ ولا أسهَلَ ولا أصلَحَ من الافتِقَار، والذُّل، والانكِسَار. قيلَ له: وكيف يَكُون؟ قال:

تُعَظِّم أمرَ الله، وتُشفِق على خَلق الله، وتَقتَدي بسُنَّة رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ».

وما كانت هذه العِبَارات من هؤلاء الملأ الأخيَار إلا ليَقِينهم بأنَّ العبدَ لا يستغني عن ربه، وأنه لا يملِكُ لنفسه نفعًا ولا ضرًّا، وأنه لا حولَ له ولا قوةَ إلا بالله.

ومَن اطَّلَع على مَسَالكِ الصَّالحين من الخَلق، علِمَ هذه الحقيقة، وأنهم كانوا أشَدَّ ما يكونون افتقارًا إلى الله تعالى في كل أحوَالِهم وسائر أيام حيَاتِهم، فإذا وقع بِهم المُصَاب، وحلَّت بهم البَلوَى، ظهَرَ عليهم من الافتقار أضعَاف ما كانوا يعمَلُون به في حال العَافيَة.

وقد تبَوَّأ الأنبياءُ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ هذه المنزلة العظيمَةَ، وأدرَكُوا هذه الخَصلَة النبيلة، لكَونِهم أعرف الناس بالله تعَالى.

ولذلك تجِدُهم إذا اشتَدَّ الكَربُ فَزِعوا إلى ربِّهم وخالقهم، ولاذُوا به سبحانه مما حلَّ بهم؛ لعِلمِهم أنه لا يملك كشفَ ذلك عنهم إلا هو سبحانه، ولجَأوا إليه بالدعاء الذي يظهَرُ فيه الافتقار إليه سبحانه والتبَرؤ من الحَول والقوة؛ لأنَّ بالدعاء إظهار سِمَة العبودية لله سبحانه، والتذَلُّل له عَزَّوَجَلَّ، والثناء عليه بما يستَحِقه من صفات المَدح والكمَال، ولذلك قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**الدعَاءُ هُو العِبَادَة**»(١).

كما أنهم يشتكُون إليه سبحانه بما ظَهَر على أحوالهم من الضُّر، ويستعطِفُونه ويطلبُون رحمته ممَّا أصابهم من الكَرب، والحاجة إلى لُطفِه وإحسانه، مثل ما جَرى مع موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ حيث قال: ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٢٤﴾﴾ [القصص:٢٤]، وفي هذا بيَان على أنَّ الله تعالى كما يُحِبُّ من الداعي أن يتوَسَّل

(١) رواه أبو داود (١٤٧٩)، وهو صحيح، انظر: «صحيح الترغيب والترهيب» (١٦٢٧).

إليه بأسمائه وصفاته ونِعَمِه الخاصة والعامة، فإنه يُحِب منه أن يتوَسَّل إليه بضَعفِه وعَجزِه وفَقرِه، وعدم قُدرَته على تحصيل مصَالحِه ودفع الأضرار عن نفسه، وفي ذلك إظهار غاية التضَرع والمَسكَنة والافتقار الذي هو حقيقَةُ العَبد[1].

وكلما كان العبدُ أكثر اضطرارًا، كان ذلك مؤذِنًا بحصول الفَرَج، قال تعالى: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ﴾ [النمل:٦٢]، والمُضطَر: هو المَكرُوبُ المَجهُود، فإذا أصابه الكربُ لجأ إلى الله؛ لعِلمِه أنه لا يكشف ضُرَّ المَضرُورين سواه، فإذا استغَاث به كشَفَ كربَه وبَلاءَه، ورَحِم تضرُّعَه وشَكوَاه.

وقد جاء رجلٌ إلى رسولِ الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال: «يا رَسُول الله، إلامَ تَدعُو؟ فقال: **أدعُو إلى الله وَحدَه؛ الذي إن مسَّكَ ضُرٌّ فدَعَوتَه كشَفَ عَنكَ، والذِي إن ضَللتَ بأرضٍ قَفرٍ فَدعَوتَه رَدَّ عليكَ، والذِي إن أَصَابَتْكَ سَنَةٌ فدَعوتَه أَنبَتَ لكَ**»[2].

ولمَّا وقع البلاءُ بنبي الله أيُّوب عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، واشتَدَّ عليه البلاء أشَدَّ ما يكون، وطالَ أمَدُه، توجَّه إلى الله سبحانه يشكو إليه حاله، ويُظهر الافتقارَ إليه، والتوسل بضَعفِه وقِلَّة حيلته، فرفع الله تعالى عنه البَلاء، وكافأه عظيم المكافأة، قال تعالى: ﴿۞ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٨٣﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ ﴿٨٤﴾﴾ [الأنبياء:٨٣-٨٤].

فقد ذكر الله تعالى قصَّةَ أيوبَ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ وكبيرَ صَبْرِه على البلاء الشديد الذي

(١) انظر: «تيسير اللطيف المنان» لابن سعدي (ص٢٢٨).
(٢) رواه أحمد (٢٣٢٠٥)، وهو صحيح، انظر: «صحيح الجامع الصغير» (٢٢٤).

لم يُصِب أحدًا من الخلق، حيث ابتلاه الله تعالى ببدنه فسالت القُروح في جسَدِه، وعانى منها الألم والضَّنك، وفقد ماله وجميع أهله وولده، فصبر لأمر الله ولم يَزَل منيبًا إليه، فلما تطاوَلَ به المرض العظيم، ونسيه الصاحب والحَميم، لجأ إلى ربه سبحانه مفتقرًا إليه: ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾، فاستجاب له سبحانه وأذِن برفع البلاء عنه، وقيل له: ﴿ٱرۡكُضۡ بِرِجۡلِكَۖ هَٰذَا مُغۡتَسَلُۢ بَارِدٞ وَشَرَابٞ ۝٤٢﴾ [ص:٤٢]، فأمره أن يضرب الأرض برِجْله، فنبعت بضربته عين ماء بارد، فشرب منها واغتسل، فأذهب الله ما في باطنه وظاهره من البلاء، فعادت له صحَّة بدنه، وأُعطِيَ من النِّعم والخيرات شيئًا كثيرًا، وأُوتِيَ أضعافَ ما فقده، ورُزِق جملة من الأولاد، وعاش عمرًا طويلًا، وأثنى الله سبحانه عليه بالخصال الحميدة عمومًا، وبالصبر على البلاء خصوصًا، وجعله بهذا الصبر قدوة للصابرين، وسَلوةً للمبتلين، وعِبْرة للمعتبرين.

وفي هذا أعظم شاهد على أنَّ دعاء الله عَزَّوَجَلَّ والتضرع له والافتقار إليه والانكسار بين يديه، من أعظم أسباب الفرج وكشف البلاء.

ولما كبرت سِنُّ زكريا عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ ولم يُرزَق من الولد ما يكون له عونًا ومؤنسًا في هذه الحياة، توجه مفتقرًا إلى الله وملحًّا عليه بالدعاء، يسأله من فَضلِه وجُودِه وإحسَانِه، فقال: ﴿رَبِّ لَا تَذَرۡنِي فَرۡدٗا وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡوَٰرِثِينَ ۝٨٩﴾ [الأنبياء:٨٩]، فرَزَقه الله سُؤله، وأسبغ عليه نِعمَته، ورزقه بيَحيَى عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ نبيًّا كريمًا، وذلك لشدة افتِقَاره إلى خالقه، وكونه من المُسَارعين إلى الخيرات، الداعين اللهَ في جميع الأحوال والأوقات، المُجتَهدين في العبادات، كما قال تعالى: ﴿فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَوَهَبۡنَا لَهُۥ يَحۡيَىٰ وَأَصۡلَحۡنَا لَهُۥ زَوۡجَهُۥٓۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ

﴿يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴿٩٠﴾﴾ [الأنبياء:٩٠].

وفي هذا أوضَحُ بيانٍ على أنَّ التعرف إلى الله في حال الرخاء بالعبادة وأداء الأعمال الصالحة على وجهها، والافتقار إليه بالدعاء، وبذل المعروف بين الخَلق، والمُسَارعة إلى الخيرات بأنواعها، من أعظم أسبابِ كشفِ الضُّر وزَوالِ الكرب، وفي ذلك يَقُول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**تعرَّف إلى الله بالرَّخَاء يَعرِفْك بالشدَّة**»(١)، وقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**صنَائعُ المَعرُوف تَقِي مَصَارع السُّوء**»(٢).

ولما بُعِثَ يونس عَلَيْهِ السَّلَامُ في قومه ودَعَاهم إلى الله تعالى، كَفَروا به، وتمَادوا في غَيِّهم وعِنَادهم، فخرج من بين أظهرهم حين أغضَبُوه دون أن يستأذن ربَّه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ووعدَهُم بالعذاب بعد ثلاث، ولعِلمِهم أن النبي لا يكذب، خرَجُوا إلى الصحراء بأطفالهم وأنعَامِهم ومواشيهم، وفرَّقوا بين الأمهات وأولادها، ثم تضَرَّعوا إلى الله عَزَّوَجَلَّ وجأروا إليه، فرفع الله عنهم العذاب، قال الله تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُوا۟ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٩٨﴾﴾ [يونس:٩٨].

وأما يونُس عَلَيْهِ السَّلَامُ فإنه ركِبَ سفينة مع قوم، فاضطربت بهم، وخَافُوا أن يَغرَقُوا، فاقتَرعُوا على رَجُل يُلقُونه من بينهم يتخَفَّفون منه، فوقعت القُرعَةُ على يونس عَلَيْهِ السَّلَامُ، فأَبَوا أن يُلقوه، ثم أعادوها فوقعت عليه أيضًا فأبوا، ثم أعادوها فوقعت عليه أيضًا، فقام يونس عَلَيْهِ السَّلَامُ وألقى نفسه في البحر، فابتلعه الحوت

(١) رواه أحمد (٢٨٠٣)، وهو صحيح، انظر: «صحيح الجامع الصغير» (٢٩٦١).
(٢) رواه الطبراني في «الأوسط» (٩٤٣)، وهو صحيح، انظر: «صحيح الترغيب والترهيب» (٩٨).

كما قال الله تعالى: ﴿فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿١٤٢﴾﴾ [الصافات:١٤٢]؛ أي: آتٍ بمَا يُلَامُ عليه.

فلما أَحَاطَت به الظلمات: ظُلمة الليل وظُلمة البحر وظُلمة بطن الحوت، وضاقت به الحال، وعَظُم عليه الكَرب، لم يَجِد مَفزعًا سوى ربه وخَالِقِه سبحانه، فلجأ إليه لجوء المُفتَقر الذي لا غنى له عن ربه، وانكسَر بين يديه مُقِرًّا بما كان منه، وقام عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ ﴿فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾﴾، فكان ذلك من أسباب حصُول الفَرَج له وخَلاصه مما حلَّ به، كما قال تعالى: ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُنجِي ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾﴾ [الأنبياء:٨٧-٨٨].

ولولا ذلك للَبِثَ في بطن الحوت إلى يوم القيامة، كما قال تعالى: ﴿فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤٤﴾﴾ [الصافات:١٤٣-١٤٤]، أي: لصار بطن الحوت له قَبْرًا إلى يوم القيامة.

وقد أخبر النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنَّ هذه الكلمات هي كلمَاتُ الفَرَج، التي من دعا بها كشف الله عنه ما وقع به من البلاء، فقد صَحَّ عنه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه قال: «**دَعوةُ ذِي النُّونِ إِذ دَعَاه وهُوَ فِي بَطنِ الحُوت: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾؛ لم يَدعُ بهَا رجلٌ مُسلمٌ فِي شَيءٍ قَطُّ؛ إلا استَجَابَ اللهُ لَهُ**»[1].

فكانت هذه الكلمَات من أسباب حصُول الفرج لمن وقع به الضَّرر، لِما تضَمَّنته من الافتقار الشديد، والانكسَار بين يدي الله، حيث أُغلِقَت في وجه

(١) رواه أحمد (١٤٦٢)، وهو صحيح، انظر: «صحيح الترغيب والترهيب» (١٨٢٦).

المَكروب الأبواب، ولم يَبقَ أمامه إلا بابُ الحَليم الكريم، الذي بيده مفَاتيح كل شيء وإليه الأمرُ كله.

وفي قصَّة يونس عَلَيْهِ السَّلَامُ وتفريج الله تعالى عنه أعظم دليلٍ على أنَّ التعرُّف إلى الله بالعمل الصَّالح في حال العافية سببٌ لتفريج الكروب إذا وقعت، وقد جاءت الإشارة إلى ذلك بقوله تعالى: ﴿فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤٤﴾﴾ [الصافات:١٤٣-١٤٤]، قال أهل التَّفسير: كان كثيرَ الذِّكر لله تعالى قبل ذلك. وقال الحَسن البَصري: «ما كانت له صلاة في بَطن الحوت ولكنه قدم عملًا صالحًا»، وقالَ الضحَّاك: «شَكر اللهُ تعَالى له طاعَتَه القَديمَة».

ولما خافَ يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ على دينه الفتنة، وقد أحاطت به النسوة يُرِدْن به ميلًا عن الحق واتباع الشهوة التي تُذهب دينه، لجأ إلى ربه ومولاه مُنكَسِرًا، قد أقرَّ بفَقرِه وحاجته إلى ربه، لعِلمِه أنه لن يُثَبِّتَه في هذا المقام الحرج وأمام هذه الفتنة العظيمة سِوَى الله تعالى، وقال: ﴿رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَىَّ مِمَّا يَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ ۖ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّى كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٣﴾﴾ [يوسف:٣٣]، فثَبَّته الله تعالى، وزَكَّاه بأنه من عبَادِه المُخلَصين، كما قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [يوسف:٢٤]، ورفَعَ قَدرَه ومقَامَه على الرغم مما ناله من الأذى حيث سُجِن ظلمًا، ولكن لقُوَّة يقينه بربه كان السجنُ أحبَّ إليه من مُوَاقعة الذنب الذي يَحُطُّ قَدرَه عند ربه الذي اصطفاه بالرسالة، وخَصَّه بالفضل، فكافأه الله تعالى بأن أورَثَه الأرض، وأنعَمَ عليه بالظَّفَر والتمكين، كما قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ ۖ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ ۖ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾﴾ [يوسف:٥٦].

ولقد كان نبينا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في أَشَدِّ أحواله واحتياجه إلى ربِّهِ وخالِقِهِ، أشد ما يكون افتقارًا وانكسارًا بين يديه، ولذلكَ لمَّا وقعت غزوة بدر على غير اتفاق على الحَرب، وكانت الوَقعَة في بداية الدعوة، وعدد الصَّحَابة قليل، ولم يكونوا قد أَخَذُوا عُدَّة الحرب، وجاءت قريشٌ بعدِّها وعَدِيدها، وقد عزموا على استئصال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ والصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ عن بَكرَةِ أبيهم فلا يُبقُونَ منهم أحدًا، فعند ذلك قام النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ طويلًا في عريشٍ قد صُنع له، ومعه فيه أبو بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ليس معه فيه غيره، وقد استقبل القبلة، ومدَّ يديه إلى السماء، وهو يُظهِر الافتقار إلى الله، ويُكثِرُ الابتهال والتضَرُّع والدعاء، ويناشِدُ ربَّه ما وعده من النصر، ويقول: «**اللَّهمَّ أنجِز لِي مَا وَعدتَنِي، اللَّهُمَّ آتِني مَا وعَدتَني، اللَّهمَّ إن تهلِك هَذِه العِصَابة مِن أهلِ الإسلَامِ لا تُعبَد فِي الأرضِ**، فمَا زال يهتفُ بربه حتى سقط رداؤه عن مَنكِبَيه، فأتاه أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فأخذ ردَاءَه فألقاه على منكبيه، ثم التَزَمه من ورائه وقال: يا نَبيَّ الله، كَفَاك مُنَاشدتَك ربَّك، فإنه سيُنجِزُ لك ما وَعَدَك».

فأنجَزَ اللهُ له ما وعده، وأعقبه فتحًا عظيمًا ونصرًا مُؤَزرًا، وكان هذا الانتصار فاتحة العز والتمكين، وذهاب غيظ صدور المؤمنين.

وقد جاء عنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه كان يخرج للاستسقاء متذللًا متواضعًا متخشعًا متضرعًا[1]، وفي هذا الفعل منه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إظهار للافتقار والمسكنة بين يدي الله، حتى يكون ذلك وسيلة لاستجلاب رحمته، فيَجُود على عَبدِه بالفَضل والإحسان.

---

(١) رواه أبو داود (١١٦٥)، وهو صحيح، انظر: «مشكاة المصابيح» (١٥٠٥).

ولا يقتصر الافتقار إلى الله على حال وقوع الضَّرَر والشكوى من البلاء، بل إنَّ الافتقار إلى الله والانكسار له سبحانه صفة الصالحين في جميع الأحوال حتى في حال حصول النعمة؛ لأنَّ الافتقار في هذا المقام دليل على شُكر المُنعم والتواضُع له، ولذلك لما امتَنَّ الله عَزَّوَجَلَّ على نبيه صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ بفتح مكة في يوم أعز الله فيه الإسلام وأهله، دخلها صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ متخشعًا متواضعًا خافضًا رأسه، حتى إن شَعرَ لِحيَته يكاد يَمَسُّ واسطة رحله، وقد أظهر الخوف والخشية من الله عَزَّوَجَلَّ، فلم يتكَبَّر ولم يتعالَ على أحَد، وهو في حال يُمكِنه فيه أن يُظهر التعاظم على أهل مكة الذين آذوه وأخرَجُوه، لكنه أظهر التواضع والافتقار لله رب العَالَمِين، اعتِرَافًا بفضله وإحسَانه.

وقد أمَرَ الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ بإظهار الافتقار إليه بعد الانتهاء من أداءِ العبادة، والإتيان بالاستغفار، كما قال تعالى: ﴿ ثُمَّ أَفِيضُواْ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ وَٱسْتَغْفِرُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٩٩﴾ ﴾ [البقرة:١٩٩].

فلمَّا أدَّى الناسُ جُملة من الأعمال في آخِرِ مَنَاسك الحج، فقاموا بِرَمي الجِمَار، وذبح الهَدي، والطواف، والسعي، والمبيت بمِنى ليالي التشريق، وأكمَلُوا باقي المَنَاسك، أُمِروا عند الفراغ منها باستغفار الله سبحانه، وذلك للخَلَل الواقع من العَبد في أداء عبادته وتقصيره فيها.

وثبت عن النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ أنه كان إذا فرَغَ من الصَّلاة استغفر ثلاثًا[1].

قال أهلُ العِلم: وهكذا ينبغي للعَبدِ، كلما فرَغَ من عِبَادة، أن يستغفِرَ الله عن

(١) رواه مسلم (٥٩١).

التقصير، ويشكُرَه على التوفيق[١].

ومَن تأمَّل تنوع هذه النصوص، فهم ما فيها من الإشارة إلى غَرس الافتقار إلى الله في نُفُوس الخَلق في جميع الأحوال، حتى يبقَى العَبدُ مُتَحريًا للخير، خائفًا من الخَلَل، لاجئًا إلى الله في حال الاضطرار، وهذا من أعظم الأبواب التي يدخُلُ منها العبد إلى الله تعالى.

فالافتقار إلى الله هو أقربُ بابٍ يدخل منه العبدُ على الله، فلا يرى لنَفسِه حالًا ولا مقامًا، ولا مِنَّة يَمُن بها على ربه، بل يدخل على الله تعالى من باب الافتقَار الصِّرف، والإفلاس المَحض، دخول من قد كَسَر الفقرُ والمَسكَنةُ قلبَه، حتى وصلت تلك الكسرة إلى سويدائه فانصَدَع، وشَهِد اضطراره إلى ربه عَزَّوَجَلَّ وكمال فاقته وفقره إليه، وأنه إن تخلى عنه طرفة عين هلك، وخَسِر خَسَارة لا تُجبَر؛ إلا أن يَعودَ الله تعالى عليه ويتدَاركه برَحمَته[٢].

○○○○○

آخر كتاب: «وعظ القُلوب»

الحمدُ لله الذي مَنَّ عليَّ بإتمامه، وأسأله سبحانه أن يجعَلُه مباركًا، وأن ينفع به عبَادَه المسلمين، وأن يُثِيبني عليه يومَ الدِّين، وقد كان الفراغُ منه في يوم السَّابع من شهر شوَّال عام (١٤٤٦هـ)، الموافق ١٥/ ٤/ ٢٠٢٥م.

وصَلَّى الله وسَلَّم على نبيِّنا محمدٍ وعلى آله وصَحبِه أجمَعِين.

---

(١) انظر: «تفسير السعدي» (ص١٩٨).

(٢) انظر: «الوابل الصيِّب» لابن القيم (ص١٢).

الفهـرس

المقدمة ٥
المواعظ ٧
حياة القلوب ١٦
الاعتبار من الكوارث والمحن ٢٥
التاريخ ... دروس وعبر ٣٣
التفاؤل ٤٠
التنافُسُ المُهلِك ٤٧
الثبات ٥٦
الراحمون يرحمهم الرحمن ٦٤
الرجاء ٧٠
الرفقُ كلُّه خير ٧٩
الصبر مفتاح الظفر ٨٥
الظلم ظلمات ٩٣
تبدُّل الأزمان ١٠٠
سرعة الأيام وانقضاء الأعمار ١٠٩
سقوط الدولة الأموية ١١٧

طمع النفوس..... ١٢٧
غربة الإسلام..... ١٣٧
من أخطر معاول هدم الأسرة..... ١٤٧
أسباب زوال الهموم والغموم ١٥٥
نزهة النفوس..... ١٦٤
الأمانة..... ١٧١
ذم الهوى..... ١٨٠
العلم الشرعي ميراث الأنبياء..... ١٩٠
وَصيةٌ جامعة..... ٢٠١
الافتقار إلى الله..... ٢١٢
الفهرس..... ٢٢٢

www.salemalajmi.com
Email:alajmi250@hotmail.com
@dr_salem_alajmi